إيدنا فيربر

رواية
NOVEL

دون أوهارا
الفتاة التي ضحكت

ترجمة
نور شرف

دار الرافدين

الرواية الحاصلة على جائزة البوليتزر عام 1924

دون أوهارا

الفتاة التي ضحكت

Don O'Hara

The Girl Who Laughed

إيدنا فيربر

ترجمة: نور شرف

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2018

First Edition: Beirut _ Lebanon, 2018

First Published in 1911

New York

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي شارع حسن باشا الجديد

تلفون: 07830070045 / 07714440520

daralrafidain@yahoo.com

info@daralrafidain.com

www.daralrafidain.com

dar alrafidain

Dar.alrafidain

@daralrafidain_l دارالرافدين

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 399 - 5

دون أوهارا

الفتاة التي ضحكت

إيدنا فيربر

ترجمة:

نور شرف

www.daralrafidain.com

الإهداء

إلى أمي العزيزة التي دائماً ما تقاطعني...

وإلى أختي فاني التي تسكتها خارج باب غرفتي

الفصل الأول

بضعة أشياء فقط، تبدو أكثر متعة من كونك مريضةً في شقة في نيويورك، هي أن تكون أعزّ ما عندك أخت متزوجة في ميتشغان البعيدة.

عليك أن تكون مرتاحاً لأن هنالك أطباء وممرضات بزي مخطط بالأزرق والأبيض، وزجاجات وأشياء أخرى. كما أن هنالك أيضاً مزهرية مليئة بقرنفلات مرحة، لا سيما القرمزية منها، اكتشفت، بخفة أن لها خدعاً من إيماءات رؤوسها، وهذا الاكتشاف لم يبد أنه فاجأني.

«كيف حالك؟» قلت بصوت عال لأسمن القرنفلات وأكثرهن حمرة، وقد كانت مخيمة فوق الأخريات. «كيف وصلت إلى هنا يا ملعونة؟»

الممرضة ذات الزي المخطط ـ والتي لم ألحظها سابقاً ـ ظهرت من زاوية ما وأتت مسرعة إلى جانب سريري، آخذةً رسغي بين أصابعها. «أنا بخير، شكراً». قالت مبتسمة. «أتيت من الباب، بالطبع».

«لم أكن أتحدث معك». نهرتها بنزق. «كنت أتكلم مع القرنفلات، بالأخص تلك العجوز في الأعلى، السمينة التي تنحني وتهز رأسها لي».

«أها، نعم». أجابتني بأدب. «بالطبع، تلك القرنفلة كلها نشاط، أليس كذلك؟ ولكن ما رأيك أن نأخذهن إلى الخارج قليلاً».

أخذت المزهرية وحملتها معها إلى البهو، ما جعل رؤوس القرنفلات تهتز بحماسة من فوق كتفها أكثر مما سبق.

سمعتها تنادي شخصاً بصوت منخفض، وأجاب ذلك الشخص بزعقة حادة شبيهة بصوت أعرفه، متفاجئ لمعرفة أني واعية.

بعدها بلحظة دخلت أختي نورا بهدوء، وركعت بجانب سريري وأخذتني في حضنها. لم يفاجئني وجودها هناك وهي تطمأنني بتربيتات مفعمة بالحب، وتتمتم لي وفمها بجانب خدي، تناديني بمئات أسماء الدلع المنسية، والتي لم أسمعها منذ سنوات.

وعلى أية حال، فبعد ذلك النهار المفاجئ لم يعد شيء يفاجئني، ولا حتى منظر رجل أصهب الشعر والوجه عظيم الجثة، يتمشى في الغرفة بينما كانت نورا تلعن الصحف بشكل عام، وصحيفتي بشكل خاص، وتنادي رئيس قسم المحليات في الجريدة بتاجر العبيد وبالوحش. وقف الرجل الأصهب محدقاً فينا بصبر.

«تحسنت، ها؟» قال ولكن كتأكيد على فكرة ما وليس كمن يسأل سؤالاً، وبعدها قام هو أيضاً بأخذ رسغي بين يديه، لَمستهُ كانت صارمة وباردة. بعدها شدّ جفنيّ إلى الأسفل وهمهم، وبعد ذلك ربت على خدي مرة أو مرتين.

«حالتك جيدة». قال ورفع ورقة من على الطاولة وحدق فيها بتمعن، تبع ذلك قرقعة زجاجات وكؤوس، وبعض كلام منخفض موجه للممرضة، وعندما خرجت الممرضة من الغرفة، وجد الرجل الأصهب لنفسه مكاناً على كرسي بجانب السرير، وأراح يديه الكبيرتين على ركبه السمينة، وحدق فيّ بنفس الطريقة التي يحدق فيها ضروس ضخم بكلب صيد صغير. أخيراً نزلت نظرته إلى يدي اليسرى المرتخية.

«متزوجة، أي؟»

للحظة، لم تقوَ الكلمة على الخروج. كنتُ أستطيع سماع نورا تحبس نفسها فجأة.

«نعم». أجبته.

«الزوج حي؟» رأيت الشك يلمع في عينيه الرماديتين، ومرة أخرى حبست نورا نفسها وقامت بحركة أخرى، ومرة أخرى أجبته بـ نعم. انفجر لمعان الشك إلى إشعاع.

«أين هو؟» هدر الطبيب الأصهب. «وفي حالة كهذه؟»

أغلقت عيني للحظة، ومنعني الألم في قلبي من الشعور بالحنق على تصرفه، وقد شعرت بدون أن أرى أنّ أختي كانت تشير عليه بحركات مؤنبة. بللت شفتي وأجبته بمرارة. «هو في مشفى ستاركويذر للمجانين».

عندما تحدث الرجل الأصهب من جديد، كان صوته خالياً من أي هدير. «ومسكنك، أين؟»

«لا مكان». أجبته بخنوع من عن وسادتي، وبسماعها هذا رفعت أختي يدها كأن شيئاً ما ضربها وقالت. «بيتي هو بيتها».

«حسناً إذاً، خذيها إليه». أمرها عابساً. «وأبقيها هناك أطول فترة ممكنة... مراسلة صحفية ها، وفي نيويورك؟! هذا عمل شيطاني لامرأة. وزوج... على كل حال، عليك أيتها الشابة أخذ ست شهور تدريب على التسكع واعتياد وقت الفراغ، وعندما تنتهي الفترة، إذا ما زلت مصرة على العمل، ألا تقدرين على اختيار شيء أسهل، مسح الأرضية مثلاً؟»

غصبتُ ابتسامةٍ ضعيفة على وجهي، متمنية أن يذهب بسرعة لعلي أنام. بدا وكأنه استشرف أفكاري فقد اختفى في البهو آخذاً نورا معه.

كانت أصواتهم وبرغم انخفاضها المتعمد تصلني من خارج الغرفة.

نورا كانت تخبره عن كل تلك المأساة، وقد تمنيت بشراسة لو أنها تركت لي

أن أرويها، إن كان يجب أن تُروى. كيف لها أن ترسم له افتتاني بالرجل الذي كان زوجي، هي لم تعرف ذاك السحر الخاص به، كما عرفته أنا في الشهور القليلة قبل زواجنا، وهي لم تشعر يوماً بلطف صوته، أو جاذبية عينيه الغريبة، والمتقدة، وهما تحدقان فيّ من الجانب الآخر من غرفة يسبح فيها الدخان.

لا أحد يعلم أبداً ما عناه هذا الرجل لفتاة في العشرين من عمرها، وبعقلها المليء بالأحلام المسكوت عنها، أحلام ستتفتح لتصبح حقيقة وواقعاً في ذلك المكان المدهش ـ نيويورك.

كيف أضرمَ النار في مخيلتي القروية، لقد كان أروع الكتّاب في الجريدة وأكثرهم تهتكاً. كيف قفز قلبي في ذلك اليوم الموحش، عندما رفع ذلك الأعجوبة رأسه عن مكتبه. رآني ومشى باتجاهي حيث كنت أجلس أمام آلتي الكاتبة، ابتسم لي بود وكنت متأكدة أن فمي كان مفتوحاً على وسعه من المفاجأة. لقد كان يدخن سيجارة باهظة الثمن ذات فلتر ذهبي اللون. سحبها من بين شفتيه بتلك اليد التي دائماً ما كانت ترتجف، وتركها تقع على الأرض ليسحقها بطرف حذاءه، ألقى برأسه الوسيم إلى الخلف، ونفخ ما تبقى من دخان في فمه على شكل لولب هزيل. تذكرت ما مر في ذهني وقتها، كم كانت خسارة له أن يسحق تلك السيجارة الثمينة فقط لأجلي.

«اسمي أورم». قال بجدية. «بيتر أورم، وإن لم يكن اسمك على الأقل شونسي أو بورك، فلا فكرة لدي ما يعنيه الشعر الأسود والعيون الرمادية».

«لا فكرة لديك بالفعل». أجبته وضحكت. «فاسمي هو أوهارا... دون أوهارا».

أمسك بشيء ما من على مكتبي، قلماً ربما أو قصاصة ورق ولعب بها غائب البال، وكأني لم أتكلم. ظننت أنه لم يسمع وكنت واعية لإحساسي بالقليل من الخجل وبصغر سني، وفجأة رفع عينيه المتقدتين إلي، ورأيت أنهما اتخذتا

نوراً أكثر عمقاً، بانت أسنانه البيض المتساوية من خلال نصف ابتسامة. «دون أوهارا». قال ببطء، نافخاً بالاسم موسيقى لم أعهدها سابقاً. «دون أوهارا، الاسم يذكّر بوردة زهرية اللون، واللون أكثر عمقاً في قلبها، وهي شديدة الحلاوة».

أعاد الإمساك بما كان يلعب به، ونظر فيه بتمعن، كأن عقله كله مأخوذ به، ومن ثم أعاده مرة أخرى على المكتب، واستدار ومشى مبتعداً. جلست وحدقت فيه كحمقاء، مدهوشة ومشوشة ومتعجبة. كان ذلك بداية كل شيء.

كان عنده ما نسميه نحن الأيرلنديون (حركات)، أتساءل لمَ لمْ أجن بسبب الفرح والألم والخوف من المجهول؟ لا وجود لفتاة أبداً أُدهشت، وأُهينت، عُبدت وهُجرت، ولا فتاة قيل فيها كل هذا الغزل، كما حدث لي. كان مخلوقاً بألف مزاج، وكلها مزاجات معذبة. أتساءل عن هيئته هذه الأيام؟ أهو مبتهجٌ، مكتئبٌ، نكدٌ، لعوبٌ، شغوفٌ... هل هو باردٌ أم رقيقٌ أم متألقٌ؟ أنا أعرف أن يديّ دائمتا البرودة ووجنتي دائمتا الحرارة هذه الأيام.

كان يكتب كأنه نسخة حديثة عن دوموستينيس[1]، يهابه ويهاب خطابه سياسيو نيويورك. كان رئيس التحرير يرسله في مهمات رائعة، وكانوا يوقفون الجريدة عندما تتأخر مقالاته. أحياناً كان يختفي لأيام متتالية، وعندما يعود كانت الرجال تنظر إليه، بإعجاب وهيبة، وقد ينظر إليه محرر الشؤون المحلية من تحت قبعته الخضراء وينادي عليه: «قلي لي يا أورم، لرجل مثلك جمع ما يقارب المليون دولار من مقالاته، لا تبدو لي كثير التأنق!» يهدر فيهم بيتر أورم بأنه لم ينم منذ أسبوع، ومن ثم يناطح بين الرجال المتحلقين حوله ويتجه نحوي، وعند رؤيته تخنقني تلك المشاعر بالحر والبرد، بالسعادة والرعب، تخنقي الرغبة بالضحك والبكاء.

---

(1) سياسي وخطيب يوناني ولد في أثينا وتوفي في سنة 322 ق. م

تزوجنا، الحب أضفى بريقاً على مساوئِه، حبّه للشرب ضعفٌ أحوّله إلى قوة، صولات مزاجه الوحشي لا شك تموت تحت لمستي الباردة والمحبّة، لحظات تذمره ونكده مجرد دليل على عبقريته الكامنة، روحي المتعبدة كانت دائماً جاهزة ومستعدة لإعطائه عذراً ما.

وهكذا كان زواجنا، ملّ مني خلال أقل من سنة، واليد التي كانت ترتجف قليلاً زاد ارتجافها، وأَكْثرَ مزاجه المتوحش من الظهور، متغلّباً على أي مزاج آخر. اعتدت أن أضحك أحياناً في وحدتي على هذه الفكاهة المريرة، وكأن حياتي خرجت إلى النور من عمق رواية فكتورية.

بدأ عمله يُظهر انزلاقات حادة في الجودة، حدّثوه بشأن هذا وضحك عليهم، ويوماً ما تركهم في معمعة قضية مكمانوس الضخمة، فقال له رئيس التحرير ألا خيار له إلا أن يترك الجريدة. تقلبات مزاجه كانت في ازدياد ولا حل لديهم إلا استبداله برجل آخر، ليس في عبقريته ولكن على الأقل يمكن الاعتماد عليه أكثر.

لا أجرؤ على التفكير بوجهه، عندما عاد إلى شقتنا الصغيرة وأخبرني بما جرى، العيون المتقدة كانت تشع ناراً في ذلك الآن، وتجمّع الزبد على حافتي فمه، حدقت فيه برعب، وقد أخذ خطوات واسعة نحوي، لافاً أصابعه حول عنقي، وعنفني كما يعنف كلب فأرة. «لماذا لا تصرخين، ها؟» صاح بي. «لماذا لا تصرخين؟»

وقد صرخت بالفعل مما رأيته في عينيه. حررت نفسي من قبضته وركضت إلى غرفتي وأقفلت الباب، وقفت مسندة ظهري إلى الباب، ويدي تضغط فوق قلبي، حتى سمعت الباب الخارجي يطبق بعنف، وصدى خطواته يموت.

الطلاق! ذلك كان خلاصي الوحيد، ولكن لا... فحركة كهذه جبانة الآن، سأنتظر حتى يستجمع عقله مجدداً وعندها سأطالبه بحياتي الحرة السابقة. هذا

الوجود الذي يجرني إلى الهاوية، هذه ليست حياة! الحياة شيء مبهر وجميل، وسأستعديها.

محمومةً وضعت خططي وانتظرت. لم يأتِ في تلك الليلة، أو الليلة التي بعدها، أو تلك التي بعدها، أو التي بعدها. يائسة ذهبت لأرى الرجال في المكتب، لا لم يره أي منهم، سألوني إن كان بمقدورهم فعل أي شيء، ابتسمت وشكرتهم وقلت إن بيتر غائب الذهن دائماً، لربما قد أرسل رسالة إلى العنوان الخطأ ولعله الآن يصحح غلطته أو شيء كهذا. وبعدها عدت إلى الشقة لأتابع الانتظار المريع.

بعد أسبوع دخل على نفس المكتب الذي نبذه، جلس أمام مكتبه القديم وكمن سُرِقَ نفَسه، أخذ يكتب كما اعتاد سابقاً عندما كانت تقع على عاتقه كل الأحداث الكبيرة، أو كتابة التقارير عن هذه الأحداث الكبيرة. أحد المراسلين مشا نحوه ولمس كتفه كما يفعل الرجال، رفع بيتر أورم عينيه وحدق فيه، فقفز الرجل إلى الخلف مرعوباً، العيون المتوقدة احترقت إلى رماد، لقد فقد بيتر أورم عقله. أخذوه تلك الليلة وبقيت أخبر نفسي أن شيئاً من هذا لم يحصل، كله حلم بشع، وسأستيقظ بعد قليل، وأضحك على هذا الحلم وأذكره على طاولة الفطور.

لا يُطلب الطلاق من زوج مجنون. الرجال المشغولون في الجريدة كانوا بغاية اللطف، فقد قبلوا عودتي للعمل معهم. هل اعتقدوا أني ما زلت قادرة على كتابة تلك القصص الإنسانية الصغيرة، قصص مضحكة، كما تعرف، وفيها لكمة فنية. أكدت لهم أنني بالطبع ما زال لدي الكثير من القصص الجيدة، يجب تذكيرهم بأنني في الواحدة والعشرين من عمري، وطبعاً لا أحد بمثل هذه العمر يفقد حس الفكاهة.

وهكذا عدت إلى مكتبي القديم، وبعثت لنورا رسائل ثرثارة ومرحة وأبدعت قصصاً مضحكة بليغة، ليبقى الزوج في دار المجانين مرتاحاً، وقبضت كالموت

بكلتا يدي على حس الفكاهة ذاك لعله ينقذني، وعاهدت نفسي على أن أفعل شيئاً بهذه التعاسة التي كانت عليها حياتي، لأفعل شيئاً بها ولكن...

في نهاية ذكرياتي، كان حديث الأصوات المنخفضة في البهو على وشك الانتهاء، تسللت أختي على رؤوس أصابعها، ورمقتني بنظر مخذولة حين رأتني ما زلت مستيقظة. «دون يا بنت، لن ينفع معك هذا، هيا أغلقي عينيك كولد شاطر ونامي، احزري ما قاله ذلك الطبيب التعيس! أستطيع أن أخذك معي إلى البيت، في الأسبوع القادم. دون يا حبيبتي، ستأتين معي صحيح، لا ترفضي! كل هذا يقتلك لا تجعليني أذهب وأتركك هنا، فلن أستطيع تحمل شيء كهذا». انحنت نحو وسادتي وأغلقت جفني بأصابعها الرقيقة الباردة.

ستأتين معي إلى البيت، وستنامين وتأكلين، تنامين وتأكلين حتى تصبحي بنشاط الأرملة مالون، وأسمن منها حتى، في البيت يا عزيزتي حيث ستنسين نيويورك كلها في البيت، معي».

بضعف مددت ذراعي نحوها، ووضعتُ يدها على شفتي، وشعرت بسلام يضيء لي روحي المريضة. «في البيت، معك». قلت كولد، وغرقت في النوم.

الفصل الثاني

أوه، ولكنها كانت نظيفة وجميلة وهادئة بشكل رائع، تلك الغرفة البيضاء والوردية في بيت نورا. لا سيارات في الشوارع لتخرق الأعصاب بزمامیرها وشفيطها، ولا وطأ أقدام على الاسمنت طيلة ساعات الضجيج الطويلة. لا زعيق لمتسكعي الليل المهابيل. لا شيء من الأصوات التي تجعل من الليل قبيحاً في المدينة. أي نعمة هي الاستلقاء ساعة بعد ساعة، بين النوم والصحو، في حالة خدر فاتن ولذيذ. فقط أنهض لأشرب خليط البيض رقم 426، وبعدها أنقلب مجدداً على الوسادة الكبيرة الباردة.

نيويورك، بأضوائها، وصخبها، وملايينها، لم تكن سوى كابوس بعيد ملخبط. مكتب الجريدة، بطقطقة آلاته الكاتبة، ورنين تلفوناته المتواصلة الحارق للأعصاب وعجلته الدائمة، وغرفه الغارقة بالدخان، كله هذا لم يكن إلا جزءاً بشعاً من الحلم.

إمكانية العودة إلى جحيم العجالة والتخبط والطرطقة؟ يستحيل! يستحيل!

هذا القرار اتخذته وأنا في نعس جميل، وعدت إلى النوم.

وتلك الأغطية! أغطية نورا! بيضاء لا رمادية وتفوح منها رائحة الزهور. وفي الحقيقة، كانت الأغطية مطرزة بصور ورود حريرية. لقد استغرقت أسبوعاً كاملاً حتى أعتاد وأتآلف مع الغطاء المطرز هذا، كان عليّ أن أشرح لنورا، بأكبر قدر من الحذر، أنه وبعد سنوات من النوم تحت بطانية غرف النُزُل، ما من إنسان

يستطيع التخلص من قشعريرة القرف التي تترافق مع أغطية مسكونة بأشباح مئة نائم مجهول. تلك السنوات علمتني أن أنفض الأغطية بإتقان مهووس، أن أقلّبها وأمسّدها من كل الجهات حتى أمنع من أن تلمس جسدي بطانية صوفية قذرة. وقد التصقت السعادة بي حتى بعد أن شرنقتني نورا داخل أغطيتها العطرة، وبشكل أتوماتيكي تهافتت يدي حول الغطاء لتعيد ترتيب سياج الحماية القديم.

«ما بك يا موسوسة؟» تساءلت نورا وهي تنظر إلي. «تتصرفين كالعجائز، لن يعضك الغطاء!»

«لا أحب الأغطية على وجهي». شرحت لها وأنا نصف نائمة. «كيف لي أن أعرف من نام تحتها الليلة ـ»

«يا ملعونة!» نهرتني نورا وأسرعت نحوي. «لو لم تكوني مريضة لكنت قرصتك، تقارنين أغطيتي الوردية الجميلة ببطانياتك الرمادية التعيسة! فقط لأنك قلتِ هذا سأجعلك تأكلين بيضاً أكثر».

لم تُخلق يوم أخت مثل نورا، وليس هذا فقط، بل من سمع بصهر كـماكس. لامرأة ـ ولا حتى صحفية نصف ممحيّة ـ تقدر على امتصاص كل ذلك الحب والاهتمام ومع هذا تفشل في أن تزهر. لقد أصبحا كالأب والأم لي منذ اليوم الذي احتضنتني نورا بين ذراعيها وأخذتني بعيداً عن نيويورك. أختي كانت ملاكاً مريحاً من القرن العشرين مع ربطات إزار أبيض بدل الأجنحة، وصينية مغرية بيديها بدل كتب التراتيل وسعوف النخل المحمولة في أيدي الملائكة المصورة. كانت تجعل من قدر البيض واللحم شيئاً أكثر لذة بشكل لا يخطر على بال أمهر الطباخين. كانت تقدر على تمويه طعاميّ الحمية هاذين بكل اتقان، حيث أن لا دجاجة ولا بقرة ستحزر أن أياً من هذه القطع كان جزءاً من بدنها. مرة كنت في منتصف أكل صحن فيه شيء ذائب وزغِب ومزين بالدراق، وحينها فقط اكتشفت أنها لم تكن إلا بيضة مموهة أخرى.

«يا بنوتة، ما رأيك بأكل عشاء كبير اليوم؟» تسألني نورا في الصباح وهي واقفة بجانب سريري، وبيدها كأس من شيء مصنوع من البيض، طبعاً.

«آكل!» أقول والرعب والقرف يرتجفان في صوتي. «آكل! يع، لا تحدثيني عن الأكل، وبروح أولادك قولي لـفريدا أن تغلق باب المطبخ، أشم رائحة لحم ومرق». وبعدها أدير وجهي إلى الحائط.

وبعد ثلاث ساعات أسمع صوت خطوات أختي الرقيقة وهي تصعد الدرج يرافقها صوت قرقعة صينيات وكؤوس، أواجهها وكلي تذمر.

ألم أقل لك يا أختي إني لا أستطيع أكل ولو لقمة!ـما أروع منظرها، ماذا وضعت في أوراق الملفوف، أأستطيع البدء بذلك الشيء الوردي في الكأس، أرجوك!»

«اعتقدت»

تبدأ بالكلام ولكنها تتوقف لتفرّ ضحكة مكتومة من فمها.

«أعرف ولكن هذا كان قبل ساعات». أشرح لها. «لعلي أقدر على قضمة أو اثنتين».

وهكذا كنت أقضي على كل شيء ما عدا الصينيات والأوانِ. في ذلك التقاطع على طريق الشفاء، بين المرض والصحة، أدخلَ كل من نورا وماكس فون جيرارد إلى المشهد. بدا وكأن حتى نيويورك كانت واعية بوجود فون جيرارد مختص الأعصاب، رغم حقيقة عيشه وسكنه في ميلواكي. فكرة إحضاره ليفحصني كانت قد خطرت لماكس بشكل مفاجئ. أعتقدُ أنها خطرت له حين دخل إلى غرفتي بحذاء يزقزق وانفجرت أنا بالبكاء. حصان البحر النادب أصبح مخلوقاً حازماً وساكناً مقارنة بي في تلك اللحظة. مشهد ذبابة على الحائط كان كافياً ليجرني إلى حفلة من العويل.

«أعرف الرجل المناسب ليعيد تماسك أعصابك يا دون». قال ماكس بعد أن قدمت له من خزي اعتذاراً لبكاءي الهستيري. «سأطلب من فون جيرارد أن يطلّ عليك يوم الأحد، ها، ما رأيك يا نورا؟»

«من فون جيرارد؟» تساءلتُ بسبب جهلي. «وعلى كل حال لا أريده. أراهن على أنه ملتحٍ ويرتدي نظارات سميكة».

«فون جيرارد!» نهرتني نورا. «كوني شاكرة لأنه سيفحصك، وحتى لو كان يلبس نظارات ولحيته تتطاير مع الريح، وأصلاً حتى دكتورك الأصهب في نيويورك بان إعجابه حين أخبرته أن فون جيرارد صديق لزوجي، وأنهما كانا رفيقان في هيدلبيرغ، لا بد أنني ذكرته مرات كثيرة في رسائلي لك».

«أبداً لم تفعلي».

«غريب». علّق ماكس. «هو يمر علينا كل أحد ليقضي نهاراً هادئاً معنا ومع الأولاد، يقول إنّ الزيارة تريحه، الأولاد يهجمون ويتعفرتون عليه، ولكن هذا لا يزعجه، أعتقد أنه جاء هنا من برلين بعد أن ذهبتِ إلى نيويورك يا دون. ميلواكي تناسبه وكأنها صممت خصيصاً له».

ولكني لم أتوقف عن التذمر. «ولكنكم طبعاً طبعاً لن تجلبوا هذا الإنسان العظيم والرائع إلى هنا فقط لأجلي».

أشار عليّ ماكس بأصبع مؤنب. «ألست ممن يقال عنهم كتلة من الأعصاب، وأليست مهمة فون جيرارد هي فكّ كل هذه الأعصاب المعقودة! سأبعث إليه الليلة برسالة».

وفعل ماكس ما عزم عليه، وأتى فون جيرارد. شاهده الولدان من خلف النافذة ووجهاهما ملتصقان على الزجاج، في حين يهطل المطر في الخارج.

من نافذتي رأيته يتقافز في الممر كصبي صغير، يجرّ وراءه الولدين المتعلقين بأطراف معطفه، ثلاثتهم يتجاهلون المطر ويصيحون كـالكومانشيس[1].

بعد عشر دقائق لبس زي المهنة وقناعها، دخل غرفتي وتمعن بكل جمال خدرِ واخضرار وجهي. لاحظت بشيء من المرح أنه اضطر للانحناء قليلاً ليدخل الباب المنخفض العلو، وأن اللحية المتطايرة في تنبؤي لم تكن موجودة.

أخذ يدي في قبضته الثابتة والمطمئنة، وبدأ يتكلم. مرت نصف ساعة ونحن نناقش نيويورك؛ الكتب والموسيقى والمسرح، كل شيء وأي شيء، إلا دون أوهارا. عرفت لاحقاً أنه وأثناء دردشتنا، كان يجمع قصته شيئاً فشيئا مستعيناً برجفة جفن، وبكل تعبير من اليدين. يدان أنحل من الخاتم الكريه، ومن كل حركة شفاه، من لون أظافري، من كل عضلة متشنجة، ومن كل ظل وتجعيده وانحدار وخط في وجهي.

وفجأة سأل: «هل تبذلين جهداً للتحسن؟ تحاولين التغلب على تلك الأعصاب، صحيح؟»

حملقت فيه بسخط. «أحاول؟ أحاول كل شيء، مستعدة لأكل ديدان إن كانت ستحسّنني، ولو وجِدتْ فتاة تنصت جيداً لأختها الكبرى ولطبيبها فهي أنا. أكلت كل شيء من كبد البط إلى اللحم النيء، وشربت كل شيء من الدم وصولاً إلى الشامبانيا».

«والبيض؟» تساءل فون جيرارد وكأنه يقدم لي اقتراحاً رائعاً.

«بيض!» شخرت. «آلاف البيضات، آلاف! مخفوقة، مسحوقة، مقلية، مسلوقة، مع البيرة ومع الكريمة، بيض ليموناضة وبيض كوكتيل، بيض مع النبيذ ومع

(1) إحدى قبائل سكان أميركا الأصليين

الحليب، وبيض نيء كما هو، كرعت أسطال من النبيذ وأنهاراً من الحليب، والتهمت لحومات نادرة ومشوية، يوماً بعد يوم، فتقول لي بيض!»

«يا لطيف!» زعق بحدة. «وما زلت حية!» وشيء أشبه بابتسامة انعكس في عينيه. تساءلت إن كان قد ضحك في حياته، فقررت القيام بتجربة.

«إياك أن تنبس بما سأقوله لأحد» همستُ له بصوت تراجيدي. «ولكن البيض، وحده البيض، يحول حبي لأختي إلى كره مرير، تلاحقني طيلة النهار، وتغصب أخلاطاً من البيض في حلقي المسكين، تتنمر عليّ، لا أجرؤ على تحريك ذراعي من دون أن أخبط بيدي نوعاً ما من الأشربة المقوية التي لا بد فيها شيء من البيض، أصبحت خبيرة لدرجة قدرتي على التفريق بين ليموناضة وكوكتيل البيض على بعد أمتار عدة، مع يد مقيدةٍ وراء ظهري، وعين مغمضة ورجلي في كيس».

«ضحوكة، ها! طيب هذا شيء جيد». علق الرجل الجديّ العبوس.

«طبعاً». أجبته، متضايقة من اتزانه ورسميته بالكلام. «طبعاً أنا ضحوكة، فلأي سبب آخر كان والدي إيرلندياً، أبي كان يقول إنّ حس الفكاهة كالخيزرانة، من المفيد امتلاكها وخصوصاً عندما تكون النكتة عنك».

شبح ابتسامة ظهر مجدداً في عيني الألماني الزرقاوين، ورغبة بأن أتواقح أمسكت بي.

«اضحك!» أمرته.

تشنج جسد الطبيب إرنيست فون جيرارد. «عفواً؟» تساءل كشخص بالفعل لم يفهم.

«اضحك!» زعقت مرة أخرى. «أتحداك أن تفعلها، أتحداك! لن تجرؤ!»

ولكنه فعل. بعد لحظة من الاندهاش، أمال رأسه الأشقر الوسيم إلى الخلف، وأطلق ضحكة عميقة وعظيمة، هادراً بقهقهة معدية أغرت الولدين بالركض

إلى الدرج رغم توجيهات أمهم، وبعد ذلك سلّكت علاقتنا بشكل جميل، فتحت كل ذلك الوقار والرصانة، كان إنساناً. اضطرَّ لرشوة العفريتين الصغيرين وتلبية مطالبهما اللجوجة إرضاءً لهما لينطنطا بعيداً عن الغرفة وليتابع هو فحصه لي.

وتبع ذلك عملية جعلتني أتمرمط من الضحك، بينما قام بها فون جيرارد بتركيز واتقان طقوسي. العملية تضمنت ضربات مخصصة على ركبتي، ومقدمة ساقي وأكواعي وأصابعي، وأوامر سخيفة كـ(انظري إلى إصبعي! انظري إلى الحائط! إلى إصبعي! إلى الحائط!).

«طيب!» قال فون جيرارد أخيراً بنبرة من انتهى من عمله. غرق جسدي المتعب في أقرب كرسي. «العمل في الجريدة، هذا الشغل يجب أن يتوقف». قال وحرك يده، وكأنه يتخلص من الفكرة بإبعاد شبحها عن وجهه.

«بالتأكيد». رددت عليه بتهكم. «وكيف تنصحني بأن أحصّل راتباً وأعيش، أتريد مني أن ألوّن بطاقات المعايدة أو أخبز الكعك؟»

«ألا جدية عندك؟» سأل فون جيرارد مستاءً.

«أبداً». قلت. «مراسلة صحفية متعبة ومرهقة ومهترئة، ولها زوج يقبع في دار للمجانين، لا إمكانية عندها للجدية ولو لدقيقة، لو أنها كانت جدية لجنّتْ هي الأخرى، وابتليتْ بكل تلك التعاسة». قلت هذا ودفنت وجهي بين يدي.

للحظة، أصبحت الغرفة شديدة الهدوء. من ثم قام فون جيرارد وأبعد وجهي برقة عن يدي. «أرجوكِ اعذريني». قال وقد اعتلت وجهه ملامح صبي متوتر. «أنا أفكر فقط في مصلحتك، نحن الأطباء نفعل ذلك أحياناً، ناسين أنّ الظروف قد تجعل مما نتمناه لمرضانا أمراً مستحيل التحقق، هل ستسامحينني؟»

«أسامحك... نعم، طبعاً». أكدت له، وصافح كل منا يد الآخر بجدية مبالغ بها. «ولكن هذا لن يحسن الأمور كثيراً، أليس كذلك؟»

«بلى، سيساعد في تحسين الأمور. الآن سنحاول فهم وتفهم بعضنا، أنت تقولين إنّ الكتابة مصدر دخلك الوحيد، فلم لا تكتبين هنا في البيت، لا بد أن كل هذه السنوات من العمل في الصحافة قد أعطتك معرفة مهمة فيما يتعلق بالطبيعة البشرية، وهناك أيضاً حس الفكاهة الذي لديك. توليفة كهذه لابد أن تجعل من عملك مقبولاً لدى المجلات. لم أرَ في حياتي كلها هذا العدد الهائل من المجلات كما في الولايات المتحدة، المئات والآلاف منها!»

«أنا!» انفجرت فيه. «أصير كاتبة حقيقية، أنسى المقابلات مع الممثلات وعامود يوم الأحد، والقصص المبكية، متى لي أن أبدأ، غداً؟ أتعرف، لقد أحضرت آلتي الكاتبة معي، وصرت على وشك أن أنسى تموضع الأحرف على لوحة المفاتيح».

«انتظري، انتظري. ليس بهذه السرعة! بعد شهر أو شهرين، ولكن في البداية تأتي أشياء أخرى، فعاليّات خارج البيت وبعض الأعمال المنزلية أيضاً».

«أعمال منزلية؟» أعدت عليه كلامه بضعف.

«بالطبع، القليل من الغسيل ونفض الغبار والقليل من الطبخ، هذه أفضل تمارين منزلية، وبعد ذلك لك أن تكتبي ولكن لفترات قصيرة فقط. اخرجي مع الولدين والعبي معهما وعندما أراك المرة القادمة سيكون خداك متوردين كالفتيات الألمانيات، حسناً؟»

«حسناً». أجبته بخنوع. «ماذا تتوقع أن تكون ردة فعل فريدا على محاولتي العظيمة لأساعدها في أعمال المنزل، إن تذمرتْ مني أنت ستتحمل النتائج».

ولكن فريدا لم تتذمر، فبعد أن ساعدتها بتنظيف المطبخ والسقيفة لاحظت على وجهها العريض تعبيراً يدل على عمق شفقتها، وقد تحول هذا التعبير من الشفقة إلى تعبير من الألم وهي تراقبني أصنع شوربة للعشاء، وأُدخل في أسرار وغرائب طرق صنع الكيك.

يقول ماكس إنه بالنسبة لفتاة عاملة فقيرة لم تملك وقتاً لتطوير مهاراتها المنزلية، فإن الكيك الذي أصنعه ناجح بامتياز. أختي لا توافقه وتجعّد أنفها علامة شك، وتتمتم بأنه لا بد من إخفاق ما مموه تحت طعم الزبيب والبندق والبرتقال، وهي لا تسمح للعفريتين الصغيرين بتذوق كيكتي أبداً، وفي الأيام التي أخبز فيها تجبرهما أمهما على ترك الطاولة رغم زعيقهما الحزين، وتؤكد لي بكل جدية أنها ستخفي كتاب الطبخ الأخضر عني، وكتاب الطبخ الأخضر هذا هو كتاب ألماني، وقد اشترته نورا إذعاناً لحب ماكس للمطبخ الألماني، ويسمى كتاب طبخ العمة جولتشين، وكاتبته بين إرشاداتها عن الطحين والزبدة تصبح بغاية الود مع طالبتها، كيكاتها هي كيكات عظيمة وغنية بالمكونات. تأمر بوقارها المعتاد:

«والآن، ضف صفار اثنا عشر بيضة، ربع باوند من اللوز، باوندان من الزبيب، باوند من الحامض، وباوند من قشر البرتقال».

وكأن هذا لم يكن كافياً فقد كانت تُلحِق تعليماتها بتوجيهات صغيرة عن المواد الثانوية، خلاصة مركز الجوز، وسكر الحلويات، وقليل من الكريمة الغنية، وعندما تبرد تستخدم كطبقة للكيك، مملوءة بالمزيد من البندق والكريمة، والبيض والمزيد من كل شيء.

عيّن العفريتان الصغار نفسيهما اللاعقين القاحطين الرسميين للملاعق وقدور الكريمة، وأيضاً الدليلين الرسميين أثناء جولاتي الخارجية، ينظران إلى خالتهما دون كشخصية سخيفة ولكن لطيفة ومحبوبة.

ونورا ـ حماها اللّه ـ تنظر إليّ عندما أعود من جولتي مع العفريتين الصغيرين وتقول: «بالحق خدودك مزهرة! وقد راح ذاك الورم من وراء أذنك وقبعتك مائلة، بدأت تعودين لحالك القديمة يا حبي».

وعلى هذا المديح المشكوك فيه أرد: «مضبوط! لا يهم إن قلّ أو زاد الورم في السياق الأكبر لقضية عادلة كهذه، وإن ظننتِ أن خدودي مزهرة الآن، انتظري حتى عودة شيخك الكبير فون جيرارد، حين يأتي ذلك الموعد ستتفجر خدودي حمرة، وستبدو فريدا في يوم الغسيل معتلة بالمقارنة بي. نورا قولي لي، ما درجة الأحمر في حمرة خدود الألمانيات على أية حال؟»

الفصل الثالث

رقص الربيع مبتعداً وعاد الصيف، لم تعد وساداتي بذلك الإغراء، وقد تركت الرياح الشمالية فيّ شعوراً بالثقة والاستقرار. تتالت الأيام المشمسة وقد قضيت ساعات طويلة تحت ضوء الشمس، مستلقية على الأرض الدافئة، ما روّع جيراننا، ولكن بالطبع فقد كنت من الحصافة بما يكفي لاختيار الحديقة المعشبة خلف المنزل، هناك تشربت الجو من حولي كما نصحني الطبيب، بينما دفّئت الشمس الدم في عروقي وحرقت جلد أنفي.

طيلة حياتي كنت أحسد أولئك المسترخين في المتنزهات، أولئك الهادئين الذين يتمددون تحت الأشجار على طول أيام الصيف، قبعاتهم المهترئة تخفي وجوههم، أيديهم معقودة خلف رؤوسهم، سيقانهم منبسطة بشكل غير لائق ولكن مريح، بينما تتلألأ أشعة الشمس من بين الأوراق، وكعرّابة خيّرة تمسّد ملابس النيام القديمة والمجعدة بنورها الذهبي. دائماً ما بدا هؤلاء الرجال المسترخون بغاية العفوية وراحة البال، وأنا ـ امرأة حُرّمت عليها البهجات الصغيرة كهذه ـ حسدتهم.

والآن، كنت أتمتع بنفس البهجة الممنوعة، متمددة بكاملي على الأرض، أرمش نعسة وأحدق في الشمس والسماء الزرقاء، أحس بشعري ينمو وبالصحة تعود على شكل موجات دافئة مكهربة، حتى أنني تجرأت على وضع رجل فوق رجل وأن أهز ساقيّ، بدون اهتمام، ملقية نظرة فاحصة وحذرة على نوافذ جيراننا

الخلفية لأرى إن كان أي منهم يسترق النظر، لا شك أنهم كانوا يفعلون هذا من خلف تلك الستائر المنفوشة، ولكني ارتحت إلى قلة مبالاتي.

وحتى المخلوقات الزاحفة، وهناك العديد منها، زادت من ارتياحي. كان العشب يعج بها، وكنت أسمعها لقرب أذني من الأرض، في كل مكان كانت هناك نملات مشغولة بجنون، وأنا كشخص خامل راقبتهن بكسل. كيف يتقافزن ويحفرن هنا وهناك، مسرعات في كل الاتجاهات كنساء في السوق يبحثن عن أفضل الأسعار.

«آه، أيتها النملات الحمقاوات الغبيات». أنّبتهن. «توقفن عن إرهاق أنفسكن هكذا، ألا تعرفن أن هذه اللعبة بلا قيمة، وأنكن ستبلين أنفسكن بالاكتئاب والقلق، وبعد ذلك ستؤخذن إلى البيت لتتعالجن. انظرن لي! أنا المثال السيء».

ولكن النملات تابعن نشاطاتهن غير مكترثات لنصيحتي، وأظهرن لي حنقهن بالزحف فوقي، وأنا ممددة كأنني النسخة النسائية من جوليفر[1]. كنت ألعب دور المفكر، ليس النمل فقط من أتى للمحاضرة، فقد كنت ألقي خطابات حازمة على نفسي.

«طيب يا دون يا بنت، لقد صنعت خبيصة حلوة من حياتك، فتاة مدمرة في عمر الثامنة والعشرين! وأي شيء عندك لتعوضي عن هذا، لا شيء! لا يرجى منك فائدة كليمونة عُصِرتْ حتى قشرتها. فون جيرارد كان على حق، لا مزيد من عمل الصحافة لك، وهذا حتى إذا استطعت التخلص من افتتانك بهذا العمل، وهو ما لا أراك قادرة على فعله».

وبعد هذا كنت أجلس وأفكر بكل تلك السنوات من العمل الصحفي، الإثارة فيه والعلات على السواء، لقد كان عملاً مذهلاً فيه من الدروس الكثير، ولكنه

(1) تقصد مغامرات غوليفر

نادراً ما كان مجزياً. أمي لم توافق عليه أبداً، أما أبي فقد ضحك وقال إن هذه لعنة نزلت عليّ من العجوز سيئة الصيت كيتي أوهارا، المرأة العانس الوحيدة في تاريخ آل أوهارا، والتي اشتهرت على أيامها بلسان سليط وقلم مسموم. كم كانا طفلين أمي وأبي! اختلاف طبعيهما هو ما جمعهما، أبي خفيف الظل ومرح لا يعرف الهم، وأمي طيبة القلب عاقدة الجبين دائماً، تحاول أن تعلّم الاقتصاد لزوجها الإيرلندي الوسيم الذي لا يفهم منه شيئاً، وهو المنحدر من سلالة طويلة وعريقة في إسرافها. لقد كان والدي هو من أصر على تسميتي دون... دون أوهارا! لعل حسه الفكاهي كان قد أُخذ غفوة وقتها. «لقد كنت رضيعة رقيقة وموردة». كانت أمي قد قالت لي. «ولهذا بدوت كأنك خيوط الضوء الأولى في الشروق، لهذا أصر والدك على تسميتك دون».

أبي المسكين! كيف كان له أن يعرف أن ابنته ستصير خربة صحافية، بتجعيدة بين عينيها، إن كان له أن يراني الآن فقد كان ليقول: «ما زلتِ كالفجر يا عزيزتي ولكن كفجر بيتسبورغ».

وبسماع أمي لهذا، وإن كانت هي الأخرى هنا أيضاً، كانت لتربت على خدي حيث غار، وتتمتم: «ولا يهمك يا حبيبتي، أنا أراك جميلة كيفما كنت». هكذا هن الأمهات، معجونات بأشياء مباركة كهذه.

وفي هذه المرحلة من لعبة الذاكرة، أدفن وجهي في العشب الدافئ وأشكر ربي لأنه أخذ أمي قبل مجيء بيتر أورم إلى حياتي، ومن ثم أغفو هناك على العشب الطري حاضنة رأسي بين ذراعي والنمل يشق طريقه إلى أذني، في واحدة من آخر تلك اللحظات استيقظت، وليس كما تستيقظ الجميلات في القصص، بل مع شخرة. أختي كانت تلكز أضلاعي بإبهام رجلها، فنظرت إلى الأعلى لأراها تقف فوقي، وبيدها كأس فيه شيء يرغي، وشعرت أن له علاقة بالبيض، فرمقته بقرف.

«قومي». قالت. «قومي أيتها الكاتبة الكسولة واشربي هذا».

نهضت بجسدي وحدقت فيها بحنق، مزيلة العشب والنمل من شعري. «يعني أفقتني من نوم الأطفال لأشرب هذا المخاط. وما هو هذا على كل حال؟ كريمة البيض؟»

«نعم، كريمة البيض، اشربي هيا. هناك ضيوف يريدون رؤيتك».

أخذت أول رشفة من الخليط الأصفر، ورمقتها بنظرة غاضبة لا يتقنها إلا من أحاطت بفمهم شوارب رغوة صفراء. «ضيوف!» صحت. «إياك أن تقولي إنهم أتوا لرؤيتي!»

«نعم ضيوف». أكدت نورا بحزم. «قد أتوا خصيصاً لرؤيتك، سألوا عنك من على العتبة».

أنهيت شرابي بأربع جرعات وأعدت الكأس الفارغة لها، وقد اتخذت قراري ملقية بنفسي على العشب. «قولي لهم إني خبلت، قولي إني غائبة عن الوعي، وأنني لم أميز أحداً منذ أسابيع، ولا حتى أختي العزيزة، قولي إني في انهيار الأعصاب الذي أنا فيه ـ »

«لن يرضيهم ذلك». تقاطعني نورا بهدوء. «يعرفون أنك مجنونة لأنهم رأوك من نوافذهم الخلفية لهذا جاؤوا، فقومي وواجيههم، وعدتهم أن أجلبك، لا يمكنك تجنب الناس للأبد، وأنت تعرفين أن آل وايلن ـ »

«آل وايلن!» شهقت. «لا... لا تقولي الثلاثة المثلثة؟»

«الثلاثة المثلثة، يقرشن القضامة بفارغ الصبر».

يبعد منزل آل وايلن ضربة حجر عن منزلنا. آل وايلن عالمات بكل شيء، لديهن شبكة تجميع أخبار لتعقيدها تضع صحيفة نيويوركية الصادرة يومياً بموقع

المتخلف والمؤنتك، يعرفن أن جيني لافين تطعم العائلة شوربة اللحم والشوفان عندما يسافر السيد لافين إلى العمل، يعرفن أن السيدة بيرسون لا تنفض سجادها إلا مرة واحدة كل أربعة أسابيع، يستطعن تحديد عدد الأيام التي يعود فيها سام دمبستر إلى بيته مخموراً، ويعرفن أن آل ميركل لا يشربون قهوتهم مع الكريمة لأن ليزي ميركل الصغيرة تذهب إلى الحلاب كل يوم بسطل واحد وثلاث سنتات فقط، تشمتن بمعرفتهن أن البروفسور غرايمز ـ وهو رجل متزوج ـ يغازل غيرتي آش التي تعلّم القراءة في مدرسته، قد يقلن لك كيف للسيدة بلاك أن تحوز على معطف جلد الفقمة ذاك بينما زوجها لا يتقاضى أكثر من ألفي دولار بالسنة، يعرفن من سيترشح لمنصب المحافظ، وكم بقي للمسكينة آنجلا سيمز من أيام لتعيش، وما قاله دونلي لـمينا عندما طلب يدها للزواج.

آل وايلن الثلاث ـ الأم وابنتيها ـ يصطدن على شكل جماعة، يلقين نظرات ذات معنى إلى بعض من جوانب الغرفة، وفي السهرات يجتمعن ويتبادلن نشرات الأخبار في إحدى الزوايا. يقشعر جسمك بمرورك من أمام منزلهن لمعرفتك بوجود ظلالهن خلف النوافذ، ولرؤيتك لستائر تتموج بدون سبب.

ولهذا نهضت وأنا أأنّ بتذمر، وجهزت نفسي للحاق بنورا إلى البيت، ولكن شيء ما في عينيّ جعلها تستدير ونحن أمام الباب. «إياك أن تجرئي». فحّت تهديدها، وطردت العبسة المحذرة عن وجهها لتستبدلها بابتسامة فاترة، ثم دخلتْ الغرفة وتبعتها.

نهضت نساء آل وايلن وتقدمن نحوي بحبور، السيدة وايلن مكتنزة الجسم وشاحبة وطليقة اللسان، سالي رشيقة وداكنة البشرة، ذات طبع انتقامي، فلوسّي قصيرة وممتلئة مبودرة الوجه ومتأنقة. حدقن فيّ بنهم وشعرت أنهن كن يبحثن في ملامحي عن عوارض أولية للجنون.

«يا قلبي أنت!» قالت فلوسّي وهي تقبل أرنبة أنفي، وتسترق نظرة سريعة إلى يدي اليسرى لترى أن لا محبس في أي من أصابعي.

أما سالي فاكتفت بمصافحة رخوة وباردة. نحن الاثنتين كنا ألد الأعداء أيام مدرسة البنات، ما زلت أستطيع أن أرى ذلك البريق التهديدي مدسوساً في عينيها. السيدة وايلن أنعمت عليّ بحضن أمومي أغرقني بجو من غسول الوجه والعطور القوية وشحم الخنزير المقلي، وهي كانت طباخة مشهورة. قالت:

«فكرنا بالاتصال منذ أحضروك إلى البيت، ولكن بربّي كنت تبدين مريضة للغاية، لهذا قلت للبنات انتظروا حتى تشعر المسكينة برغبة في رؤية أصدقائها القدامى. قولي لي، كيف هي صحتك الآن؟»

جلسن ثلاثتهن في مقاعدهن، أجسادهن متشنجة في حالة من الانتظار.

قررت أنه لو كان عليّ أن أخطئ، فالأفضل أن أخطئ وأظل على جانب الأمان. التفت إلى نورا.

«كيف هي صحتي يا نورا؟» سألتها بحذر.

كان وجه نورا متماسكاً. «دون يا عزيزتي»، قالت، وصوتها رقيق حلو. «لا شك أنك تعرفين أكثر مني، ولكني متأكدة أنك تحسنت بشكل رائع، رجعت إلى حالتك القديمة، حتى. يا سيدة وايلن، ألا تعتقدين أنها تبدو مذهلة؟»

نزعت النساء الثلاث عيونهن عن وجهي الخالي من التعابير لتتبادلن فيما بينهن سلسلة من النظرات الملّغزة.

«أعتقد»... خرخرت السيدة وايلن. «أن أزمتك هي كانت السبب الرئيسي لـ... مرضك، فحزنك على ما حدث وقلقك أثّرا على صحتك».

شدّدتْ على جملة «ما حدث»، وعرفت أنها كانت تقصد بيتر. كرهتها على هذه الحركة.

«أزمة؟» دخلت على الحديث. «الأزمات لا تؤزمني، كل ما في الأمر أنني عملت كثيراً وتسببت بإرهاق عظيم لنفسي. عمل كثير ولعب قليل يجعل الإنسان خربة متوترة».

بسماعها هذا لوّحت فلوسّي البدينة بإصبعها في وجهي. «لا يمكن أن تقنعينا بهذا فقط لأننا من الريف! نحن نعرف عنكم أنتم أهل نيويورك الغرائبيين، نعرف عن حياتكم البوهيمية وأعشية منتصف الليل في الاستوديوهات وسجائركم وكوكتيلاتكم وتسليلاتكم المدينية!»

رسمت الذاكرة صورة ذهنية واضحة صافية لدون أوهارا كما اعتادت أن تسقط على سريرها بعد يوم عاصف في مكتب الجريدة، مرهقة وغير قادرة على تمرير المشط في شعرها لإنهاء حتى نصف تمشيطة من المئة تمشيطة الموصى بها. رفعت بدوري سبابة مؤنبّة في وجه فلوسّي.

«لابد أنك تقرئين روايات درامية بذيئة! واحدة من تلك الروايات حيث بطلتها دائماً تكون ممثلة مليونيرة ومطلقة، ولديها سيارة جميلة. يا عزيزتي فلوسّي! يستحيل أن أنسى أول ممثلة تعرفت عليها في نيويورك ويستحيل أن أنسى ما قالته لي!»

قامت نورا بحركة متأنية من جسدها كأنها تحذرني، وقد شعرت بهذه الحركة حتى قبل أن أراها، ولكن حركتها هذه لم تنفعها، فقد مالت النساء الثلاث إلى الأمام في مقاعدهن، ينتظرن مني أن أكمل.

«ماذا قالت لكِ؟» سألت فلوسّي. «أكان شيئاً فاضحاً؟»

«الحقيقة أن الحديث جرى أثناء عشاء متأخر ـ عشاء في استديو أُقيم على شرفها». اعترفت لهن.

«و...؟» استفسر الثلاثة معاً.

«وهذه الممثلة ـكانت واحدة من الممثلات في المسرحيات الموسيقية الكوميدية، كما تعرفن؛ أتذكر أن دورها تطلب أن ترقص لفترة طويلة وهي ترتدي فستاناً قصيراً، وقد أتت متأخرة إلى العشاء بعد أن انتهى العرض. كانت ترتدي فستان سهرة ملكيّاً جوانبه مكللة بالفرو، وكل مكياجها من المسرحية ما زال على وجهها ـ» من طرف عيني رأيت أختي تغرق أكثر وأكثر في كرسيها وقد استسلمت للأمر الواقع. «ـ وخلعتْ الباب لتفتحه وقالت ـ»

«أي»... فحّت النساء الثلاث وبللن شفاههن.

«ـ وقالت: يا جماعة، وصلني للتو اتصال من الوالدة في ماين. أصيب الولد بالخناق وأنا مرعوبة. أكره أن أخرب الحفلة ولكن لا تسألوني البقاء. أريد أن أذهب إلى البيت وأنوح، وحتى أني بعد لم أمسح المكياج عن وجهي. يا ربي! إن حصل مكروه للولد!ـ على كل حال، انبسطوا بدوني، جيم ينتظرني في الخارج».

صمت.

ثم... «ومن جيم؟» سألت فلوسّي وعلامات أمل ملعون على وجهها.

«جيم كان زوجها، بالطبع. كانا يعملان في نفس فرقة التمثيل».

دقيقة صمت أخرى.

«هذا كل شيء؟» تساءلت سالي من زاويتها حيث كانت تجلس وتحملق بحنق.

«كل شيء! يا ملعونة! ألا يكفي زوج واحد؟»

ابتسمت السيدة وايلن ابتسامة مضطربة ومائلة، ومررت النسوة الثلاث بين بعضهن إشارات وعلامات طقوسية، ووقفن كلهن بنفس الوقت.

«ما أظرفك!» قالت السيدة وايلن. «ومسلية جداً! هيا يا بنات، لا يجب أن

نتعب الآنسة ـ آه ـ السيدة ـ» واسترقت نظرة كما فعلت بنتها إلى يدي اليسرى العارية من الخاتم.

«ما زال اسم زوجي هو أورم». ساعدتها بكل لطف ممكن.

«آه طبعاً، أنا كثيرة النسيان. والواحد يقرأ كل تلك القصص العجيبة في الجرائد عن الطلاق والانفصالات وتوائم الروح وأشياء كهذه». وكنت أستطيع سماع التلميحات المبطنة في كلامها.

حازمةً، اقتحمت نورا النزاع الصغير. «بالفعل صرنا نقرأ عن أشياء كهذه. لابد أنك في غاية الارتياح لمعرفتك أن بناتك الحبيبات آمنات في البيت معك، ولا شك سيبقين في مأمن، للسنوات القادمة، من رياح قفص الزوجية العاتية».

امتقع وجه السيدة وايلن ومُسِح بلون بنفسجي مخنوق بينما سارت نحو الباب، جامعة فراخها حولها. «والآن وقد تعافت الحبيبة دون وعادت إلى طبيعتها سأبعث البنات إلى هنا لزيارات متعددة. لا شك أنها تجد الحياة هنا مملة بعد ـ آه ـ حياتها في نيويورك».

«لا نهائياً»، قلت بعجلة. «أبداً لا، فأنا ـ أنا أكتب كتاباً، ونهاري كله مشغول».

«كتاب!» زعقت الثلاث معاً. «ممتاز! عن أي شيء تكتبين؟ متى سينشر؟»

تجنبت نظرة نورا المؤنبة لي وجاوبت على كل أسئلتهن وقمت بطقوس الوداع الأخيرة. حين أغلقت الباب أخيراً، حدقنا أنا ونورا ببعضنا.

«يا لطيف!» تنهدت نورا، وانفجرت كلتانا بالضحك، وارتمت كل منا على أقرب كرسي. أخيراً مسحت أختي عينيها بمنديل، أخذت نفساً طويلاً، وسألتني بتهكم متقن لماذا لم أقل لهن أنني أكتب مسرحية بدل رواية، كوني أفبرك وأفبرك.

«ولكنني جدية في الموضوع». أكّدت لها. «شبعت من التسكع ووقت الفراغ. على ماكس أن يُخرج آلتي الكاتبة من حقيبة السفر الليلة. اشتقت لألقي نظرة على المفاتيح، وغداً سأزرع نفسي في الغرفة الصغيرة خلف غرفة السفرة، وأمنع دخول كائن من كان إليها حرصاً على حياتهم. إن كنت تثمّنين حياة ذريّتك، حذيريهم الاقتراب من الباب. قال فون جيرارد إن هناك كتابة في داخلي، وبحق الملعقة العظيمة ذات القرن[1] ولحية الرسول، سأخرج هذه الكتابة! وبالإضافة إلى ذلك، فأنا أحتاج للمال. نورا يا حبيبتي، كيف يبدأ الواحد بكتابة رواية؟ يبدو هذا المشروع صعباً جداً».

(1) رواية للأطفال كتبها سِدْ فليتشر

الفصل الرابع

من الصعب على الواحدة أن تصبح كاتبة حقيقية وهي في حضن أهلها، وبالأخص عندما ترفض العائلة أخذها على محمل الجد. قد علمتني سبع سنوات من عمل الصحافة القاس ألا أصدق كذبة الكتابة عن طريق الوحي، ولكن هناك ما يسمى سلسلة أفكار، وسلسلة أفكاري تُقطَع دائماً وتُحطَّم ويُدعَس عليها.

من النادر أن أكون مستقرة في حجرتي الصغيرة والآلة الكاتبة أمامي وفكرة قصة جديدة ترنّ في رأسي من دون أن أسمع صوتاً ينادي عليّ. صوت مكمم وكأن صاحبته تحاول الكلام ودبابيس الشعر مدروزة بين شفتيها. لا أعير الصوت اهتماماً، فقد أنعمت للتو على بطلتي بزوج من العيون الرمادية الهادئة، مظللة برموش سود وشعر بنفس اللون.

يطوف باتجاهي صوت قادم من الطابق العلوي.

«دون! يا دون! أرجوك انزلي وانقذي الخيار من أعلى الثلاجة. سيأتي بائع الثلج بعد قليل وقد يهرسهم!»

لوّحت لشعر وعيني بطلة قصتي بيد مودّعة، ونزلت لأنقذ الخيار.

عدت إلى آلتي الكاتبة مرة أخرى. هل أجعل بطلتي ضخمة أو صغيرة الجسم؟ قررت في النهاية أن العينين الرماديتين الهادئتين سيرافقهما جسم مهيب وطول فارع. سعيدة، تابعت الكتابة، حبكة القصة تتفتح أمامي بطريقة غامضة. تفتح أختي الباب وتسترق نظرة إلى الداخل، لباسها يدل على أنها ستخرج من البيت.

«دون يا حبيبتي، أنا ذاهبة إلى محل الخيّاط، فريدا في الطابق العلوي تنظف الحمام، فقومي بعدة طلّات على اللحمة، حسناً؟ احرصي على ألّا تحترق، وأن عليها الكثير من المرق. ويا دون، أخبري بائع الحليب أننا نريد نصف ليتر من الكريمة اليوم. الفلوس بجانب الساعة على الرفّ في المطبخ. ساعة وأعود أنا».

لم أجبها سوى بهمهمة.

تغلق أختي الباب ولكنها مباشرة تعود وتفتحه.

«لا تسمحي للولدين بإزعاجك، ولكن إن كانت فريدا فوق وأتيا إليك يسألان عن شيء ليأكلاه، لا تعطيهم البسكويت قبل العشاء. إن كانا جائعين كثيراً دعيهما يأكلان الخبز والزبدة».

أعدها بأن أفعل كل ما طلبته مني بينما بقيت آخر جملة طبعتها تتمشى في رأسي. بدا لي وكأن مرقة الدجاج قد تسرّبت إلى عيني بطلتي الرماديتين الهادئتين، وأي بطلة ستقدر على الحفاظ على السكينة في عينيها عندما يكون عقل صانعتها مملوءً باللحم المشوي؟

تمرُّ نصف ساعة قبل أن أعود إلى مساري. هنا، يظهر البطل، شاب طويل أشقر، النظر إليه متعةٌ، وسأجعله فارع الطول، وأُنعم عليه بكتفين عريضين مناسبين لإعلانات الملابس.

وفي تلك اللحظة تغزو أنفي تلك الرائحة المخيفة للاحتراق. اللحمة! أركض مسرعة إلى المطبخ وأنزع باب الفرن لأرى اللحمة حمراء اللون كالخشب المحروق، وبدون أي مرق. أستغرق من الوقت خمسة عشر دقيقة لتقديم الإسعافات الأولية البائسة قبل أن تُبعَث اللحمة من موتها الوشيك.

أعود للغرفة لأتابع الكتابة، ولكن الكتابة قد فقدت بريقها. البطلة رمادية

العينين أشبه بعصا؛ تتحرك كامرأة هندية خارج محل بيع سيجار. أما البطل فضعيف الشخصية جبان، بدون أن يكون فيه أي بريق أصيل. ما فائدة أن أكتب على كل حال؟ لن يريد أحد أن يقرأ ما أكتب. أنا لا أصلح لشيء إلا للخربشة في الجرائد!

طق! طق! طق تطق طق! الحليب!

أسرع نحو المطبخ. لا حليب! لا بائع حليب! أطير باتجاه الباب وأرى الرجل يختفي وراء إحدى زوايا البيت الخارجية.

«مرحباً! يا سيد! يا سيد بائع الحليب!» ناديته وأخذت ألوّح له بحركات محمومة.

استدار، وتكلم رافعاً صوته: «الباب الرئيسي كان مغلقاً فتركت حليبكم فوق الثلاجة على الشرفة الخلفية. قلت لنفسي لعل الخادمة في الطابق العلوي لم تسمع وأني سآخذ المال غداً».

أشرح له عن الكريمة، وأقول له إننا نريدها لإعداد الكيك. لا يبدو عليه أي نوع من الوِد وأنا أشرح له. لعل بائع الحليب هذا كئيب ومتحفّظ. أتخيل أنه اعتاد على القليل من الثرثرة الودودة مع فريدا في الصباح، وأنه قد وجدني اليوم بديلاً سيئاً وتعيساً لحبور فريدا واحمرار وجنتيها.

ومع وجود الحليب مؤمّناً داخل البراد، آخذ نظرة أخرى على اللحمة في الفرن. أغطّس ملعقة السكب في المرق ثم أصبّه على سطح اللحمة بالطريقة المستحبّة. وفجأة، بسرعة، وبتعثر، وكأن هبة ريح اجتاحت الغرفة، ارتطم جسدان صغيران بساقيّ بقوة هوجاء لدرجة أن رأسي اندفع للحظة داخل الفرن.

أسحب رأسي مباشرة من الفرن، وبينما غرقت ملعقة السكب في أرض صينية اللحمة، استدرت حانقة باتجاه العفريتين. قابلا نظرتي الغاضبة بزوجين من العيون البريئة.

«يا شياطين أنتِ وهو! أتتقصدان دفع خالتكما المسكينة إلى داخل الفرن! آكلا لحوم بشر أنتما!»

تعجبهما الفكرة، فقد تركا ساقيّ وأخذا يدوران حولي برقصة حرب وحشية. العفريتان واثقان كل الثقة أنني جُلِبت إلى بيتهما لا لشيء إلا لتسليتهما الشخصية، ويرفضان أخذي على محمل الجد. العفريتان هذان هما المثال الأنصع للفكاهة التي تحلُّ على الآباء والأمهات. شيلا هي الكبرى، وقد قررت نورا أن ابنتها ستكون حسناء إيرلندية، فأنعمت عليها باسم يفوح من مستنقعات إيرلندا. ولكن شيلا، فتاة في السادسة من عمرها، لها شعر كالكتان وعينان زرقاوان وطبع بارد كفتاة ألمانية صغيرة خُدِع بها أبواها، وهي نسخة أنثوية عن والدها الألماني. بعدها بسنتين، جاءهم صبي قوي الجسم وسموه هانز، كحركة تحدي وردٍّ حازم على تباين مولدتهم السابقة مع اسمها. الصبي هانز إيرلندي للنخاع، بشعر أسود وعينين رماديتين.

«جوعانين جداً نحن!» أذاعت لي شيلا.

«ألا تستطيعان الانتظار حتى وقت العشاء؟ سيكون عشاءً كبيراً!»

زاغت عيون شيلا وهانز، محاولين إفهامي أنه لو انتظرنا حتى وقت العشاء لتغذيتهما، فإننا لن نجد منهما إلا جسدين نافقين.

«طيب حسناً، خالتكما ستعطي كل منكما قطعة خبز وزبدة».

«لا نريد خبز وزبدة!» زعق هانز. «نريد بستويت!»

«بسكويت!» تردد شيلا مطلبه وهي تضرب طاولة المطبخ بملعقة السكب التي قمت بإنقاذها قبل قليل.

«لا يمكنكما أكل البسكويت قبل العشاء، فهو غير جيد لبطنكما».

«بلى ممكن!» يعارضني هانز ويتابع ترجّيه. «فويدا تعطينا البستويت. نريد البستويت!»

«لو... لو... لو سمحتي خالة دون حبيبتي أرجوك». تصرّ شيلا وهي تراقص أصابعها الطرية الصغيرة في كفّي.

«ولكن الماما لا تسمح لكما بأكل البسكويت قبل العشاء». أرد عليهما بحزم. «هي تعرف أنه سيء لصحتكما».

«آه بلى تسمح! كل مرة تقول (لا، لا بسكويت!) وبعدها نترجّى ونزعق وبعدها تقول (خلص! فريدا اعطيهم بسكويت واتركيهم يخرجون لن تقتلهم بسكويتة واحدة!)».

يتعلق هانز بكلمة زعيق ويأخذها كإشارة للبدء بعويل يصم الأذن. تقيّمه شيلا بفخر وتشارك بالعويل ولكن بنبرة أخف. هذا العمل الثنائي مذهل ويفعل فعله، فلم ألبث أن أسرعت إلى جرة البسكويت وأخذت منها قطعتين سكريتين مدورتين، ووضعتهما في اليدين الورديتين الممدودتين في حالة انتظار.

يتوقف العويل، وبكل هدوء يضعان البسكويتتين فوق بعضهما ويقيسان قطر كل واحدة بعيون تملؤها الجدية.

«هذه المرة بسكويتتي شوية أكبر من بسكويتتك». تقرر شيلا، وتقدم بسكويتتها بكل بطولة ونُبل ليأخذ هانز من حصة أخته الكبرى قضمة عادلة وشرعية.

«ملاكان مباركان!» أقول لنفسي ذائبة القلب. «العزيزان المعطاءان! ولا ذرّة أنانية فيكما!» وأعطي كل منهما بسكويتة أخرى.

أعود إلى آلتي الكاتبة، ولكن الكلمات ترفض أن تُظهِر نفسها الآن. أكتب ست مقدمات فاشلة، أقضم أظافري، أربط شعري في حلقات متشعثة وفوضوية،

وأستسلم. لا شك أن كاتبة حقيقية تستطيع الكتابة لساعات طويلة بلا مبالاة وبدون إنصات لأي شيء حولها، بينما يسحق بائع الثلج الخيار، وتحترق اللحمة إلى رماد، وينفق العفريتان الصغيران من الجوع. مسكونة ببريق العبقرية الحقيقي، أشياء عابرة كبائع الحليب والخيار لا يمكنها إخماد البريق وإخفاءه. لربما كل الكاتبات الحقيقيات لديهن طباخون وخادمات، وليس عليهن القلق بشأن الطبخ والمرق وبائعي الحليب.

شغلة كتابة الروايات هذه جيدة فقط لمن يساوي إيمانهم بالمستقبل حساباتهم الضخمة في البنك، ولكن أنا عليّ شق مستقبلي بيدي، وحسابي في البنك كان دائماً عبارة عن ظرف مال صغير يصلني آخر كل أسبوع. ستستغرق كتابة الرواية وإنهائها شهوراً، وجيوبي فارغة. الأسبوع الماضي، أرسل ماكس مبلغاً من المال لرعاية بيتر. هو ونورا يظنان أن لا علم لي بهذا.

كان فون جيرارد هنا في آب، وقد قلت له إنّ كل قراراتي الحازمة فيما يتعلق بترك عمل الصحافة إلى الأبد كانت تنسل هاربة من بين يدي واحدة وراء الأخرى.

«لقد سمعت بفتنة العمل الصحفي ومكاتب الجرائد». كان قد قال لي بطريقته المتفهمة. «أعتقد أن لديك شوقاً لهذا العمل، صحيح؟»

«شوق! هذه هي الكلمة». وافقته. «بعد أن تكون صحافياً لسبع سنوات ـ ومحباً للعمل ـ ستبقى صحافياً في القلب وبالغريزة حتى موتك. لا يمكنك الهرب منه، فهذا العمل يدخل مجرى الدم. يُعرَف عن رجال الصحافة وراثة الثروات، ودخول مضمار السياسة، وتأليف الكتب والاشتهار، أو قد يصبحون مجرد مخبرين مشوّهي السمعة، وقد يُرفَعون إلى درجة النجوم أو يغرقون في المجهولية، والشيء الوحيد المؤكد هو أنّ أنفهم الذي يشتم الأخبار يبقى

جزءاً من كيانهم، وعبق مكاتب الجرائد الخانقة والمفعمة برائحة الدخان والحبر تبقى حلوة في أنوفهم».

ولكن «ليس بعد». قد قال فون جيرارد. «إلا إذا أردت أن تستمر تعاسة أعصابك المريضة. انتظري بضع شهور بعد».

وقد انتظرت، بدون إخبار نورا وماكس بأي شيء. أريد أن أكون في وسط الأحداث، أشتاق للشعور بأصابعي تلامس نبض العالم الكبير، وحشتني الضجة والعجلة والعمل الشاق، وأن أراقب الأزيز والحركة الدائمة في مكتب الأخبار المحلية قبل إرسال الجريدة للطباعة، حيث تسبح أضواء الغرفة في بحر من الدخان، وكل من في المبنى يصرخون ويطالبوننا بالإسراع. الرجال يأزّون داخل المبنى، عائدين من مغامراتهم في الخارج وبجعبتهم أخبار ستُصقَل مرة وأخرى بمرورها تحت أيدي المدققين والمحررين.

أريد أن أكون في قلب كل ذلك التشوش والفوضى، الذي كان ورغم كل شيء، منظماً. أريد أن أكون هناك عندما ترنّ الهواتف وتطقطق الآلات الكاتبة، وعندما يتقافز الصبية من حاملي الرسائل وسعاة البريد داخل المكتب وخارجه، وآخرون مشغولون بعمل ما في إحدى الزوايا، ورئيس قسم الشؤون المحلية، موسّعاً قبة قميصه ومشمّراً عن ذراعيه، شعره يتطاير بجنون فوق قبعته الخضراء وهو يسب ويلعن بصوت خافت ويدخن سيجارة وراء سيجارة، مشعلاً واحدة كل ما ماتت جمرة التي سبقتها. كنت مستعدة للتضحية بسنة كاملة من حياتي لأسمعه يقول:

«لا مشكلة عندي في أن أقول لك يا بياتريس فايرفاكس[1] إن تلك القصة التي كتبتها عن طلاق ميلهاوت كانت مذهلة. كل الآخرين الذين كتبوا عنها لم يقدموا معلومة جديدة واحدة، كلهم ينسخون كلام بعضهم البعض».

(1) شخصية خيالية، محققة بوليسية تحل المشكلات التي يبعثها إليها قراؤها

وكل هذا لا يليق بالنساء؛ أفليس الزواج طموح المرأة الأسمى، وهموم البيت مجالها الأصلي؟ ألم أجرب كِلا الأمرين؟ أنا من يجب أن أعرف هذا أكثر من غيري. كل ما في الأمر أنني أُعطيت الدور الخطأ في دراما الحياة هذه. دوري كان يجب أن يكون امرأة تشق طريقها وحيدة.

بيتر، بشفتيه الرقيقتين القاسيتين، ويديه المرتجفتين ووجه المتعب، وعينيه المتقدتين، كان يخيط ظلاماً فوق الأماكن المشمسة في دربي. قُدِّر لي أن أكون عانساً عجوزاً، كالعجوز المريعة كيتي أوهارا. وليس عجوزاً من نوع الثرثارات اللواتي يتدخلن في كل شيء، ولكن عجوزٌ قويةٌ مذهلة كثيرة الانشغال مشقوقة الذقن. كيتي أوهارا السليطة اللسان كانت تقول إن العنوسة أشبه بالموت غرقاً: شعور رائع حين تتوقف عن مكافحته.

ترجتني نورا كي أصبح مثل النساء الأخريات في سنّي، وحاولت التشبّه بهن لأجلها فقط. أخذتني معها إلى سهرات لعب ورق الشدّة وحفلات الرقص، وقد حاولت تقمص دور من تعجبها هذه الأشياء كلها، ولكنني عرفت أنني كنت أفشل في كل مرة، وقد وصلت إلى نتيجة مفادها أن كل سنة من العمل الصحفي تساوي سنتين من الحياة العادية، فبينما عمري هو ثمانية وعشرون في الوثائق العائلية، فأنا من الداخل قد أكملت الأربعين عاماً.

عندما يمر تحت قلمك في يوم واحد قِسّ، وعاهرة، وفقير، وفاعل خير مجهول، وكل منهم لديه قصص ليقولها، وكل منهم يتطلب قدراً لا بأسَ به من اللجاجة والتزلف أو الخداع والتهديد ليخبرك بها، ينتهي يوم عملك، وتجد نفسك وأنت تنظر إلى العالم بعيون متعبة وقديمة بقدم العالم نفسه.

لم أُخلق لجلسات التطريز واجتماعات الكنيسة ولعب الورق في المساء. نهمٌ للمدينة قد نمى في داخلي.

انسلّت أيام الصيف الطويلة الخاملة مبتعدةً، وتخللت الجو لذعه خريفية، والنسيم صار يحمل معه برداً حاداً.

قضاء الشتاء في بلدة شمالية صغيرة! كان يجب أن أُجنّ. اشتقت للشتاء في المدينة! الشوارع تحت الغروب في مساء مثلج، واجهات المحال مرتبة بأيدي فنانين لأجل عيون النساء المحبة للجمال، صفوف الأنوار كالجواهر معلقة على حبل غير مرئي، ولمعان صفائح معدن السيارات يمر بدون انقطاع. النساء الأنيقات، الرجال المتوترون بعيون تبرق فطنة، النقزة من صوت صفارة شرطي المرور. كل حائط وعامود متشحّم ومغطى بالدخان يتسربل بجمال داكن غامض تحت لون الغروب البنفسجي؛ كل زاوية وملمح قبيح مموّه في الليل الرقيق.

ولكن أفضل شيء كان افتتاني بـ(الأشخاص الذين أحب أن أعرفهم). يظهرون لي بين حين وآخر في جموع الناس السائرة، ويختفون في اللحظة التي بعدها، تاركين خلفهم شعوراً ضبابياً بالندم. أحياناً أسميهم (الأشخاص الذين أحب أن أعرفهم) وأحياناً أخرى هم (الأشخاص الذين أعرف أني سأحبهم)، ولكن الاثنين يحملان المعنى نفسه. وجوههم تلمع بين الجموع ومن ثم تتبدد، ولكنني أميزّهم فوراً كمنتمين لدائرتي من الأصدقاء الأعزاء المجهولين.

قد تكون فتاة جالسة مقابلي في عربة، فتاة بفم واسع مرح، وعينين مأساويتين، وثقب في حذائها. أو هو رجل ضخم ودود الوجه تنبز من جيب معطفه مجلة متخصصة بالهندسة، كان يقف عند كشك للكتب ويقرأ لديكنز كطالب مدرسة، ويضحك عند كل جزء ومشهد كُتِب لإضحاك القارئ، وقد عرفت ذلك لأنني كنت أقف خلفه وأسرق نظرات من وراء كتفه لأرى. ومرة هي امرأة عجوز نحيلة الجسد كقشّة، مشعثة الشعر، تحدق مبهورة بواجهة محل حيث عُرضت مجموعة من الفساتين والقبعات على آخر صرعة. تلك السيدة المسنة كانت ترتدي الأسود من رأسها إلى أخمص قدميها، وفي عينها اليسرى حوَل ظريف

أسبغ عليها مظهراً غريباً ومحبباً، أما عينها اليمنى فكانت منهمكة بالتمعن في الفساتين، والأغصان المزينة على قبعتها السوداء كانت تهتز مع المرح الصامت لصاحبتها. بدت وكأنها واحدة من تلك الدوقات الذكيات ذوات الفطنة رثات الملبس اللواتي نقرأ عنهن في الروايات الإنجليزية. كنت واثقة من أن حبات هال موجودة في حقيبتها المهترئة، وأن هناك عربة موسومة بشارة ملكية تنتظرها خلف زاوية ما. تقت لأن أشْكُل يدي حول ذراعها وأسألها عن رأيها في كل هذه الأشياء، وقد عرفت أن ردّها سيكون بغاية الظرافة والجرأة، وتمنيت طويلاً لو أنني أستطيع سماعها تقوله.

ولا بدّ أن ملاكاً خيّراً يستفز الجانب السليم من عقلي، ويمنعني من فعل هذه الأشياء التي يغريني القيام بها. بالطبع سيكون ضرباً من الجنون لو نادت امرأة رجلاً أصهب غريباً عنها وله وجه مهندس وفي يده رواية لديكنز، أو نساء كبيرات السن مرحات لهن وجه كسّارة البندق، أو فتيات بأفواه عريضة مرحة. بالفعل، أعتقد أن أشياءً كهذه لا يمكن القيام بها، فأهل المجتمع من حولي لن يضيعوا وقتاً لزجّي في زنزانة مبطنة لو كنت لأقول:

«يا سيد! أنت أيها السيد أحمر الشعر، أنا سعيدة أن قلبك مازال شاباً بما يكفي ليقرأ ديكنز، فأنا أحبه أيضاً، أحبه لدرجة أن لا مانع لدي من قراءته واقفة عند كشك كتب مزدحم. أتعرف ماذا أيضاً؟ تعجبني تربيعة فكك ولمعان عينيك حين تضحك، وفيما يخص كونك مهندساً، فأحب أن أقول لك إن أول رجل أحببته كان مهندسا أيضاً في (جنود المال)[1]».

أتساءل ما الذي ستقوله الفتاة معي في العربة، لو جلستُ إلى جانبها ووضعت يداً على ذراعها وتكلمت كالتالي:

(1) رواية أميركية للكاتب ريتشارد هاردينغ، ودون هنا تقصد روبرت كلاي، بطل الرواية

«أنت، البنت بفم واسع مرح وعينين مأساويتين والثقب في حذائك، أعتقد أنك من أولئك ذوي المواهب. أراهن أنك ترسمين أو تكتبين أو تمثلين أو تقومين بعمل ذكي كهذا لتعيشي وتسترزقي. ولكن من ذلك الثقب في حذائك الذي حبّرتهِ بكل حرص وعناية، رغم أنه يضُرّ بتشققاته الجانبية على كشف الجوارب البيض تحته، أعتقد أنك تخوضين فترة وعرة في حياتك الآن. ومن تلك النظرة في عينيك يا فتاة، أعرف أن الصخور في هذا الوعر جرحتك وآلمتك بقسوة، ولكن عندما أنظر إلى فمك الواسع المبتسم، أعرف أنك تحاولين الضحك رغم كل الآلام. أعتقد أنه، وفي هذا الصباح أثناء تحبير حذائك للمرة الألف، ترددتِ بين الدموع والضحك، وأحمد اللّه أن الضحكة انتصرت! أرجوك واصلي الضحك، وإياك أن تتوقفي للحظة! لأنه عما قريب، ستصلين إلى مكان منبسط جميل، وعندها ألن تكوني ممتنة لأنك لم تتركي جسدك ملقى على جانب الطريق، ولم تستسلمي مجهدة من كل آلامك؟»

شيء كهذا لا يمكن أن يحصل. أبداً. ورغم هذا فلا سحر يملكه الأشخاص الذين أعرفهم يُقارن بهؤلاء الذين (أحب أن أعرفهم) و(أعرف أني سأحبهم).

هنا في البيت مع نورا لا وجوه بين الجموع، فلا توجد جموع أصلاً. عندما تقطع زاوية في الشارع أنت متأكد أنك سترى الأشخاص أنفسهم في الأماكن نفسها. تعرف أن مامي هايز ستكون واقفة أمام محل المجوهرات الذي تديره وهي تنفض الغبار عن قماشة ما، وترمق الشارع الرئيسي من أوله لآخره، عيناها الحادتان تراقبان ظهور أي رجل مسافر قد يمر من أمام محلها. أنت تعرف أن نفس الوجوه البيض لشباب ميتي العيون ستكون متسكعة على شكل جماعات خارج الصالات. زوّار عيادة الدكتور بريجز سيكونون واقفين في البهو أمام مكتبه، وأمام محل الجزّار سيكون شتيك بارزاً بين جمع من المزارعين ومخاتير البلدة حمر الوجوه مزدهرو الحال سيئوا الملبس، يخطب فيهم بالسياسة، وأثناء كلامه،

ستتكثف حلقة دخان التبغ البنية حول الجمع وتحيط به مقتربة أكثر فأكثر. وهناك، على كرسي كبير في إحدى زوايا المكتبة العامة، مواجهاً للنافذة الكبيرة المطلة على الشارع، سيكون جالساً السيد راندل العجوز، شعره الأبيض يشكل هالة حول وجهه التعيس المخمور.

السيد راندل هذا كان ليصير محامياً جيداً، ولكن في طريقه نحو الشهرة، التقى بالكحول، وأخذت بيده ساحبة الرجل معها إلى أزقة متعرجة وطرق فرعية، وأخيراً إلى الدرك الأسفل، فلم يصل أبداً إلى مبتغاه. هناك عند نافذة المكتبة يكون الجو بارداً في الصيف ودافئاً في الشتاء، فيجلس ويحلم، مسنداً كتاباً مفتوحاً على ركبتيه بدون أن يقرأه. أحياناً يحدودب في كرسيه ويكتب، يمرر قلمه بعجلة على الورقة، محموماً يؤلف مسرحيات وقصصاً قصيرة وروايات، والتي سيصر لاحقاً على قراءتها للصبيان والبنات المتململين الذين يأتون إلى المكتبة ليدرسوا ويتواعدوا.

عندما تحل ساعة الغروب، يعيد السيد راندل العجوز الكتاب إلى مكانه، ويضع معطفه ذا الكمين المتدليين على كتفيه، خصل شعره البيض تلامس عروة المعطف المخملية المهترئة. كمشية جندي، سيسير خارجاً من المكتبة، يدندن أغنية ما، ويتجه نحو صالون فاندورميستر، حيث سيتوسل ليقدموا له شراباً وعشاءً، ورجل ما سيقبل ويشتري له الشراب والطعام تقديراً لأجل ما كان يمكن لراندل العجوز أن يكونه.

كل هذه الأشياء أنت تعرفها، وبمعرفتها، ما الذي يبقى للمخيلة؟ كيف للشخص أن يحلم أحلاماً عن الناس عندما يعرف كم يدفعون لخادماتهم، وماذا يأكلون على العشاء أيام الأربعاء؟

الفصل الخامس

الآن صرت قادرة على أن أتعاطف وأفهم مشاعر خيلِ حرب جريح مقيّد بعربة خضار. سأذهب إلى ميلواكي[1] لأعمل! هذا شيء يجعل الآلهة تمسك خواصرها وتتدحرج من أعلى الجبال ضحكاً. بعد نيويورك، ميلواكي!

وطبعاً، يقع اللوم بأكمله على فون جيرارد، ولكنني أعتقد أنه حتى هو يرى الفكاهة في هذا الأمر كله. حدث كل شيء في يوم كنت مستغرقة فيه بحالة عصيبة من الحزن، وقد أسرعت نورا إلى غرفتي. أعتقد أنني كنت أتأمل وأتنحنح على أوراق قديمة أو رسائل أو أوشحة أو شيء كهذا بتلك الطريقة الساحرة والمؤلمة كطعنة السكين التي تقوم بها النساء عندما يكن حزينات.

«اطلعي برا!» صرخت نورا. «البسي قبعتك ومعطفك! وصلني للتو اتصال من إرنيست فون جيرارد، سوف يأتي، وشكلك أنت كالمخلل المنقوع، ولا حتى نصف متوردة كما كنت عندما كان هو هنا في أغسطس، ونحن الآن في أكتوبر. اخرجي وامشي حتى تحمر خدودك لدرجة لا يصدق معها فون جيرارد أن هذه المرأة ملتهبة الوجه مقطوعة النفس هي نفسها المخلوق الأخضر الرخوي الذي كان يتقوقع على الكرسي منذ بضع شهور مضت. هيا اخرجي!»

وهكذا خرجت. بدون قبعتي، اتجهت نحو أراضي المزارع مبتعدة عن الطرق المعبّدة وأرصفة الاسمنت. كل المنعطفات كانت مغطاة بأوراق الشجر

---

(1) مقاطعة في ولاية وسكنسن الشمالية

المتساقطة، وتعسةً شققت طريقي بين الأوراق، محاولة أن أشعر بأنني محبطة، وكبيرة السن، وعديمة الفائدة، وفشلت في مسعاي هذا بسبب اللسعة في الجو، وروعة الأوراق الحمراء الذهبية التي يتلألأ الصقيع على أطرافها، وبسبب الدم الذي كان يتغلغل في جسدي كما طلبت نورا مني.

في حقل على أطراف البلدة، حيث ينحني كل من الريف والمدينة لبعضهما، كان شباب من الجامعة يمارسون تدريبات كرة القدم. ستراتهم القرمزية تباينت بشكل مميز مع العشب الخريفي بني اللون.

«ثمان، سبع، اثنان، أربع!» هدر صوتٌ، وتبعه اشتباك، وحفحفة الجلد على الجلد، ومن ثم سقطة على الأرض. شاهدتهم بقليل من الحسد، ومشيت بالعكس حتى اختفوا في تكويعة على الطريق مما جعلهم يغيبون عن نظري.

تلك التكويعة نفسها تحولت إلى طريق ريف حقيقي ـ طريق ريف ميتشغاني بني وغباري وساكن، صارم في عمله، لا يتوقف ولو للحطة ليغازل حِرْج الخريف المحمرّ إلى يساره، أو ليثرثر مع الوادي الصغير على يمينه.

أخذت أفكر. الحقيقية أنه لو كان هذا طريقاً ريفياً إنجليزياً، طريقاً ريفياً اجتماعياً ومرحاً ويحب المتسكعين، لتوقع الواحد شيئاً منه. لو كان هذا طريقاً في ريف إنجليزي، ستكون هذه اللحظة النفسية المناسبة لظهور إله أشقر ببدلة صوفية رمادية. كم تمتع بأشياء كهذه بطل قصص ريتشارد لي جاليين[1] في مغامراته! كان من المستحيل أن يتمشى البطل في أي طريق بريء المظهر، أو يتبختر في أكثر الطرق فرعية، ولا تأمّل أو مكث في أكثر السبل الريفية خلاءً إلا والتقى وجهاً لوجه بامرأة حلوة ذكية، والتي تكون هي بدورها تبحث عن أشياء غريبة ومجهولة، وتستطيع بكل عفوية أن تُسمِعَهُ أبياتاً من قصائد شوسير[2].

---

(1) كاتب وشاعر إنجليزي

(2) جيوفري شوسير، معروف بأب الأدب الإنجليزي ومن أهم الشعراء الإنجليز في العصور الوسطى

آه، ولكن تلك إنجلترا، وهذه أميركا. أدرك هذا بحزن بينما أنتقل إلى جانب الطريق، سامحةً لعربة بيع حليب أن تمر بجانبي. الأحرف الحمراء على عربة الحليب صفراء اللون تُعلِم القارئ أنها ملكية أوجست شميلفينغ، من شركة هيجوري جروف. عين شميلفينغ واضحة للعيان وهي ترمقني من أعلى في موقعها وراء زجاج العربة المتحركة، ولابد تشعر بالشك من امرأة شابة بدون قبعتها تتسكع وحيدة في دروب الريف أثناء الغروب. تلك العين المحدقة جعلت من نفسها استثناءً، فقد كنت متأكدة أن الفم تحت هذه العين كان مرسوماً على شكل تكشيرة، ولكني لم أستطع رؤيتها. من السيء أن ترمقك عين شميلفينغ الشكاكة، ولكن أن يكشّر لك فم شميلفينغ فهذا ما كرهته. ولأريه حنقي فقد أعطيت ظهري لعربة شميلفينغ وتظاهرت بأنني أتأمل الطريق التي سرت فيها.

تظاهرت أنني أتأمل الطريق ولكنني لم أنظر إليه فعلاً. توضح الآن السبب الذي جعل عين وفم شميلفينغ تكتسيان ذلك التعبير القذر، فقد كان الإله الأشقر الشعر ذو البدلة الصوفية الرمادية يتبختر باتجاهي! عرفت أنه كان أشقراً لأنه لم يكن يرتدي قبعة، ولأن آخر خيوط شعاع شمس أكتوبر كانت تحيط رأسهَ بهالة صغيرة. وعرفت أن بدلته الرمادية كانت صوفية لأن أي بطل يحترم نفسه ويخرج سائراً على درب ريفي يرتدي الصوف. الأمر أشبه بدِينٍ بينهم. هو لم يكن بالقرب الذي يسمح لي بتحديد ملامحه. استدرت وتابعت سيري، والعربة الصفراء ومعها عين شميلفينغ المحتقرة، كانت تختفي في غيمة من الغبار. تضرعت إلى السيدة بيرثا أم كلاي![1] كيف للواحدة أن تسلّم على إله أشقر ببدلة صوفية رمادية على طريق ريفي عندما يكون موجوداً فعلاً!

حلّ الإله الأشقر المشكلة لي.

«مرحبا!» نادى علي، ولم أستدر، وتبع ذلك الصوت لحظة سكون، ومن ثم

(1) وهي روائية أميركية، وقد استخدم هذا الاسم المستعار العديد من الكتاب بعد موتها

صوت صفير عالٍ وحاد، من النوع الذي يُطلق بوضع أربع أصابع بين الأسنان، وهذه تصفيرة مفضلة لدى آلهة المعارض الفنية، ولم أصدق أن إله البدلة الرمادية الصوفية قد يدني نفسه إلى هذا المستوى.

«مرحبا!» نادى الصوت من جديد، أقرب بكثير الآن. «يا الله! في حياتي لم أرَ امرأة شابة بكل هذا القدر من الكبرياء!»

التفتُ بسرعة لأواجه فون جيرارد؛ فون جيرارد بوجه صبياني غريب وبدون مهنيّته الصارمة.

«أيها الشاب»، قلت له مؤنّبة. «أكنت تتبعني؟»

«لأميال». شخر ونحن نتصافح. «تمشين كالعسكري. أُرسلت من قبل نورا الرائعة لأخبرك أن تعودي للبيت لتخلطي السلطة، لأن ضيوفاً قادمين للعشاء. أنا هم الضيوف».

كان رأسي مازال دائخاً. «ولكن كيف عرفت أي طريق تسلك، ومتى ـ»

«رائع، أليس كذلك؟» ضحك فون جيرارد. «ولكن، بكل بساطة، أخذت قطاراً أبكر من موعد رحلتي الأصلية. دردشت مع نورا قليلاً وسألتها عن صحة مريضتي، فقيل لي إنها تركض هاربة من حشد عفاريت زرق أحاطوا بها طيلة اليوم! ـ وهذا كلام أختك ـ فسألت إلى أين هربت؟ تهز الأخت نورا كتفيها وتخمن أنه الطريق الذي يتضمن أكثر ألوان الخريف حمرة وصفرة، وذاك الطريق سيكون طريقك. هكذا!»

«آها، هكذا ببساطة فعلاً! هذه ثاني خيبة أمل تسببها لي اليوم».

«كيف هذا والخيبة الأولى لم تحصل أصلاً؟»

«الأولى كانت أنت نفسك». جاوبته بوقاحة.

«كنت أتشوق لمغامرة ما، وعندما رأيتكِ هناك في رأس الطريق، امرأة غريبة في طرق ميتشغان الريفية، نسيت للحظة أنني خروف عجوز خائب له تاريخ أليم، وشعرت بنفسي شاباً من جديد، وقفز قلبي إلى حنجرتي، وحدثت نفسي، قلت: فليدخل البطل! ولكن تلك المرأة الغريبة ما كانت إلا أنتِ».

حدق فون جيرارد فيّ للحظة بوجه فضولي، ثم ضحك واحدة من تلك الضحكات النادرة التي يطلقها، وشاركته إياها لأنني أحسست بالشباب والسعادة وخفة الروح.

«أنت تتمشين وتحبين المشي، صحيح؟» سأل فون جيرارد وهو يتفحص وجهي. «وجهك مثل... ليس مثل وجه الفتيات الألمانيات، تماماً، ولكنه تحسن جداً. وأعصابك؟ مازالت تقفز؟»

«تقفز نعم، ولكن ليس من التعب، بل تقفز شوقاً للعمل من جديد. من حياة فيها من الإثارة ما فيها انتقلت إلى المعاكس تماماً. سأكون ميتة من الملل القاتل خلال ستة أشهر».

«الملل القاتل؟» سأل فون جيرارد وهمهم. «وأنتِ، كما أتذكر، في الثامنة والعشرين من عمرك، صحيح؟»

شعرت بتعبه من تصرفاتي من خلال صوته، وقد جعلني ذلك أعلن له بتحدٍّ: «عمري ألف سنة! مليون سنة!»

«سأثبت لك أنك بعمر السادسة عشر». رد فون جيرارد بهدوء.

وصلنا إلى تقاطع طرق. على اليمين كانت التفريعة أضيق، ممتدة بين صفين من أشجار القيقب التي شكلت قبة ذهبية رائعة، وقد زادتها طبقة الصقيع جمالاً وتألقاً.

«جادّةُ الشمس». أعلن فون جيرارد. «تنادينا لنبتعد عن البيت والعشاء وخلط السلطة والواجبات، ولكن من يدري ماذا سنجد في آخرها!»

«دعنا نستكشف». اقترحت عليه. «هذا اللون الذهبي لا يمكن أن يكون فيه إلا سحرٌ».

وهكذا دخلنا الممر الأصفر المقبّب.

«دعينا نتظاهر بأننا هنا في ألمانيا، ما رأيك؟» طلب مني فون جيرارد. «هذه الدرب الذهبية ستنتهي بمطعم صغير مرتب ذي سقف زجاجي مع طاولات وكراسي مصفوفة في الخارج، وآباء وأمهات ألمان مع أولادهم مربوطي الشعر مرتاحين وهم يشربون القهوة أو البيرة. سيكون هناك نُدلٌ قصار ومضيف أحمر الوجه. سنجلس على واحدة من الطاولات، وسألوح بيدي وسيأتي أحد النادلين القصار على عجلة ويسألك: أتريدين القهوة يا آنستي، أو البيرة؟ أعرف أنني أزخرف المشهد كثيراً، ولكنه بالفعل جيد جيداً، كما سترين. ممرات كهذه في ألمانيا دائماً تودي إلى قهوة وكعك ونُدلٍ بمآزر بيض»

«ولكن لا!» قلت له وقد أصابتني عدوة مزاجه الجيد. «هنا فرنسا، أرجوك! فالممرات الذهبية تودي إلى مزرعة فرنسية صغيرة كأنها مرسومة رسماً، مع قسم لصنع مشتقات الحليب. وعند مدخل بيت المزرعة، ستقف مزارعة بتنورة حمراء وفوطة بيضاء على رأسها ورضيع بين ذراعيها! وقبقاب! من المؤكد أنها ستكون مرتدية قبقاباً!»

«بالتأكيد ستكون مرتدية قبقاباً». قال فون جيرارد بنفس حميتي. «وجرابات زرقاء محاكة، واسم الرضيع ميمي!»

كنا قد أخذنا بأيدي بعضنا، وبدأنا نتقافز كطفلين مبتهجين على طول الممر.

«لنركض». اقترحت عليه، وفعلنا ذلك كمخلوقين مجنونين، حتى أخذنا

منعطفاً صغيراً أوصلنا مقطوعيْ النفس إلى سياج خشبي متعفّن. كان السياج يحيط بحقل متعرج شائك، ولم يكن في الحقل إلا بقرة مشدوهة. وقفنا أنا وفون جيرارد، هادئان، يداً بيد، نراقب البقرة. ثم التفت كل منا ببطء نحو الأخر، ونظرنا إلى بعضنا.

«ممر القيقب المعظّم هذا يقود إلى بقرة». قلت محبطةً، وفي تلك اللحظة زعقنا كلانا بضحكات مرحة، واتكأنا على السياج المتعفن، نمسح عيوننا بالمناديل.

«ألم أقل إن عمرك ست عشرة سنة؟» مازحني فون جيرارد، وقد تفاجأت بأننا، أنا وهو، قد أصبحنا متفاهمين أكثر مع بعضنا.

«هذا أفضل عقاب لنا! سيحلّ الظلام قبل أن نصل إلى البيت. لابد أن نورا تنتف شعرها الآن».

وقد كان تنبؤي في محله، فأثناء صعودنا المتعثر على الدرج، فُتِح الباب بعنف كاشفاً عن شخص مأساوي يقف خلفه.

«اللحمة!» صاحت نورا. «وقد كانت جاهزة منذ ساعات وساعات، والآن شكلها صار كقرن ذرة مقلي. أين كنتما أيها الغبيّان؟ والفطر أيضاً».

«ما تعنيه هو أن اللحمة التي خَرِبَت قد حسّن من حالها إضافة الفطر». شرحتُ لفون جيرارد رداً على الاستغراب الذي ارتسم على وجهه. خطونا أنا وهو إلى داخل البيت، محاولين ألا نبدو كسارقين متسللين. بغليونه في فمه، عايننا ماكس ببرود.

«لون حلو هذا الذي في وجهك يا دون». علّق ماكس.

«زادت شغلة الصحة هذه عن حدها». أضافت نورا بكثير من الحنق لم أعتده فيها. «لم أقل لك أن تصير خدودك بنفسجية».

التفت ماكس إلى فون جيرارد. «ماذا تعتقد أنها تعني بهذا يا إرنيست، ها؟»

«برقة يا أخي برقة!» همس له فون جيرارد. «عندما تتبادل النساء تعليقات تبدو في ظاهرها بسيطة ولكن أنت كرجل لا تفهمها، أعلم أن حرباً نسائية تقع، وسِرْ برقة، وأعلن نواياك المسالمة، ولا تنسى أن تقوم بكل هذا وأنت في قمة الهدوء!»

أعيد السلام والهدوء إلى الغرفة مع ظهور قطعة اللحم وقد نجت من فترة الانتظار الطويلة، ومازالت غضة ومحافظة على طراوتها. كنا جميعنا جالسين في غرفة المعيشة قوية الإضاءة ذلك الوقت، أختي تعزف على البيانو بينما كان الرجلان يدخنان سيجار ما بعد العشاء، وقد ارتسم على وجهيهما تعبير الرضى والراحة ذاك الذين يزين الوجه الرجولي في مناسبات كهذه.

نظرت إليهم، إلى هؤلاء الثلاثة الذين فعلوا الكثير لأجل سعادتي وصحتي، وشيء داخلي قال: «الآن تكلمي! الآن!»

كانت نورا تعزف على البيانو بلطف ورقة حتى لا تزعج وتوقظ العفريتين الصغيرين في الأعلى. أخذت نفساً طويلاً وقررت الغطس في الموضوع مباشرة.

«نورا، إن تابعت العزف البطيء جد شاكرة لك. وكما يقولون، لقد حان الوقت للخوض في الكثير من الأحاديث».

«لا تكوني سخيفة». قالت نورا وتابعت العزف.

«يا جماعة، لم أكن في حياتي كلها أكثر جدية من الآن. أحتاج إلى أن أكون جدية. طريقة العيش هذه كالفراشات قد طال أمدها. نورا، ماكس، والسيد الطبيب، أنا سأرحل».

خبطت يدا نورا على مفاتيح البيانو، مصدرة نوتة ناشزة وعالية، واستدارت من عن كرسيها لتواجهني.

«لا يا دون، إلا نيويورك! إلا نيويورك!»

«ولكن هذه الحقيقة». أجبتها.

نهض ماكس ـ مباركٌ قلبه الأخوي الكبير ـ ومشى باتجاهي، ووضع يداً فوق كتفي. «ألا يعجبك العيش هنا يا فتاة؟ أتريدين أن يعيدوك إلى هنا على نقّالة مرة أخرى؟ أنت تعرفين أنه ومهما يكن، فبيتنا هذا هو بيتك أنت أيضاً. نحن نحتاجك هنا».

ولكنني هززت رأسي معارضة.

من موقعه على الكرسي في الجانب الآخر من الغرفة، كنت أشعر بنظرة فون جيرارد مثبتة علينا، ولكنه لم يقل أي شيء. أخذتُ يد ماكس الكبيرة بيدي واستلهمت منها الشجاعة. «تحتاجونني هنا؟ لا أحد يحتاجني. لا تقلقوا، فأنا لن أصير سكيرة أشرب لأُثمِل آلامي، ولكنني لا أنتمي إلى هذا المكان، وأنتم تعرفون هذا. لدي عمل لأقوم به. نورا أفضل أخت أُنْعِمَ بها على امرأة بالمطلق، وماكس، أنت صهر ملاك، ولكن كيف لي البقاء هنا والحفاظ على احترامي لذاتي؟»

«ولكن ألست تعملين هنا؟» قالت نورا. «تعملين كل صباح، وكنت أعتقد أنك قطعت شوطاً جيداً في تأليف الرواية، وأنا متأكدة أنها ستكون رواية رائعة، فأنت ذكية جداً يا دون».

«آه الرواية... أشياء كهذه غير مؤكدة، لربما ستنجح، لربما لا، وبعدها ماذا؟ قد يستغرق الأمر شهوراً حتى تُصقل الرواية تماماً، وقد أظل أتمعن فيها لعدة شهور أخرى. لا، لا أستطيع أن أتلاعب بما لا يقين فيه. كل صحافي أو صحافية يستطيع تأليف كتاب، الأمر بسهولة الإصابة بالحصبة. لا يوجد صحافي واحد على قيد الحياة لا يؤمن في أعماق قلبه أنه لو استطاع أخذ شهر أو شهرين بعيداً عن التقارير والأخبار، سينجح في تأليف كتاب يشهره، أو حتى تأليف مسرحية قد تضاف لعظيم الأدب الأميركي. انظروا إلي! بالكاد بدأت الكتابة بشكل جدي منذ

عدة أسابيع، ويومياً وحتى الآن لم تقبل أي مجلة من أفضل المجلات في البلد مخطوطاتي».

«لا تمزحي». قالت نورا وهي تتجه نحوي. «لا أقدر على تحمل هذا النوع من المزاح».

«لم لا؟ المزاح أفضل بكثير من البكاء، صحيح؟ وعلى كل حال، فأنا لا أستطيع حتى البكاء. الدكتور فون جيرارد سيقول لك كم قوية أنا، ألن تفعل ذلك يا سيادة الدكتور؟»

«حسناً». قال الدكتور فون جيرارد بلكنته الإنجليزية المتأنية. «ولأنك سألتني، فسأقول لك إنك ستحتملين سنة واحدة فقط في نيويورك».

«سمعتي! ألم أقل لك؟» صاحت نورا.

«ما هذا الهراء!» سخرت منهم واستدرت لأرمق فون جيرارد بحنق.

«اهدأي»، حذرني ماكس. «لا تليق قلة الاحترام هذه مع الرجل الذي، ومنذ ست شهور فقط، قد انتشلك من حافة القبر».

«لا يهم!» صحت فيهم. «لم يكن فيّ شيء، كل ما في الأمر أنني أردت أن أُدلل ويهتم بي أحد، وقد حصل هذا بالفعل وأحببته واستمتعت به، ولكن هذا يجب أن يتوقف الآن». نهضت وسرت نحو الطاولة لأواجه فون جيرارد الجالس مستغرقاً في كرسيه الكبير. «يبدو أنك لا تدرك أني لا أملك الحرية لأخرج وأتسلى كما يحلو لي، وأعمل وأضحك وألعب وأعيش كباقي النساء. هناك راتب علي أن أتقاضاه، وهناك... بيتر أورم. أتظن أني قادرة على البقاء هنا في هذه الحال؟ وأنا أعرف أن ماكس ليس رجلاً فقيراً، ولكنه أيضاً ليس رجلاً غنياً، وهناك أولاد عليهم أن يتعلّموا ويذهبوا إلى المدارس. بالإضافة إلى ذلك، فإن ماكس قد تزوج

نورا، ولم يتزوج كل قبيلة أوهارا. أريد أن أعود للعمل، فأنا لست امرأة حرة، ولكن عندما أعمل، أنسى، وأحس بشيء يشبه السعادة. وكما قلت لك، فإنني قد تحسنت وسأتحسّن أكثر! وصحتي جيدة الآن!»

وبعد هذا الخطاب الحماسي، حرقت الوقْعَ الدرامي بإحناء رأسي على الطاولة وترك الدموع تنهمر من عيني، أبكي كما لم أفعل منذ أيام مرضي.

«يبدو أنك قد تحسنت بالفعل». قال ماكس، فقررت أن أضحك منقذةً الموقف كله.

في تلك اللحظة قرر فون جيرارد أن يقدم اقتراحاً جعل العيون كلها تلتفت نحوه بتعجب. اتجه نحونا ووقف يرمقنا من فوق، يداه منبسطتان على طاولة المكتبة الكبيرة، وجسده منحني للأمام كمن يتحيّن إعلاناً مهماً. أتذكر كيف فكرت بهاتين اليدين الرائعتين، كاشفتين بكل دقة عن شخصية الرجل؛ يدا جرّاح بيضاوان واسعتان، وأصابع مربعة الأطراف. كانت يداه مختلفتين عن يدي بيتر أورم الرقيقتين المتوترتين كثيرتي الارتجاف. هاتان اليدان صُنعتا للقيام بعمل يتطلب قوة رقيقة، إن وجد شيء كهذا أصلاً. يدان للتمسّك بهما، لأخذ الشجاعة منهما، يدان تدلان على السلطة والوقار. حدقت فيهما، مفتونة كما حدث معي في السابق، وفكرت أنني في حياتي كلها لم أر يدين بهذه العقلانية.

«لقد شرفتموني بضمي إلى هذه الجلسة العائلية الخاصة»، قال فون جيرارد. «وسأستغل ثقتكم بي لأعطيك نصيحة، وهذا شيء لا أفعله إلا أثناء ممارسة المهنة. لا تعودي إلى نيويورك».

«ولكنني أعرف نيويورك، ونيويورك تعرفني ـ على الأقل الجزء الصحافي منها ـ إلى أي مكان آخر أذهب؟»

«لديك رواية لتنهي كتابتها، ولا يمكن لك أن تنهيها هناك، أليس ذلك صحيحاً؟»

انزعجت من هزّي لكتفي، فقد كان الأمر كله أصعب بكثير مما توقعت. ماذا يريدون لي أن أفعل؟ سألت نفسي بمرارة.

أكمل فون جيرارد كلامه: «لماذا لا تذهبين حيث العمل الصحفي غير المتلف للأعصاب؟ وحيث يمكن لك إيجاد وقت فراغ يكفي لفعل الأشياء الأخرى التي تحبينها، والتي قد تؤتي نتائجها لاحقاً». مدّ ذراعه وأخذ بيده الكبيرة الثابتة يدي. «تعالي إلى البلدة الألمانية السعيدة والنظيفة المسماة ميلواكي. ها، تستطيعين الضحك الآن، ولكن العمل الصحفي هو نفسه في كل أرجاء المعمورة، لأن الرجال والنساء هم نفسهم في كل أرجاء المعمورة. ولكن هناك تستطيعين العيش بهدوء بعيداً عن العمل الشاق، وستملكين وقت فراغ يكفي لتأليف كتابك العزيز، وأنا... أنا سأتواصل مع نوربيرغ من الجريدة هناك، وفي أيام الآحاد، إن كنتِ بمزاج جيد، قد آخذك في رحلة إلى البحيرة في سيارتي الحمراء الصغيرة، ماذا تقولين؟ تلك الرحلات رائعة، أؤكد لك. إذن؟»

«ميلواكي!» زعقنا أنا ونورا وماكس، معاً. «بعد نيويورك، ميلواكي!»

«اضحكوا». قال فون جيرارد، ولم تؤثر فيه ردة فعلنا. «أمهلكم حتى صباح غد لتتوقفوا عن الضحك، وبعد ذلك الوقت لن يظل الأمر مسلياً. لا نكتة تبقى مضحكة إن فكر فيها الشخص لأكثر من اثنتي عشر ساعة».

صوت نورا المغوي، همس قريباً من أذني. «دون يا حبيبتي، فكري كم ستكونين قريبة مني، ومن ماكس، ومن البيت».

«كلكم جننتم! شيء كهذا مستحيل. لن أعود إلى ريف متهلهل بعد كل هذه السنوات، فما أدراكم، بعد سنتين، قد ينتهي بي الحال مدققة لعامود الأمهات في جريدة زراعية تصدر أسبوعياً».

«سيسعد نوربيرغ بعملك معه». قال فون جيرارد. «وسيكون وقت دوامك صباحياً، ولن تعملي في الليل».

«وسترسل لي تقريراً أسبوعياً عن صحة دون، أليس كذلك يا إرنيست؟» تساءلت نورا، وشيء من الترجي في صوتها. «وستعلّمها شرب البيرة وستصبح سمينة لدرجة أن العفريتين لن يميزا خالتهما».

وفي النهاية، تساءلت يائسة: «كم الراتب؟» وما بدا لي في البداية عجيباً ومنبوذاً بدأ يأخذ شكلاً واقعياً.

لاحقاً، تحدث فون جيرارد مع نوربيرغ صاحب جريدة الميلواكي بوست، وتقرر أن أذهب إلى هناك الأسبوع المقبل. كانت مخطوطة الكتاب محفوظة بأمان في أسفل حقيبتي، وقد ملأت نورا المساحة المتبقية بقمصان خفيفة وأكياس ماء ساخن وعلب أدوية، ما جعلني أشعر أنني طالبة في طريقها إلى مدرسة داخلية للبنات، بدل أن أكون صحافية مخضرمة بتاريخ عمل طويل ومستقبل مجهول.

تمنيت لو كنت على وفاق أكثر مع القديسين الإيرلنديين، فكم أنا بحاجتهم الآن.

الفصل السادس

صرت أعيش في أوتيل خاص مقابل ساحة مبنى المحكمة بغرانيقه القرمزية ونافورته الجميلة. الأوتيل ـ وهو في أصله بيت ـ كان مليئاً بميكانيكيين ومهندسين مدنيين ألمان وأساتذة جامعة من الأكاديمية الألمانية. صباح الآحاد نتناول الفطائر مع مربى الكشمش، وينضم الأساتذة إلى الفطور بشحاطتهم المريعة المرفرفة. أنا المخلوق الوحيد في كل هذا المكان الذي لم يأت من ألمانيا، فحتى الكلب دشهند[1]. لا أصدق أنني بين كل يوم وآخر أذهب إلى شارع وسكنسن وأنظر إلى العلم المخطط بنجومه، المرفرف في أعلى المبنى الحكومي، فقط لأؤكد لنفسي أن هذه أميركا. هذا الجو الألماني الذي زُجِجت فيه لا ينقصه إلاّ قيصر ما وقليل من أشجار الزيزفون ليصير مكتملاً.

هذا الأوتيل الخاص الصغير يملكه السيد والسيدة نابف، وبعد أن يراهم الواحد، يفهم مباشرة لماذا المكان غارق لحاجبيه في مناخ ألماني.

لم أكن لأجد هذا المكان بنفسي أبداً، فمن اقترحه علي كان الطبيب فون جيرارد، وهو من رتب الوضع لي لأعيش هنا.

«سوف تجدينه مختلفاً عن أي مكان آخر جربتي العيش فيه». كان قد قال لي محذراً. «ألماني للعظم وجداً، جداً نظيف، وغير مكلف إطلاقاً. وأعتقد أنك ستجدين هناك تجارب مفيدة لك، لا أعرف ما تسمونها ـ شخصيات ملهمة،

(1) نوع من الكلاب الألمانية الأصل

صحيح؟ أي، سيكون هناك الكثير من الشخصيات، والإلهام! ولكنك سترين كل هذا بنفسك».

وقد رأيت بنفسي من اللحظة التي رننت فيها جرس آل نابف. فتح لي السيد نابف الباب، بوجهه البشوش وحبوره، وشواربه القيصرية المتدلية على جانبي فمه. بالكاد قد بدأت أشرح له وضعي قبل أن يقاطعني بتلويحه واسعة من يده وانحناءة ألمانية أنيقة.

«آه، لابد أنك الآنسة التي حدثنا عنها أستاذنا الدكتور. روعة! السيدة أورم، صحيح؟ ولكن بالحق لم أتوقع رؤية آنسة شابة. لقد حجزنا لك غرفة رائعة الجمال! سيسعدني أن أريها لكِ. اتبعيني من فضلك».

«أنت... أنت تتحدث الإنجليزية؟» سألته محرجة، وتخيّلات الليلة الفائتة عن التواصل بلغة الإشارة تعود لتمر في ذهني.

«الإنجليزية؟ طبعاً، هذا أمر مؤكد في ميلواكي، ولكن أغلب الوقت نتحدث الألمانية. مرت عشرون سنة منذ قدومي إلى هذا البلد، ومنذ وصولي لم أخرج من ميلواكي. هذه هي الغرفة يا عزيزتي ـ وهنا معظمنا يتحدث الألمانية».

حاولت ألا أبدو خائفة وأنا أتبعه إلى «الغرفة رائعة الجمال»، ولسعادتي فقد وجدتها عالية السقف، جيدة التهوية، وضخمة فيها خزانة كبيرة تظهر فيها صفوف من العلّاقات، وتتضمن عدداً لا يصدق من الرفوف، وقد ابْتُلِعَت حقيبتي داخلها. في حياتي كلها التي قضيتها متنقلة بين غرف الإيجار في النزول لم أر غرفة أو خزانة كهذه. لا شك أن الخزانة قد صنعت لتحوي جهاز عروس أيام التنانير المنفوشة والقلنسوات المورّدَة. كان يوجد فيها أنواع مختلفة من العلّاقات تناسب كل قطعة ملابس أملكها، فحاولت أن أتوسع في تعليقها. استخدمت علاقتين لتنانيري الداخلية وثلاثة لقمصان النوم، وعندما انتهيت

كان هناك الكثير من العلّاقات الفارغة، أرتال من الرفوف كانت تنتظر صناديق القبعات التي لم أملكها. وِسْعُ الخزانة كان ليسمح لزوجات أبو اللحية الزرقاء[1] بعقد اجتماع عائلي فيها واستضافة جميع زوجات الملك سليمان. أخيراً، قررت يائسة أن أجمع كل ملابسي مع بعضها وأعلقها سوياً على العلّاقات الأقرب لجهة الباب. كم أحببت لو أستطيع أن أُري هذه الخزانة لمجموعة من مالكات النزول في نيويورك!

بعد عراك خاسر مع غابة العلّاقات، ركزت اهتمامي في بقية الغرفة. نزعت شيئاً يشبه المنشفة من عن الطاولة التي تتوسط الغرفة، واستبدلتها بشرشف كان قد جلبه معه بيتر من رحلته إلى الشرق. وضعت آلتي الكاتبة في زاوية قريبة من النافذة، ونقّبت في الحقيبة مخرجةً وسادتين ملونتين وسفرطاساً. وزّعت صوراً لماكس ونورا والعفريتين في أرجاء الغرفة، على شكل مجموعة وأزواج وأفراد. وبعدها بدأت بالقفز على كرسي من الديباج الأصفر المطرز ووجدته مريحاً وبغاية النعومة، ولكن طبعاً، فكرت بالشرفة الكبيرة في بيت نورا، وبشجرة التفاح في حديقتها، وكنفات الجلد المريحة في مكتبتها، والألوان الساحرة لسجاداتها وأثاثها الشرقي ـ»آه! توقفي عن التذمر يا دون!» قلت لنفسي. «لا يمكنك توقع ألوان ساحرة وأنتيكة شرقية وأشجار تفاح في بيت ألماني، فالماء متوفر في الغرفة، ولحياة عملية فهذا أهم من وجود سجادة صلاة وردية». في فترة من حياتي كنت أؤمن أن الكماليات هي ما تجعل الحياة تستحق أن تُعاش. كان ذلك في الأيام البوهيمية القديمة.

«الضروريات!» كنت أضحك. «ومن تهمه الضروريات؟ وماذا يعني لو كانت المغسلة تسرب ماءً؟ الكماليات هي الأساس!»

---

(1) وهو شخصية في إحدى القصص الشعبية الفرنسية وعرف بقتل زوجاته

البوهيمية والكماليات! العديد من سنوات العيش في النزول والبيوت الخاصة قادتني لآمن من طريقة التفكير هذه. بعد بضع دورات تدريبية في الفكر والفطرة السليمة، أنت لن تقف وتعاين صورة للنبي موسى محاطاً بأوراق البردى البنفسجية، أو تتذمر بسبب عدم تناسق لون المكتب مع لون ورق الجدران، ولن تنتقد الورود الزرق وأزهار الزعفران المطبوعة على السجادة. بالطبع لا! بدل ذلك، أنت تتضرب الفراش لتتأكد من سلامة حشوته، وتتلصص داخل خزانة الملابس، وتسأل عن المسافة إلى أقرب حمام، وإذا كان الدفع أسبوعياً أو شهرياً، وإن كان يوجد رضيع في الغرفة المجاورة لغرفتك. لا شيء ينميّ الحس المادي لدى الإنسان أكثر من العيش في غرفة في نزل.

ولكنني وجدت الأمور هنا في نابف مختلفة بعض الشيء، ليس فقط فيما يتعلق بقول فون جيرارد إن المكان «ألماني للعظم وجداً، جداً نظيف»، ولكن أيضاً في أنواع البشر التي تقطن هذا النزل. لم أحلم في حياتي بوجود وجوه كهذه خارج اللوحات الألمانية المحفورة على الخشب التي يراها الشخص في الكتب القديمة ذات الأوراق الصفراء.

لقد ظننت نفسي معتادة على قاعات الطعام الغريبة في البيوت الخاصة والنزول، بعيون نساءها الباردة المنتقدة. لقد تعلمت أن أسير لا مبالية حتى تحت أكثر هذه العيون شكاً ونبذاً ونكداً. لهذا وفي يومي الأول عند نابف نزلت مساءً إلى العشاء، واثقة الخطوة ومدركة أن عروة قميصي نظيفة وأن لا علّة يمكن لهم أن يجدوها في أي جزء من ملبسي وخاصة في العقدة الخلفية لتنورتي.

عندما فتحت باب غرفتي، سمعت صوتاً يدل على أن نزاعاً عنيفاً كان يقع في الأسفل، وانحنيت فوق الدرابزين لأسمع. الأصوات ارتفعت وانخفضت، ضمرت وانفجرت؛ كانت أصواتاً ألمانية، تبدأ بحشرجة في الحنجرة، وتُطلِق نفسها

خارج الفم. كانت أصواتاً لم أسمع لها مثيلاً منذ أُرسِلت لأغطي اجتماعاً لأحزاب اشتراكية في نيويورك. نزلت الدرج على أطراف أصابعي، ولكني تعثرت ووقعت على الأرض طبجاً بدون أن يسمعني أحد. كان الصوت يأتي من قاعة الطعام. حسناً، مهما يكن، هيهات أن أضعف. وعلى كل حال، فلا يمكن لهذا التجربة أن تكون أسوأ من تجربتي في تغطية إضراب سائقي الشاحنات.

مددت عنقي لأسترق نظرات إلى داخل القاعة.

عاصفة النقاش مازالت محتدمة كالسابق، ولكني لم أر أي إهراق للدماء. لا شيء سوى رجال ونساء جالسون على طاولات صغيرة، يأكلون ويتحدثون. وعندما أقول يأكلون ويتحدثون، فأنا لا أعني أن هذين الفعلين يحدثان بشكل منفصل. على الإطلاق. الأكل والكلام كانا يجريان في الوقت نفسه، لا يقاطع أي منهما الآخر. التقت شوكة مليئة بالطعام مع فم مليء بعشرات الأحرف الألمانية، تصارعا، ومرت الحادثة بدون إصابات. وقفت عند عتبة الباب، مشدوهة، حتى لاحظ وجودي السيد نابف وأخذ خطوة رشيقة باتجاهي، لفّ طرفي شاربه لينتصبا، ولوّح مشيراً لي بأن أجلس على الطاولة وسط الغرفة.

ومن ثم وقع شيء مريع، وعندما أفكر فيه يقشعر بدني. لم تكن النظرات والرمقات النابذة موجهة لي من النساء، بل من الرجال، وقد توقفت كل النقاشات! هدير الألفاظ وصعقاتها سكن فجأة، وكان الصمت مريعاً. رفعت رأسي برعب لأجد ما بدا لي وكأنه ملايين العيون الزرق تحدق بي. لشدة سُمك السكون كان يمكنك قطعه بسكين. وأي رجال! لقّبتهم مباشرة بـ(المحليين)، وصلّيت لأجل أن تسعفني اللغة وأجد كلمات مناسبة لأصف بها جبين كل واحد فيهم.

بدا لي أن هؤلاء المحليين كانوا محظيين هنا، فقد جلسوا كلهم على طاولة طويلة وفوضوية في صدر الغرفة، أما البقية، وأنا منهم، فكنا نجلس على طاولات

صغيرة موزعة في القاعة. لاحقاً علمت بأن معظمهم كانوا مهندسين، وأثناء تناول الوجبات يناقشون أمور الهندسة بلغة ألمانية مدهشة، وبعد العشاء يدخنون من غلايين ألمانية عجيبة التصاميم، بالإضافة للسجائر العادية. لكل منهم جبين بالغ البروز معقود وكثير التجاعيد، مؤخرات شعرهم منفوشة ومقدمتها مردودة للوراء، وأكثرهم فحولة هم من يمتلكون لحىً شعواء ويرتدون نظارات سميكة وربطات عنق وسراويل حتى لِو فيلدز[1] نفسه لم يحلم بها. كلهم خريجو جامعات أجنبية ذات أسماء فخمة، وكلهم متعلمون ومثقفون رائعون، ولكن لم أرَ في حياتي أشخاصاً بسوء سلوكهم.

بعد السكون الذي تبع دخولي، تقدمت نحوي خادمة حمراء الوجنتين وسألتني عما أود تناوله على العشاء. العشاء؟ أليس من المفترض أنهم قدموا العشاء مساءً؟ لكز المحليون بعضهم وقهقهوا كصبيان مدارس قليلي الذوق. نظرت إليّ الخادمة صاحبة الخدود الحمراء بشفقة. هم يقدمون العشاء في منتصف اليوم، طبعاً. على العشاء هناك لحم عجل مقلي، وشرائح لحمة، وسلطة بطاطا وكعك وقهوة.

قُطِعَت أنفاس النزلاء انتظاراً لإجابتي، أما أنا فكنت أعارك رغبة مغرية بأن أزعق وأركض هاربة، ولكن بدل ذلك استطعت في النهاية أن أتمتم لها بطلبي. التفت المحليّون إلى بعضهم البعض وعلى وجوههم علامات تساؤل، وأخذوا يتساءلون فيما بينهم بالألمانية:

«ماذا قالت؟»

ومن ثم أخذوا يتناقشون في شعري وأسناني وعيني ولون بشرتي، وكله

(1) ممثل وكوميدي أميركي اعتاد في أدواره العنصرية تقليد المهاجرين الجدد في أميركا عبر استنساخ لكناتهم وأزيائهم

بألمانية محشوة بالصفات كما كان خبز الجاودار محشواً بحبوب الكمون التي اختنقت بها. كل من على الطاولة راقبني بعيون واسعة وبدون أي خجل وأنا آكل، وقد تبدلت حلة وجهي من احمرار بسبب الخجل إلى بنفسجي بسبب الضحك، فقد تيقنت أن وجودي كان محور نكتة ألمانية ثقيلة مرتبطة بأصغر المحليين سناً. كان محلياً بديناً وزفراً بخدود حمراء كدمى الخزف، وتصفيفة شعر كبقية رفاقه، وعيون خنزيرية صغيرة. المحليون الآخرون ضربوه على كتفه وكلموه بجمل ألمانية طويلة:

«Ai Fritz! Jetzt brauchst du nicht zu weinen! Deine Lena war aber nicht so huebsch، eh?»

لاحقاً عرفت أن فريتز ـ اسم واحد من الشباب المحليين ـ كان من آخر القادمين إلى هنا، ومنذ مجيئه إلى هذا المكان أصبح مكسور المعنويات بسبب امرأة كتانية الشعر اسمها لينا هجرها وتركها وحيدة في وطنه.

فحص شامل لقاعة الطعام ونزلائها الآخرين ساعد ذهني في البقاء بعيداً عن التفكير أو إعارة الانتباه للطاولة الكريهة في صدر القاعة. كانت قاعة الطعام عبارة عن غرفتين مفتوحتين على بعضهما. نظيفة ولا سجاد على أرضيتها. كان هناك منبر صغير في أحد أطراف الغرفة عليه أصص مليئة بنباتات قوية مزدهرة، أما الحائط فقد كان مزيناً بصور شديدة الألمانية لفتيات ألمانيات مكتنزات وعاريات الأذرع يتغازلن مع ضباط ألمان مشَوْرَبين ووسيمين. كان كل هذا مكشوفاً وغريباً وأجنبياً لعيني، ورغم هذا فقد كان فيه شيئاً حلواً ومريحاً، وشعرت أنه سيعجبني، حتى مع المحليين ومع كل شيء آخر. الرجال هنا يشربون البيرة مع عشاءهم، ويقرأون صحف ستاتس زيتونج والجرمانيا، وجرائد أجنبية أخرى لم أسمع بها في حياتي. وجود أشياء كهذه غريب في الولايات المتحدة، ولكنه سيكون جيداً لتحسين لغتي الألمانية.

بعد رسالتي الأولى إلى البيت كتبت نورا رداً محموماً تطالبني فيه بأن أخبرها إن كنت المرأة الوحيدة في النزل. هدأت من روعها بالقول إن الرجال هنا مثيرون للاهتمام وقبيحون قباحة فاتنة مثل البلدوغ، أما النساء فهن ذوات مظاهر مسحوقة ومملة وكن يرتدين قبعات بشعة. لقد كتبت معلقات لنورا وماكس عن هذا النزل، من المحليين إلى مينّا التي ترتب غرفتي وتجلب لي وجبات الطعام وتبدي إعجابها بملابسي. مينّا واحدة من أقرباء السيدة نابف، والتي لم أرها أبداً حتى الآن. ومينّا هذه لديها حب عجيب للفساتين، وتعليقاتها على ملابسي قد تكون أحياناً مشوشة قليلاً، وبالأخص حين تتبّل حديثها عن أطباق اليوم بصفات لتبيان إعجاب موجّه لبلوزتي أو قبعتي، هكذا:

«اليوم لدينا لحم مشوي، وأضلاع مع مخلل الملفوف، والدجاج ـ آه يا للجمال سيدة أورم! جداً رائع!» تقول هذا وعيناها ويداها مرفوعتان للسماء.

«ما الرائع؟» أسألها حائرة. «الدجاج؟»

«لا، خصركِ. صنع منزلي؟»

وحتى أني ازددت صلابة وبدأت أعتاد طباع المحليين. لقد كنت أتوتر للغاية عندما ألتقي واحداً منهم في البهو أو إحدى الغرف الأخرى، فهم دائماً يتوقفون بشكل فجائي، يضمون أرجلهم كالعسكر، يحنون جذوعهم ويقولون بصوت هادر: «مساء الخير يا سيدتي!»

لقد تعلمت أن أقبل هذه التحية بهدوء، وحتى أكثر المحليين شراسة وأسمكهم نظارات وأبرزهم جبيناً لا يمكنه أن يفاجئني. بشكل سلس وعفوي أرد: «مساء الخير» وأتمنى لو تراني نورا في موقف كهذا.

عندما أخبرت إرنيست فون جيرارد عنهم، ضحك قليلاً وهز كتفيه وقال:

«لا، فالموضوع هو أنك لا يجب أن تبدي بهذا الشباب، وبهذا الجمال، وبهذه

العزوبية. في ألمانيا، المرأة المتزوجة تمشّط شعرها للخلف وتصففه في عقدة ماكنة، وهي لا تعرف شيئاً عن العروات العجيبة وطبقات القماش الطريفة على القمصان هذه، ماذا تسمونها أنتم، كشاكش؟»

لم يتصرف فون جيرارد بلطف على الإطلاق. لم أره إلا بعد أسبوعين من وصولي إلى ميلواكي، ولكنه اتصل مرتين ليسأل إن كان بإمكانه فعل أي شيء لزيادة راحتي.

«نعم». لقد أجبته آخر مرة سمعت صوته على الهاتف. «ستريحني رؤيتك أكثر مما تتخيل. أنت أقرب شيء لنورا في كل هذه البلدة الألمانية، والله يعرف بُعدك عن أي شيء إيرلندي».

وفعلاً جاء. اتجه الجو فجأة نحو البرودة، وكان هو يرتدي معطفاً مبطناً بالفرو مع قبة من الفرو أيضاً. كان غاية في الوسامة والشقار وبصحة جيدة، وقبضة يده على يدي مازالت بقوتها وثباتها اللذين عهدتهما.

«لا فكرة لديكَ كما أنا ممتنة لرؤيتك». قلت له. «كان عليك أن تكون هنا منذ أيام. أليس هذا تصرفاً سيئاً ولا مبالياً من قبلك، وخصوصاً أنك أنت المسؤول عن إحضاري إلى هنا؟»

«لم أعرف إن كنت أنتِ، كامرأة متزوجة، قد تريدين وجودي هنا». قال بطريقته الهادئة. «في مكان كهذا، الناس ليسوا دائماً باللطف الذي يسمح لهم بأن يفهموا، وأنا لا أقبل أن ينظروا إليك بشكل غير حسن ـ»

«متزوجة!» قاطعته ضاحكة، واستحكمت بي حقارة. «أنا لست متزوجة، وأي استسخاف قولك هذا إنني متزوجة فقط لأني يجب أن أكتب (مدام) قبل اسمي! أنا لست متزوجة وسأتكلم مع من أريد».

ثم، فعل فون جيرارد شيئاً مفاجئاً. أخذ خطوتين كبيرتين باتجاه مقعدي وقبض على يدي وأجبرني على الوقوف. حدقت فيه كمخلوق أبله، وقد مسحتْ وجهه حمرة خفيفة، ولمعتْ عيناه بزراق مضيء مدهش. كانت يداي حبيستي قبضته، ولكن صوته كان هادئاً ومتماسكاً.

«أنت متزوجة». قال. «وإياك أن تنسي هذا ولو للحظة. أنت مربوطة ومقيدة، ولست متاحة لأي رجل. أنت متزوجة حتى ولو كان ذاك المخلوق المسكين في مصحة المجانين هو من يعمل هنا لأجلك، بدل الحال المعاكس الآن».

«ما قصدك بهذا؟» صحت فيه وحررت نفسي بحنق من قبضته. «أي حق لك لتتكلم معي بهذه الطريقة؟ أنت تعرف ما كانت عليه حياتي، وكيف كنت أحاول الابتسام بشفتي والبقاء شابة في قلبي! لقد ظننت أنك تعرف هذا وتفهمه، نورا أيضاً، وماكس ـ»

«أنا أعرف هذا. أعرفه جيداً وأفهمه، ولهذا بالذات لا يمكن لي أن أسمح لك أن تتكلمي كما فعلت قبل قليل. وقد قلتُ ما قلته ليس لأجلك ولكن لأجلي، فاعرفي أنني أنا أيضاً يجب أن أتذكر أنك تضعين (مدام) قبل اسمك، وأحياناً، يصعبُ عليّ تذكر هذا».

«أوه». قلت كالبلهاء، ووقفت أحدق فيه بينما جمع أغراضه بكل هدوء، قبعته وقفازاته، وخرج من النزل وتركني واقفة هناك.

الفصل السابع

لم أكتب لنورا عن فون جيرارد، فقد أقنعت نفسي أن لا شيء هناك لأكتبه، وبهذا كنت أول من كسر الوعد الذي قطعناه لبعضنا.

«ستكتبين لي عن كل شيء يا دون حبيبتي أليس كذلك؟» توسلت نورا لي والدموع تملأ عينيها الجميلتين. «اوعديني أنك ستكتبين. أنا وأنت صرنا أقرب إلى بعضنا في هذه الشهور القليلة كما لم نكن منذ كنا بنات صغيرات، وقد أحببت هذا القرب كثيراً. أرجوك، لا تفعلي كما كنت تفعلين في تلك السنوات في نيويورك، عندما كنت تحاربين مشاكلك وحدك ونحن هنا لا نعرف شيئاً عنها. كنت تكتبين فقط الأشياء السعيدة. عديني أنك ستكتبين عن الأشياء غير السعيدة أيضاً ـ طبعاً فليحمك القديسون من أن يصيبك سوء لتكتبي عنه! ويا دون، إياك أن تنسي ملابسك الداخلية السميكة للشتاء، فوجود البحيرة هناك يزيد البرودة! طبعاً لا يمكن أن أدع فون جيرارد يقول لك هذه الأشياء، وهو قد وعد أن يكون رقيباً على صحتك».

وهكذا نفّذت وعدي، حاشيةً رسائلي بتوصيفات وتفاصيل عن نزل نابف، ومؤكدة لها أني كسبت وزناً لدرجة أن التنانير التي كانت تدندل برخاوة من على خصري صارت بالكاد تُزرّر، وأن القمصان المهلهلة أصبحت الآن تمسك جذعي بحفاوة. قلت لها إن خدودي بدت وكأني أقضي نهاري بالسمكرة، وأن نفَسي صار ينقطع بسهولة عندما أمشي، وكان رد نورا سريعاً وقاطعاً:

«يا بنت ارحمي نفسك! إذا لم تحذري ستصيرين سمينة!»

وعلى هذا أجبت: «لا يهمني إن صرت سمينة. أفضّل أن أكون ممتلئة وبصحة جيدة على أن أكون هزيلة ومريضة، فقد جربت الحالتين».

من الصعب على الشخص ألا تسمن خدوده عندما تسمح له الجريدة التي يعمل بها أن يقوم عن مكتبه ويذهب مرتاحاً إلى بيته لتناول العشاء لخمس أيام في الأسبوع على الأقل. الكل هنا في هذه البلدة الجميلة المريحة ممتلئو الأجسام، والكل يغلقون محالهم أو مكاتبهم في الظهيرة ليثقلوا في أكل اللحم والشوربة والخضار والحلوى، ليُغسل في النهاية كل شيء بشرب كأس من البيرة، ويتبع هذا قيلولة على كنبة غرفة السفرة، حيث صحيفة زيتونج الألمانية مبسوطة بكل أريحية فوق الرأس للحماية من الذباب.

هناك شيء فاتن في هذه المدينة الصغيرة الحلوة. شيء طريف وأجنبي، وكأن جزءاً من العالم القديم قد سُكِبَ بأكمله في حضن وسكنسن. ليس من الغرابة مطلقاً أن تسمع الكل هنا يتحدثون بالألمانية ـ في الشوارع، والمحال، والمسارح، والعربات. صادفت يوماً يافطة فوق مدخل مخبز ألماني صغير في الجانب الشمالي من البلدة. كان الكرواسون وكعك القهوة معروضان على الواجهة، وجمع صغير من الأولاد كتانيّ الشعر مدبّقي الأيدي في داخل المخبز. توقفت أمامه بفم مفتوح لأحدق باليافطة القديمة المعلقة فوق الباب، وقد كان مكتوب عليها:

«Hier wird Englisch gesprochen».

رمشت عدة مرات وقرأتها مجدداً. أغمضت عيني وفتحتهما فجأة. الحروف الألمانية الضخمة رددت الرسالة المكتوبة بهم كما قيل.

«نتكلم الإنجليزية هنا».

لحظة وصولي إلى المكتب قلت لنوربيرغ، رئيس قسم الشؤون المحلية، عن اكتشافي هذا، ولكن لم يبد عليه أي تأثّر. في الحقيقة، فالتأثر لا يبدو على نوربيرغ مطلقاً. لم ألتقي في عمري كله رئيس شؤون محلية أكثر مسرحية منه. عيناه حادتان ولا يعرف التعب، ورشاقة حركاته لا تتناسب مع وزنه. يقول «خرا!» عندما تخرب الأشياء أو تفشل قصة ما، يدخن عدداً لا يحصى من السجائر، متنشقاً الدخان ونافخاً سحابة رمادية نحيلة ترافقها أصوات طقطقة بين لسانه وشفتيه. يرتدي قمصاناً زرقاً من دون ياقة، وسراويله ممسوكة على خصره فقط من خلال معجزة وحزام قليل الفعالية.

عندما رفض أن يرى القصة في يافطة المخبز الألماني الصغير، أخذت أجادله:

«ولكن يا رجل، هذه أميركا! وأنا أعتقد أنني أستطيع انتقاء قصة حين أراها أمامي هكذا. تخيل أنك تتمشى في ألمانيا، وأنك هكذا مررت من أمام يافطة محل مكتوب عليها (نتحدث السويدية هنا)، ألن تظن أنك تحلم؟»

هز نوربيرغ يده بقلة صبر. «هذه ليست أميركا، هذه ميلواكي. عندما تعيشين هنا لسنة أو أكثر، ستفهمين ما أعنيه. إن نشرنا قصة عن تلك اليافطة في عامودين، الناس هنا في ميلواكي لن يفهموا النكتة».

ولكن لم يكن من الضروري أن أعيش في ميلواكي لسنة أو أكثر لأفهم خصائصها، فقد كان لدي مرشد خاص ودليل كفؤ في الصديق الجديد الذي دخل حياتي منذ اليوم الأول لعملي في الجريدة. لا توجد امرأة أبداً كان لها صديق أقوى من «بلاكي» جريفيث الصغير، محرر قسم الرياضة في الميلواكي بوست. أصبحنا أنا وهو أصدقاء ليس خطوة بخطوة، بل بقفزة واحدة عظيمة من النوع الذي يحطم الجدار بين الزمالة والإعجاب المتبادل.

لن أنسى أبداً أول نظرة ألقيتها عليه. كان قد تمشى إلى غرفة الشؤون

المحلية قادماً من مقرّه الصغير في الجهة الأخرى من البهو، مرتدياً معطفاً مهترئاً وبشعاً فوق ملابس أنيقة، ويدخن من غليون مفرط الصغر على شكل سيّارة قزمة. عايناني لعدة لحظات من عتبة الباب، وهو أشبه بمخلوق قزمي فانتازي. اعتقدت أنني لم أرَ في حياتي وجهاً بهذه الغرابة والقباحة كوجه هذا الويلزي الأسمر الصغير، بقدّه المهلهل وشعره الأسود وعينيه السوداوين الغارقتين في محجريهما. فجأة هرول نحوي بخطوتين سريعتين. من مكانه في المدخل بدا بعمر الأربعين، والآن أضاءت ابتسامةٌ ظلمةَ وجهه، وبشكل عجائبي بدا وكأنه في العشرين.

«أأنت الواردة من نيويورك؟» سأل وعيناه السوداوان تتفحصان وجهي.

«أنا ما بقي منها». أجبته بخجل.

«فهمت أنك هنا لبعض الإصلاحات. لابد أنك واجهت شيئاً على الطريق، فهم يقولون إن الطريق في ني ـ يورك كله عثرات».

«عثرات!» ضحكت. «الطريق مرتفَعٌ لا ينتهي، ورغم هذا عليك أن تسير بأقصى سرعة لديك لتصل إلى أي مكان، ولكن أنا الآن أركض براحة أكبر، شكراً لك».

لوّح بيده مبعداً عن وجهه سحابة من دخان الغليون، وزمّ عينيه تفادياً للدخان. «نحن هنا لا نسرع كثيراً، ولا مرتفعات لتسلقها. ولكن سأقول لك، إن قادك الطريق إلى مكان سيء، أطلقي زمّور الإنذار وسآتي إليك. أنا كراج بشري لديه خبرة في ترميم المسامير التي تحتاج تزييتاً. وأقول لك، لا تسمحي لنوربيرغ بالتنمّر عليك. اسمي بلاكي، وأعرف أنك ستعجبينني. تعالي إلى مقرّي الصغير بين حين وآخر، سأريك ألبوم الصور والمذكرات خاصتي وسأدعك تلعبين بمسدس المكتب».

وبالكاد قضيت شهراً في ميلواكي قبل أن أصبح أنا وبلاكي أصدقاءً. نورا كانت

مرتاعة، فرسائلي أصبحت محشوة بكلام عنه. قلت لها إنه بإمكانها تكوين صورة ذهنية متكاملة عنه إن عرفت أنه يرتدي قمصان زهرية فاقعة، وربطات عنق بنفسجية، وصدريات سوداء وبيضاء جعلت منه مصدر حسد لصبيان المكتب، وتحت كل هذا، كان يمتلك أكثر القلوب رقة وعطفاً، ولهذا الواحد يحبه. شيء ما كالتعويذة يدور حول هذا الويلزي النحيل الأسمر. هو الرأس العبقري في المكان. صبيان المكتب يحبونه، نوربيرغ يستشيره عندما يريد شراء سيارة جديدة، رئيس التحرير يرتب موعد استراحة الغداء لتناسب وقت بلاكي، وليذهبا سوياً إلى نادي الصحافة، ذراعاً بذراع. بلاكي هو من يعير أذناً متعاطفة لأزمات محرر الشؤون الاجتماعية، هو من يوظف ويطرد صبيان المكتب، وبكل جرأة ينتقد مكياج مدققة الأخبار. هو من يستقبل وفوداً من الرياضيين ذوي البشرة السمراء والوجوه الحمر، الحائزين على جوائز وميداليات. هو من يشرح بكل لطف للمصور لماذا يبدو الشخص في الصورة وكأنه مصاب بالحصبة الألمانية. هو يحكّم في أي نزاع قد يحصل بين الجريدة ومسؤولي البلدة كالمحافظ أو رئيس الشرطة. هو من يُبعَث إلى مباريات الملاكمة، ويركب سيارة مفتوحة السقف صغيرة، ويحرر أفضل صفحة رياضية في المدينة كلها. وفي الساعة الرابعة عصراً، يجب أن يبعث بأحدهم ليجلب له كعكة شوكولا محشوة بالزبدة من الجمعية النسائية. بلاكي لم يدخل مدرسة أبداً، ولا يميز بَرِح عن ما فتئ، ولكنه يستطيع «رؤية» قصة أسرع من الآخرين، وله بعد نظر وصفاء ذهن أكثر من أي صحفي أعرفه ـ باستثناء بيتر أورم.

هناك أسطورة هنا في المكتب عن اليوم الذي أمر فيه رئيس التحرير ـ وهو اسكوتلندي معصوم عن الفكاهة ـ أنه، ومن اليوم فصاعداً، سيُنادى بلاكي بكنيته جريفيث، كاسم فيه من الوقار ما يسهّل التواصل مع زملائه المراسلين والصبيان الشغّالين في الخدمة وعمال المطبعة وصبيان المكتب وجميع من يعمل في مبنى الجريدة.

اليوم الذي تلى إصدار الأمر، بعث رئيس التحرير إلى صبي منمّش ودفع حزمة من الأوراق في يده. «خذ هذه إلى السيد جريفيث». أمره بدون أن ينظر إليه.

«لمن؟»

«إلى السيد جريفيث». قال رئيس التحرير بنفاد صبر وهو يعبس.

أخذ الصبي ثلاث خطوات مترددة نحو الباب، ثم استدار بوجه حائر إلى رئيس التحرير. «بالحق، ما سمعت بهذا الرجل، لعله جديد هنا. أين أجده؟»

«آخ تباً! خذ هذه الأوراق إلى بلاكي!» هدر رئيس التحرير للصبي المسكين. وبهذا انتهت أيام بلاكي القسرية في عالم الوقار.

كل هذه الأشياء وأكثر كتبتها لنورا المصدومة. أخبرتها أنه يرتدي خواتم ألماس وأوشحة وساعات جيب أكثر من العامل المسؤول في محطات القطار، وأن صدريته السوداء والبيضاء تثور على السماوات.

وعلى هذا استلمت رسالة، حيث وجدتُ بين كل كلمة وأخرى كلمة بخط أسمك مرسوم تحتها ثلاثة خطوط للإشارة لأهمية معناها، وانتهت الرسالة بالسؤال عن نوع الأخلاق التي قد يمتلكها رجل كهذا. ومن ثم فقد حاولتُ أنا أن أجعل بلاكي حقيقياً لنورا التي، وعلى طول حياتها المحافظة المحمية، لم تصادق يوماً رجلاً من هذا النوع.

«... وفيما يخص أخلاقه ـ أو ما قد تعتبرين أنها أخلاق ـ أعتقد أنها قليلة ولا تتوافق مع مقاييسنا للأخلاق، ولكن أقسم لك أن لا خصال فاسدة فيه. لم أسمع شيئاً مثيراً للشفقة بقدر قصته عن ماضيه، فقد كان بلاكي يبيع الجرائد في زاوية في وسط المدينة عندما كان طفلاً بعمر الست سنوات، ومن ثم حصل على عمل هنا كصبي مكتب، وكان يبري الأقلام، ويُرسَل في مهمات صغيرة، ويحمل الأوراق للطباعة. وبعد عمل المكتب كان يذهب ليعتني ببعض الخيول

في حظيرة قريبة من هنا، وبعد أن ينهي عمله في الحظيرة كان يشتغل في مطبعة إحدى الجرائد الألمانية القديمة. كان لا يقوى لشدة تعبه أحياناً على الزحف إلى بيته بعد العمل لمعظم الليل، ولهذا كان يغفو، صغيراً ومرهقاً، على تلة من الجرائد القديمة والأكياس في زاوية دافئة قريبة من آلات الطباعة. هو كان المعيل الوحيد لبيت كامل، وبالنسبة له، كل سِنْتٍ كان له معنى، وأثناء كل هذا العمل كان يراقب ويتعلم، ولا شيء خَفي على تلك العينين السوداوين. اعتاد أن يساعد المصور عندما تكون هناك كمية كبيرة من الصور بحاجة إلى تحميض، والآن هو يعرف عن التصوير أكثر من المصور نفسه، ولهذا وضعوه في قسم التصوير. وبشكل عجيب آخر، كان أكثرهم معرفة بلاعبي الكرة والمصارعين وأبطال الفروسية، حتى أكثر من رئيس قسم الرياضة نفسه. كان له أنف يشتم الأخبار بطريقة مذهلة، ولم يخرج من المكتب يوماً إلا وعاد بقصة ما. اعتادوا أن يعتمدوا عليه في قسم الرياضة عندما يكونون على عجلة، وبعدها صار جزءاً من فريق القسم، ومن ثم مساعد محرر الشؤون الرياضية، وفي النهاية صار رئيس تحرير القسم. هو يعرف هذه الجريدة من القبو إلى أعلى طابق، وهو قادر على تشغيل منضدة سطرية أو رئاسة التحرير بالسهولة والسوية نفسها.

«الحقيقة أني أظن أن بلاكي لم يملك الوقت الكثير للأخلاق، ولكن نورا يا عزيزتي، أتمنى لو تستطيعين سماعه وهو يتكلم عن أمه. هو قد يتبع طرقاً مشكوكة، وقد يتعامل مع أناس مشبوهين، ويرتدي ملابس عجيبة، ولكن يستحيل أن أبادل صداقته بصداقة أي من مئات الرجال «الجيدين» العاديين الذين تعرفينهم. كل سنوات العمل والعذاب قد جعلت من بلاكي الصغير رجلاً عجوزاً، رغم صغر سنّه، ولكن هذا لم يفسد قلبه بأي شكل. هو يستطيع التفريق بين الزيف والحقيقة لأنه أُرْغِم على ذلك منذ كان طفلاً يبيع الجرائد في الشوارع. بالإضافة إلى هذا، فهو مازال متعلقاً بالجريدة التي وجد فيها بداياته، رغم أنه

يكسب مالاً في أسبوع واحد خارج الجريدة أكثر من راتب نصف سنة هنا. يقول إنّ هذا عمل جانبي لا يفسد أو يؤثر على عمله في الجريدة».

هكذا هو بلاكي، لا شك أغرب صديق عرفته امرأة. يملك عبقرية بما يتعلق بالصداقة، وفهم عميق للعذاب مولود من كل سنوات القسوة والفاقة التي عاشها. كلٌّ منّا تعلم قصة الآخر شيئاً فشيئاً في سلسلة من الأحاديث المتبادلة أثناء فترة السلم الجميلة التي تحط مباشرة بعد طباعة كل المقالات وتجميع العدد للنشر. مكتب بلاكي الصغير الأشبه بعليّة كان دائماً أزرق من الدخان، وغارق في فوضى من آلاف الأشياء ـ صور، وتذكارات، وقفازات ملاكمة، وبقايا تبغ غليون متناثرة، وعلّاقة ملابس مغطاة بمعاطف مغبّرة وقبعات مهملة، وبلاكي في وسط كل هذا، غارق في أعماق كرسيّه الدوّار، شكله كقزم أسمر ودود، أو كإله معبد صيني مرح قفز إلى الحياة، فيه من الحكمة والفطنة قدرٌ لا تعلّمه إلا حياة الشوارع. هو واحد من أولئك الصحفيين بالفطرة، الذين لا يستطيعون العيش بعيداً عن شريط التليغراف وعواميد الجرائد والمقالات الصحافية.

«وكما ترين يا فتاة، فهذا هو حال المكان». شرح لي بلاكي يوماً. «كلنا يعمل لسبب ما. البعض منا يعمل لعظمة العمل الصحفي، وأغلبنا يشتغل ليأكل، والكثير منا يكسب المال أملاً بيوم نُعيد فيه ما ندين به لأناس نعرفهم. ولكن هناك البعض منا من يعمل للحب الخالص للعمل، وأعتقد أنني واحد من هؤلاء الحمقى. كما ترين، دخلت في هذا اللعبة عندما كنت صوصاً صغيراً، والآن صارت بالنسبة لي عادة داخلية. من المريح معرفة أن لديك مكاناً لتحتمي فيه من المطر، وعنواناً لتصل إليه رسائلك».

«عمل الصحافة هذا لعنة». علّقت أنا. «اعطيني صحافياً ذكياً واحداً وسأعطيك فاشلاً. لا شيء في هذا العمل إلا العظمة، والقليل منها حتى. نحن نشقى ونتزلف ونخطط طيلة اليوم لأجل قصة، ومن ثم نكتبها محمومين، باحثين في أرواحنا

عن كلمات قوية وخصبة، وبعدها نقدم المقال، ومن ثم ماذا؟ أي دليل لدينا على عمل اليوم، أي أثر؟ كل ما يبقى شيء أثيري، فاقد لنفَس الحياة الأول؛ شيء ميت قبل أن يولد. أي مراسل هاو، لو كان ليبذل نفس كمية الإتقان والعناد والمرونة وتناحة الرأس في أي مهنة أخرى مثل ما يبذل في استخلاص قصة واحدة من ضحية مترددة عنيدة، كان ليستطيع التقاعد محاطاً بثروة».

نظف بلاكي رأس غليونه استعداداً لإعادة تعبئته، وكان هناك ضوء حيرة في عينيه السوداوين. تلة أعواد الثقاب المحترقة بجانب كوعه كانت في ازدياد، وقد وصلت لحجم حزمة خشب صغيرة يمكن إشعالها. الكل يعرف أن عادة بلاكي بإشعال غليونه أو سيجارته ومن ثم نسيان تدخينها جعلت فاتورة أعواد الثقاب تتجاور فاتورة التبغ.

صدرت عن بلاكي قهقهة خفيفة. «وأنت تتكلمين كأنك تعنين كل ما تقولين. ولكن سأقول لك يا فتاة، هذا التقاعد مع الثروة لعبة موحشة. لاحظت أنا أن هؤلاء الذين يتقاعدون آخذين معهم براميلاً من المال، في العادة يموتون في بداية السنة بسبب علّة تشبه الحنين إلى الوطن. ترين صورهم في الجرائد مرفقة بقصة مثيرة للشفقة عن كيف كانوا لتوّهم قد بدأوا الاستمتاع بالحياة، ولكن أتى عزرائيل وقطفهم لنفسه».

انزلق بلاكي أكثر في كرسيه ونفخ عاموداً من الدخان نحو السقف. «كنت أعرف رجلاً منذ زمن ـ صحافي أيضاً ـ وقد تقاعد مع ثروة. كان مراسلنا في مبنى البلدية، وبنى علاقات طيبة مع الإدارة الجديدة قبل الانتخابات، وراكم كمية من الأسهم أهديت له من قبل أصدقائه الساسة. أصرّت عليه زوجته لترك عمل الصحافة، ففعل. أقول لك، ذاك الرجل ظل يراكم الثروات حتى صار قادراً على إرضاء زوجته، ولكن سأقول لك يا فتاة، كم كان ذاك الرجل وحيداً! يوماً مرّ إلى هنا وشكله كالكلب الذي سرق لحمة، يموت ليسمع كلمة حنونة. قعد يشتم

رائحة الحبر والمعدن الساخن كأنها ورود يونيو. صار يطوف باحثاً عن مكتبه القديم، وعندما وجده جلس على كرسيه منحنياً للوراء ورجلاه على المكتب وقبعته مرفوعة، وأخذ يدخن سيجارة هزيلة تتدلّى من فمه، وهنا أتى إليه ولد وبيديه بعض الأوراق الساخنة الخارجة لتوها من المطبعة، وأعطاه واحدة. وأقول لك يا فتاة، ذاك الرجل قام يريد أن يرقص، كان بقمة السعادة. يعرف كلانا أن أي صحافي متقاعد يقضي يومه متسكعاً حول مبنى الجريدة، متمنياً أن تعيث عصابة ما خراباً أو تأكل النار مبنى ما ليعود للعمل. أعتقد أني قلت لك عن المرة التي بعثني فيها فون جيرارد للخارج، صح؟»

«فون جيرارد؟» أعدت عليه مدهوشة. «أتعرفه؟»

«هو طبعاً لا يباهي بمعرفتي بالمرة». اعترف بلاكي. «فون جيرارد هذا قال لي إن عندي خمس سنوات لأعيش، أكثر أو أقل. حصل هذا من سنتين أو ثلاث. لم أعجبه ولم يقبل وضعي. فون جيرارد هذا ظل يتدخل في حياتي الشخصية. فضيحة هذا الرجل. في تلك الأيام كنت مقطّعاً وسيء الحال، فذهبت إليه للعلاج، فقعد يلكز جسمي كله، وحمّمني بالأسئلة، ويفحص سقف حلقي ويدقق بأسناني وأظافري كأني حصان سباق للبيع. بعدها يجلس ثابتاً ويحدق فيّ لنصف دقيقة حتى صرت أشعر بالحرج والانزعاج، وبعدها يقول بكل بطء: أيها الشاب، كم عمرك؟

«وأنا أرد بكل عفوية: ثمان وعشرون أو قريب منه.

«يا ربي! يقول هو. حشيت ضعف هذه السنوات في حياتك وعليك أن تتحمل العواقب. والآن اسمعني جيداً. اترك العمل، واترك التدخين، وابتعد عن هذا المكان. اذهب في رحلة بحرية، وحاول أن تحصّل أربع ساعات نوم في الليل على الأقل.

«وأقول لكِ، صار وجه أمي أخضر من الخوف، فأخذت بيدها وصعدنا سفينة لتبحر بنا المحيط. ذهبنا إلى ألمانيا، عارفيْن أننا سنحسّ هناك بالقرب من وطننا هنا، ولم نترك مكاناً في بادِن[1] لم نذهب إليه، وتسلقنا جونغفراو[2]. أقول لك جونغفراو هذا هو جبل صغير مذهل، وأعتقد أن الوالدة استمتعت جداً بوقتها، فهي ما جلست إلا للطعام وكتبت الرسائل على بطاقات الصور كالمجنونة. ولكن أقول لك يا فتاة، كنت وحيداً! لربما بالفعل فادتني تلك الرحلة، فها أنا ما زلت حياً. أمضيت أربع شهور في تلك الرحلة، وهذا ليس بسيء لرجل نمى على حبر المطبعة مذ كان كبيراً بما يكفي ليتأبط حزمة من الجرائد. مرة كنا أنا والوالدة جالسين في واحدة من تلك الكافيهات المُبَلْكنة الموجودة بكثرة في تلك البلاد عندما نكز كتفي أحدهم، وهناك ما رأيت إلا راين الذي كان يعمل مراسلاً في وكالة الأنباء العالمية هناك التابعة لشركة نيويوركية كبيرة.

«هذا أنت يا رجل! يقول لي. يلعن شيطانك! ماذا تفعل هنا خارج مكتبك وقد ظل لميلواكي أربع مباريات لتفوز براية النصر؟

«وأقول لك يا فتاة، عندما انتهيت من عناقه واستضفته للشراب، عرفت أن الوقت قد حان لاستقلال سفينة أخرى. قلت لأمي: إن كان في ذهنك أحد نسيت أن تبعثي له بالرسائل والصور فافعلي ذلك الآن، لأني وإن كان لابد من موتي فسأموت ورمحي بيدي وعلبة اللاصق بيدي الأخرى! وسافرنا عائدين إلى ميلواكي هنا، ومن يومها لم أسافر خارجاً إلا في حال تغطية المباريات، أو لأبعث بتفاصيل إضافية للجريدة. آخر مرة كنت في بومباخ يأتيني فون جيرارد هذا ـ»

قاطعته: «من هذا بومباخ؟»

نظر إليّ بلاكي بشفقة. «ألم تذهبي بعد إلى بومباخ؟ يا فتاة، إن لم تعرفي

(1) بلدة في النمسا مشهورة ببحيرات المياه الحارة

(2) مرتفع في جبال الألب السويسرية

بومباخ فأنت حتى بالكاد تعرفت إلى ميلواكي. واضح الآن سبب تعثّرك في هذا المجتمع الصغير. رئيس التحرير لن يعترف بأي ودٍّ بينك وبين أهل هذا البلد إن لم تشربي القهوة على الأقل عند بومباخ. عدم الذهاب إلى بومباخ وأنت تعيشين في ميلواكي بالكاد عمل شرعي»

«توقف! إن لم تخبرني الآن عن موقع هذا المكان الرائع، وماذا تفعل الواحدة عندما تجده، وكيف غاب عني حتى الآن، وسبب أهميته لفهمٍ أفضل للمدينة»

«سأقول لك ما سأفعله». قال بلاكي وقد انشق وجهه عن ابتسامة واسعة. «سآخذك إلى هناك غداً مساءً، في الرابعة. ويا لطيف! أي وقت عظيم ستقضينه هناك، صحيح؟»

«أنت يا بلاكي عزيز عليّ بلطفك هذا كله مع مخلوقة عجوز متزوجة مثلي. ولكن... هل انتبهت ـأقصد يعني، هل يمر فون جيرارد بكثرة على بومباخ؟»

الفصل الثامن

لقد زرت بومباخ. وأنصتُّ لميلواكي وهي تحتسي قهوتها المسائية.

آه يا بومباخ، أين أجد مثلك في هذا البلد! أين أجد مثل بسكويت الزبدة المتفتت اللذيذ، وكعك القهوة، والكريمة الكثيفة، النادلات المكتنزات، وصراصيرك. أين أجد مثل رطوبتك ونساءك الألمانيات الرثات وقهوتك فاحمة السواد. أين في هذا البلد كله مثلك!

وكما وعدني بلاكي، ففي اليوم التالي أقلّني من أمام مدخل مبنى الجريدة في المساء، وكنت قد نسيت بومباخ ونسيت وعد بلاكي بأخذي إليه أثناء انشغالي بالعمل.

«هيا يا فتاة!» نادى علي. «اعتمري قبعتك فإلى بومباخ نحن ذاهبان، تذكرتي؟»

منزعجة رمقت أساور قميصي المتسخة، وتلمست شعري المتناثر. «يبدو أنني لا أستطيع أن أذهب اليوم. شكلي مريع. لم يكن عندي وقت لأترتب».

«تترتبين!» شخر بلاكي. «الشيء الوحيد الذي يجب أن ترتبيه هو ألمانيّتك. كنت سأنصحك بأن تنعثي شعرك حتى لا تبدي غريبة ومتأنقة أكثر من اللزوم عندما نصل. هيا يا فتاة، لنذهب».

وقد ذهبت، وكم كانت شديدة سعادتي بالذهاب إلى هناك!

لابد أني مررت من أمامه عدة مرات بدون أن ألاحظه. محل أسود معتم صغير معشش بين بنائين طويلين، مستقرٌ تحت ظل مبنى المحافظة. تدلّت فوق الرصيف لافتة مهترئة سوداء كتب عليها بأحرف مذهّبة (فرانز بومباخ).

لوّح بلاكي نحو اللافتة وكأنه يعرّفنا على بعضنا. «هذا هو، لن تري منه أكثر من هذه اللافتة».

«متوفي؟» سألت بأسف ونحن نلج المدخل الضيق.

«لا، في القبو تحتنا يخبز كعك القهوة».

كان في مواجهة الشارع شبّاكان صغيران لعرض الحلوى، غريبان وقديما التصميم في زمن تُفضّل فيه الواجهات الزجاجية. من خلف هذين الشباكين يظهر المحل، وفي واحد منهما وُضِعت كعكة عيد ميلاد عملاقة، بيضاء، ملكيّة، ثقيلة، مليئة بالبندق، وبالتأكيد لا يمكن تحريكها من مكانها أو هضمها. التفتُّ على حوافها أنابيب ولولبيات من الكريمة، وعلى رأسها زُرِعت حبات كرز وفراشات سمينة من الجيلو، وتناثر السكر الملون عليها. لم أرَ في حياتي كعكة بهذه الأناقة. لا يد بشرية فيها من القسوة ما قد يسمح لها بتمرير سكين في كل هذه الأبّهة. في قلب كل هذه الروعة وجدت كتابة بأحرف كريمية سميكة: (عيد ميلاد تشارلوت).

غصباً عني نزعت عيني عن هذا المثال المؤثر من فن الحلوى الألمانية، فقد كان بلاكي يشدّ كمي بنفاد صبر.

«ولكن يا بلاكي»... قلت له وقد أخذتني الروعة. «أتعتقد بجد أن هذه الكعكة صُنعت لعيد ميلاد تشارلوت هذه؟»

«في ميلواكي»، بدأ بلاكي يشرح لي. «إذا كان عندك عيد ميلاد، فلابد أن يكون لديك كعكة عيد ميلاد، واسمك عليها، وكل الأعمام والعمات والأخوال

والخالات وأولادهم وأعضاء النادي النسائي الجنوبي يجب أن يتواجدوا لهذه المناسبة، وعدم فعلك لكل هذا يعتبر من قلة الأدب. والآن، أمستعدة لمحاربة طريقنا إلى الخيمة الرئيسية؟»

كان وقت أعيادٍ، وممر المحل الضيق كان مزدحماً. لم يكن من السهل أن تدفع نفسك بين الناس في هذه المساحة المزدحمة. الرجال والنساء كانوا يصيحون بطلباتهم من الكعك من كل صنف، ومن كل أنواع الحلوى سواء تلك التي على الرفوف أو تلك الموضوعة في عُلَب.

كعك! اسم جامد وناشف كهذا لا يمكن أن ينطبق على هذه الحلويات الألمانية المفتتة الذائبة عسيرة الهضم! ابتسم بلاكي، سعيداً بمراقبتي أنظر مشدوهة إلى كل شيء حولي. كان هناك كعكات لم أرَ مثلها ولم أعرف أسماءها حتى. كان هناك كعك صغير مدور مصنوع من عجينة اللوز ويذوب في الفم؛ كان هناك قواقع مغطاة بسكر أسمر برّاق؛ كان هناك بسماركات[1] مصنوعة من طبقات مطبقة من القشرة الرقيقة المحشوة بالكاسترد السائل الذي يسحر طعمه الجائع من القضمة الأولى، والذي ينزلق على عروة القمصان عندما يلاحقه لسان عنيد. كان هناك بسكويت القرفة وبسكويت البهار مع دبس السكر. كان هناك كعك الجبنة، وكعك الخوخ وكعك الدرّاق، وفطائر التفاح بفاكهتها المحشية تحت القشرة العجينية والمرشوشة بالسكر المطحون. كان هناك الكرواسون وكعك الكريمة والمربى والفواكه، وبسكويت الزبدة.

لمس بلاكي ذراعي، فتوقفت عن التحديق في فطيرة متوّجة بحبات الكرز كانت توضع في علبة للتوصيل.

«أيتها الفتاة الجشعة! استجمعي قواك العقلية، هذه فرصتك. عليك أن تلقي

(1) وهي ككعك الدونت محشوة بمربى أو كريمة، وسميّت على اسم الجنرال الألماني بسمارك

نظرة على هذه الأشياء وتقرري أيها تريدين قبل أن ندخل إلى القاعة ونجلس إلى الطاولة. لا ترددي، عندما تأتي أولغا أو مينّا إليك متبخترة وتسأل: طلبك يا آنسة؟ عليك أن تخبريها إن كان قلبك يود كعكة خوخ أو فطيرة بندق أو الاثنتين معاً، فهمت؟ والآن قرري. أكره أن أراك مضطربة، هل قررت؟»

«وكيف لي أن أقرر!» تذمرت وأنا أشاهد فتاة سوداء الشعر والعينين وراء المنضدة وهي تلف قطعة من الورق الأبيض على شكل قرن ومن ثم تحشوها بكرات من الكريمة المخفوقة التي غرفتها من سطل بني عملاق ممتلئ لحافته بكريمة كالثلج. ملأت الفتاة القرن الورقي وأدخلت رأسه في بوق كرواسون فارغ، ومن ثم عصرته بلطف. يا سلام! كرواسون محشو بالكريمة!

شهقت. «آه يا بلاكي، هيا تعال، أريد أن أدخل وآكل».

لم أعرف ماذا كانت توقعاتي عن المكان ونحن نتدافع بين الناس لنصل إلى الغرفة الخلفية المفصولة عن المحل بقاطع خشبي رقيق، ولكن من المؤكد أن هذا المكان ليس نفسه بومباخ الذي عظّمه بلاكي! هذه الغرفة الطويلة الضيقة، الرطبة والمعتمة، بأرضها العارية وطاولاتها ذات الأرجل الحديدية والأسطح الرخامية المصفرّة بسبب القِدَم وكثرة الاستخدام، صعّبتْ عليّ تصديق ما قاله! لم أقل شيئاً أثناء جلوسنا عند الطاولة التي اخترناها. بلاكي كان يراقبني من طرف عينه، أما عيناي أنا فكانتا تتنقلان في أرجاء الغرفة المملوءة بالدخان، وشيئاً فشيئاً، بدأ يصلني سحر هذا المكان الصغير الرطب ثقيل الرائحة.

في إحدى الزوايا كان يوجد موقد ضخم مشتعل، وقد عُلّق فوق الموقد كابينة اسودّ خشبها مع الزمن، حملت رفوفها جرائد ألمانيَة ونمساوية وهنغارية. على الحائط المقابل نُصِبت مرآة مؤطّرة بخشب الجوز، وفوقها عُلقتْ لوحة ملونة لبسمارك، بخوذته وزيّه العسكري وشواربه الكثّة. الطاولات المخلخلة

ذات الأرجل الحديدية كانت مصفوفة على شكل طابورين منظمين ممتدين على طول الغرفة الضيقة، وثلاث أو أربع فتيات شقراوات مكتنزات كن يجئن ويذهبن بين الطاولات والمحل، يحملن صينيات الكعك والقهوة الساخنة، وكنت أسمع حشرجة وطقطقة اللغة الألمانية وهم يتحدثون بها. بدا أن الجميع هنا على معرفة ببعضهم البعض. على إحدى الطاولات كانت لعبة شطرنج حامية على أشدها، وبين كل حركة يستعيد كل من اللاعبيْن نشاطه بأخذ رشفة طويلة ومتأملة من القهوة. لا شيء في المكان أو زبائنه يذكّر الواحد بأميركا. هذا الكافيه المعتم السابح في الدخان ورائحة الكعك، كان ألمانياً.

«حان الوقت!» قال بلاكي. «هذه روزي قادمة لتأخذ طلبك. تستطيعين اختيار نوع القهوة أو الشوكولا، فهذه أقصى التشكيلات عندهم».

وقفت فتاة شقراء ضخمة أمام طاولتنا، مقدمةً لبلاكي ابتسامة ترحيب واسعة.

«كيف حالك يا روزين؟» سَلم بلاكي عليها، ما زاد من اتساع ابتسامتها لدرجة جعلت من عينيها الزرقاوين مجرد خطين صغيرين. مسحت الطاولة الرخامية بحركة واسعة وهوجاء سببت بتطاير فتات على حضنينا. تمتمتْ بخجل غزليّ ووضعت يدها على وركها المستدير كأنها تنتظر منا شيئاً.

التفت بلاكي نحوي وسألني: «قهوة؟» هززت رأسي بنعم.

«ومع القهوة؟» سألت روزين بالألمانية وقد فهمتْ الفكرة.

«هذه فرصتك لتتحدثي». قال لي بلاكي. «هيا اطلبي كل ما أعجبك من الأشياء المحشية بالكريمة التي رأيتيها في الخارج».

ولكنني انحنيتُ للأمام وخفضت صوتي كأنني أكشف سرّاً. «بلاكي، وقبل أن أغطس بطيش، قل لي، هل الأسعار هنا ـ»

«أقول لك يا فتاة، ولو حاولت لن تزيد فاتورتك هنا عن نصف دولار. أدسم ما لديهم لا يزيد عن عشر سنتات. سيمرّغونك بالكريمة المخفوقة مقابل ربع سنت. تستطيعين المجيء هنا لتأكلي وتأكلي ولتلتهمي تلالاً من الكعك حتى تشعري أنك أصبحت مدورة ككرة من كل جانب. وعندما تنتهين يسلمونك الفاتورة مكتوبٌ عليها: خمس وأربعون سنتاً، ولا تزيد على ذلك، لهذا اغطسي بأعمق ما فيك وافسدي مظهرك».

بحماس التفت إلى روزي الصبورة. «آه، اجلبي لي بعض من تلك الكرات الملعونة المغطاة بالكريمة، عرفتيهم ـ اثنتان يا بلاكي؟ وزوج من تلك التي عليها قشرة رقيقة وفيها كاسترد، وقطعة من تلك الكعكة الطرية المزركشة، وبعض البسكويت الذي على شكل قبعات مائلة ـ»

لكن غطاءً من العجب انسدل على وجه روزي الباسم. كتفاها العريضان ارتفعا لتدل على عدم فهمها، والتفتت بعيونها الزرق الصغيرة إلى بلاكي، وقالت له جملة ألمانية حائرة.

وهكذا بدأتُ من جديد بمساعدة من بلاكي، ودخلنا في أصغر التفاصيل، وقمنا بإماءات دقيقة لتوضيح طلباتنا، ورسمنا ما اشتهاه قلبنا من الحلويات على سطح الطاولة الرخامي مستخدمين لذلك قلم رصاص. ارتسم تعبير الحيرة على وجه روزي، وبيأس كنت قد قررت مرافقتها، ولكن فجأة، وكما يقولون، لمع ضوء فوق رأسها.

«أها! نعم نعم». قالت، وأكملت بالألمانية:

«Sie wollten vielleicht abgeruhrter Gugelhopfhaben، und auch Schaumtorte، und Bismarcks، und Hornchen mit cream gefullt، nichet?»

«طبعاً». تممت رداً عليها، أحس بالعجز بسبب عدم فهمي لشيء مما قالته، أما روزين فقد تبخترت بسعادة عائدة إلى المحل.

بلاكي كان يلفّ سيجَارة، وقام بمسح حافة الورقة بلسانه الأحمر الصغير، ومن ثم رفع عينيه إليّ بمرح. «لا تهتمي لوجودي، فقط استرخي واسمحي لنفسك بتشرّب الجو».

ولكن أنا بالفعل كنت غارقة في تأمل ألماني أحمر الوجه بقصة شعر تقليدية، يشرب القهوة ويقرأ صحيفة الفليجند بلاتر، ويجلس على الطاولة مقابلنا. كان هناك أشخاص شبيهون بالمحليين الساكنين عند نابف ـ مهندسون بنظارات سميكة وجبهات بارزة واسعة، وثمة ممثلون وممثلات من فرقة التمثيل الألمانية، مراسلون من الصحف الإنجليزية والألمانية، رجال أعمال بضمائر ألمانية مرتاحة، موسيقيون بشعور طويلة، محامون شباب أنيقون، مجموعة من طلاب وطالبات الجامعة يتضاحكون فيما بينهم، زوج من النساء الأنيقات يقضمن بسعادة فطيرة بندق، عاشقون بأصوات منخفضة وفناجين قهوة لم تلمس على طاولاتهم، ولا بخار زكي الرائحة يتصاعد منها ليدل على وجود أي دفء فيها. نظراتهم لبعضهم تزداد دفئاً بينما تزداد القهوة المنسية برودةً. يشتدّ احمرار وجنتا الفتاة خجلاً تارة وينخفض تارة أخرى، وأنا أراقبها، بقليل من الحسد، مدهوشة كيف للحب وهو قصة قديمة أن يصبح جديداً هكذا.

جلست مجموعة مكونة من ثمانية رجال على طاولة كبيرة قريبة من المدخل، وقد كانوا غارقين في نقاش سياسي محتدم، مترافقاً مع الكثير من التلويح بالأذرع والألفاظ الألمانية الحلْقيّة. بدا وكأنها طاولة ذات أهمية، فقد كانت المقاعد حولها منجّدة بمخمل أحمر رثّ، وكل زبون جديد يدخل الغرفة يتوقف للحظة هناك ليومئ أو يلقي التحية. ليست فقط شؤون السياسة الأميركية ما كانوا يتكلمون فيه، ولكن أيضاً شؤون السياسة في النمسا وهنغاريا. أخيراً خرج الكل

من النقاش إلا ألماني وسيم محمرّ الوجه، وكل ما ازدادت الحمرة في خديه ازداد التباين بين لون بشرته ولون شعره وشاربيه الأبيضين، ورجل شاب أسمر، جعله شعره الأسود الكثيف ونظاراته السميكة يبدو كأنه كاريكاتور في جريدة ألمانية. كان الرجل ذو الوجه الأحمر يجادل بصوت عال وبحمية، ويؤكد على كلامه من خلال ضرب الطاولة بقبضته، ولكن الرجل الأسمر لم يردّ بكلام كثير، ودائماً ترافقت كلماته مع نصف ابتسامة لعينة على شفتيه، وكلما تكلم تكاثف الحَمَار في وجه الرجل الآخر، وتصاعدت ضحكة صاخبة من الآخرين الجالسين معهم.

ضحك بلاكي. «قولي لي، ألا يستفز هذا حسّك الإنجليزي؟»

استدرت نحوه بهدوء. «يا بلاكي جريفيث، هؤلاء الناس لا يعرفون حتى أن هناك شيء غريب في تصرفاتهم».

«طبعاً لا، وهنا يكمن الجمال. فهم لا يشعرون بحاجة لخلق جو مزيف في هذا المكان؛ الأمر كله ينمو بجنون، كالهندباء. الكل هنا يأتون لتناول قهوتهم لأن أعمامهم وعماتهم وجميع أهلهم كانوا يأتون إلى هنا، ولو كانوا على قيد الحياة لاستمروا في القدوم إلى هنا! وعلى كل حال، أفليس هذا المكان مجرد مخبز ألماني صغير؟»

«ولكن آه يا سيد بومباخ الحكيم وأنت في المطبخ! آه يا سيدة بومباخ وراء المنضدة!» قلت. «آخرون قد يعلّقون مرايا في محلاتهم، وثريات زجاجية جميلة وسجاد شرقي وخشب ثمين، ولكن أنتما تجلسان بكل هدوء، وتبتسمان، ولا تغيّران شيئاً. تتركان الحيطان البنية لرثاثتها، تشاهدان الطاولات ذات الأسطح الرخامية تتلون بالأصفر، تتركان أرض محلكما الخشبية عارية، وتبتسمان، وتبتسمان، وتبتسمان».

«خلص فهمتك!» قال بلاكي، وكافأني بتصفيق فاتر. «وها هي روزي قد جاءت».

روزي ذات الوجه المشعّ وضعت على الطاولة كؤوساً وصحوناً مذهلة السماكة، وقد وضعتهن على السطح الرخامي بخشونةِ من يعلم أن لا رخام أو غرانيت قادر على كسر تماسك هذه الأوعية الخزفية القوية. لا وجود حولنا لأي مناديل، وسوف أتعلم أن الأصابع تُنظّف هنا من أي كريمة أو فتات من خلال عملية جد بسيطة، وهي لعقها.

أفرغ بلاكي إناء الكريمة في قهوته السوداء، وضع فيها السكر، حركها وتذوقها، ومن ثم وبلمعة خبيثة في عينيه السوداوين رفع الفنجان الثقيل إلى شفتيه وأخذ رشفة طويلة مغرغرة.

«بلاكي»، خرج صوتي أشبه بالفحيح. «إن فعلت هذا مرة أخرى فسأرفض الحديث معك ما حييت».

«أفعل ماذا؟» سألني وهو يتظاهر بالبراءة المجروحة.

«تغرغر في قهوتك كما فعلت الآن».

«يا فتاة أقول لك، هذه هي الطريقة المثلى لشرب القهوة هنا، اسمعي الآخرين يفعلونها».

وبينما رمقته بنظرة مستاءة احتضن هو فنجانه بكل حب، حابساً الملعقة بين أصبعيه السبابة والوسطى، وأخذ رشفة مغرغرة أخرى. «أي تذمر آخر منك وسأشرب القهوة من الصحن وأنفخ فيها كهؤلاء الجالسين في الزاوية. روّقي أعصابك وكلي بيسماركة».

أخذت بين أصابعي واحدة من الحلويات الكريمية وحدّقت فيها بيأس. لا صحون حولنا إلا تلك التي وُضِعت فيها الكعكات.

«كيف يأكلها الواحد؟» تساءلت.

«الحقيقة أنك لا تأكلينها، فالفعل هنا أشبه بالتنشّق. لتأكليها بنجاح، عليك الجلوس في بانيو مملوء لنصفه بالماء، لأنك سرعان ما تقضمين طرفاً منها سيسيل الكاسترد من الطرف الآخر، ولا فم بشري خُلِق ليكون في مكانين في الوقت عينه. أغمضي عينيك يا فتاة، واغطسي فيها».

وغطست. بصمت، أخذت قضمة لذيذة، ولحقت الحشوة اللعينة بلساني، التهمت كل جزء منها حتى آخر فتفوتة، ولعقت الدبق عن أصابعي، ثم أخذت أتفحص حشوة كعكة أخرى.

«سآتي إلى هنا كل يوم». أعلنت لبلاكي.

«يفضل أن لا تفعلي، فتفسدي بشرتك ويصير جسمك مدوّراً ومقوّساً. انظري لتلك المرأة في الزاوية؛ أراقبها وأعدّ وحتى الآن رأيتها تأكل ثلاث كعكات لوز، كرتي كريمة، كرواسون بندق، وقطعة فطيرة مع فنجاني قهوة. أليست مثالاً مروعاً! ومع هذا لديها الجرأة لتلبس فستاناً!»

«لايهمني». أجبته وصوتي تخنقه الكريمة المخفوقة والزبدة. «من الآن أشعر بنفسي أُزَفِّر. وعلى كل حال، ألست مرافقة جيدة؟ والآن حدثني عن بعض هؤلاء الناس. من هو ذلك الرجل الصغير المضحك بالبدلة المخططة والضفيرة السوداء، وربطة العنق الخضراء والطماق الأبيض، والقبعة البنية والنظارات؟»

«ألا تشعرك ملابسه بالدوار؟» شيء من الحسد تسلل إلى صوت بلاكي. «اسمه هيغو لودرز، كان مراسلاً في صحيفة جرمانيا ولكنه صلّح نفسه وصار يشتغل بالإعلانات حيث المال الكثير. البعض يقول إنه يرتدي هذه الملابس كجزء من رِهان، والبعض يقول إن ذوقه في اللبس هو لعنة نزلت عليه من جوزيف، ذاك الرجال بالمعطف الثمين، ولكنني أعتقد أنه يرتديها لأنها تعجبه. هو يأتي إلى هنا كل مساء ومنذ اثنتي عشرة سنة، يشرب القهوة ويلعب الشطرنج ويهرّج مع

بعض أصدقائه. إن قرر بومباخ يوماً أن يدهن واجهة محله، أو يركّب واجهات زجاجية أو يضيف صينيات ملونة باليد لمطبخه، هيغو لودرز هذا سيبعث له إنذاراً من المحكمة. هيا، الذي بعده!»

«من تلك المرأة ذات الشعر المنعوث والقدمين الكبيرتين، والبشرة الشبيهة بحقائب الجلد والمرتدية لحزام يناسب لونها؟ يعجبني وجهها. ولماذا تجلس إلى طاولة مع كل أولئك الرجال غريبي الشكل؟ ومن هؤلاء الرجال؟ ومن ذاك صاحب معطف الفرو الذي دخل لتوّه ويبدو كمغني أوبرا ـ أوه!»

ألقى بلاكي نظرة من فوق كتفه في اللحظة التي استدار فيها الرجل الطويل لينظر في اتجاهنا. «ذاك؟ يا فتاة هذا فون جيرارد، الرجل الذي قدّر لي سنة واحدة لأعيش. انظري كيف ينحني الجميع له تملّقاً. قلّة ما يزور بومباخ، فهو مشغول بمعالجة الخربات البشرية التي تجرفها الأمواج إلى شطّه».

الرجل الطويل عند المدخل كان يدور بعينيه من طاولة لطاولة، يومئ برأسه هنا أو هناك ليسلّم على أحد معارفه. تجولت عيناه على طول الغرفة، والآن أصبحتا تقتربان من مكان جلوسنا. شعرت بضيق مفاجئ في الحنجرة والصدر، وكأن أصابعاً قبضت على قلبي وأخذت تعصره. من ثم، التقت عيناه بعيني، وشعرت بالدم يندفع إلى وجهي عندما بدأ يسير مسرعاً نحو طاولتنا ليصل ويأخذ يدي بيده.

«لقد اكتشفتِ بومباخ إذن». قال. «أأستطيع شرب قهوتي وتدخين سيجارتي معك هنا؟»

«بلاكي هنا هو المسؤول عن تعريفي بألغاز بومباخ الدبقة وإدخالي في هذا العالم. لم أكن لأكتشفه وحدي مطلقاً لو لم يتطوع هو ليكون مرشدي الخاص. أظن أنكما تعرفان بعضكما، صحيح؟»

تصافح الرجلان من فوق الطاولة، وشعرت أن المصافحة كانت مغصوبة وغير لبقة. رمق بلاكي فون جيرارد من خلف ستار من الدخان، بينما نظر فون جيرارد إلى بلاكي من خلف جفنين مزمومين وهو يشعل سيجاره. «أنا الغبي الذي حكمتَ عليه بالموت من سنتين أو ثلاث». ذكّره بلاكي.

«أتذكرك بكل وضوح». رد فون جيرارد بلباقة. «يسعدني أن أرى أنني كنت مخطئاً».

«وأنا عن نفسي سعيد أيضاً يا أستاذ». قال بلاكي وقد عاد لعينيه السوداوين ذاك اللمعان الخبيث. «جناحا ملاكٍ حافِ القدمين بثوب أبيض لا يتناسب نهائياً مع جمالي الإسباني، ألا تعتقد ذلك؟ لم أعرف أنك وصديقتي المدام هنا معارف. تعرفان بعضكما لفترة؟»

شعرت بوجهي يزداد حرارة واحمراراً مرة أخرى.

«عرفت الدكتور فون جيرارد حين كنت ما أزال في البيت، وبالكاد رأيته منذ قدمت إلى هنا. اختصاصيون مشهورون لا يجدون داعٍ للاهتمام بأقرباء أصدقائهم الجامعيين، أليس كذلك يا سيدي الطبيب؟»

والآن صار دور وجه فون جيرارد ليمتقع بلون قرمزي مكلوم. نظر إليّ وهو صامت، وشعرت بأنني شديدة الصغر وبلا أهمية أبداً، وكأنني طفل وقح مدّ لسانه لكبار العائلة. الرجال الصامتون دائماً يؤثرون بالنساء كثيرات الكلام بهذا الشكل.

«أنتِ تعرفي أن ما تقولينه ليس صحيحاً نهائياً». قال ببطء.

«لن نتناقر على هذا. نحن... نحن كنا على وشك الرحيل، صحيح يا بلاكي؟»

«على وشك». قال بلاكي وهو يقف. «من المؤسف رؤيتك وأنت تشرب قهوة بومباخ يا أستاذ، فالأمر ليس عادلاً لمرضاك».

«مضبوط». رد فون جيرارد ووقف معنا. «ولهذا فلن أشربها، وسأمشي مع السيدة أورم إلى البيت، إن سمحتْ لي، فهذا سيكون أكثر تأثيراً من القهوة، وبضعفيّ خطورتها، ربما، ولكن ـ»

«أنت تعرف أنني أكره هذه التصرفات». قلت ببرود ونحن على الباب الأمامي خارجين من دفء المقهى إلى برد الشتاء القارس في الشارع، حيث كانت البنات السمينات يملأن علباً كبيرة بكعك العيد. تمايلت اليافطة السوداء وصرصرت في الريح، وبحركات مبالغ فيها، ومع ذكرى آخر كعكة كريمة أكلتها وما زال طعمها في فمي، ألقيت تحية عسكرية على الأحرف الذهبية التي كتب بها (فرانز بومباخ).

أطلق بلاكي ضحكة مشاكسة. «مثل هذا، جرّبي نثرة من الصودا المُكربنة عندما تعودين للبيت يا دون». نصحني. «حسناً، أنا سأعود إلى المكتب، عليّ تعويض الوقت الذي قضيته مع صديقتي هنا. إلى اللقاء!»

حدقت بالجسد الصغير المكسو بالمعطف المخطط وهو يمشي مبتعداً.

كسر فون جيرارد الصمت. «ولكنه ناداكِ... ناداك بدون».

همهمت موافقة. «نعم، فاسمي هو دون».

«قطعاً ليس بالنسبة له، فأنت لم تعرفيه إلا منذ بضعة أسابيع. لم أكن لأعتقد ـ»

ضحكت وقاطعته. «بلاكي لا يعتقد، أبداً. بلاكي هو فقط بلاكي، على سجيّته، تخيل أن تأخذ موقفاً منه! هو يعرف الكل بأسمائهم التي يختارونها لأنفسهم، من جو صاحب المطبعة إلى مدير الجريدة الذي يستورد ملابسه من لندن. بالإضافة إلى ذلك، بلاكي وأنا صحافيان، والناس في مكاتب الصحافة لا ينحنون ويتزلفون، وبالأخص حين يحبون بعضهم. أنت لا تفهم بهذه الأشياء».

عندما نظرت إلى فون جيرارد وهو تحت ضوء عامود الإنارة، رأيت تشجناً وانقباضاً في عضلات الفك تدل على شخص يصرّ أسنانه، وعندما عاود فون جيرارد التحدث بالكاد ارتخت هذه العضلات.

«الرجل لا يتكلم بالسوء عن رجل آخر، ولكن هذا وضع مختلف. أريد أن أسألك، أتعرفين أي نوع من الرجال هو هذا البلاكي؟ أنا أسأل لأنني أريدك دائماً آمنة ومحميّة من رجال من نوعه لأني ـ»

«آمنة! ومن بلاكي؟ اسمعني هنا، لا يوجد أبداً صديق بقدر أمانه وعقلانيّته، أو بصدقه وكرمه، وأنا أعرف كيف كانت حياته، ولكن كيف لها أن تكون مختلفة لشخص بدأ مثله؟ لا رغبة عندي في إصلاحه، فقد جرّبت إصلاح رجلٍ في السابق والنتيجة لم تكن سوى خراباً عظيماً، ولهذا سأقبل ببلاكي كما هو، إن سمحت، بلهجته السوقية ومشاكسته وقمصانه الزهرية وربطات عنقه الحمراء وخواتم الألماس وكل شيء. إن كان فيه مساوئ، فنحن كلنا نعرف بها، لأنه يضعها أمامنا على الطاولة مكشوفة للجميع. أنت فقط غاضب لأنه ناداك بـ (يا أستاذ)».

«هذه بسيطة». قال فون جيرارد بالألمانية. «حسناً، لن نتخانق أنا وأنت. إن كنت مهملاً لك فلأن الأدوات الحادة لم تكن يوماً شيئاً أتعامل به. لعل بلاكك الصغير يعرف أن ما من داع ليخاف أشياء كهذه، لأن الخوف الأعظم ينزل عليه».

«الخوف الأعظم! أنت لا تعني ـ»

«أعني أن هناك الكثير من العروق الحمراء البارزة في طرفي عينيه الغائرتين، وأن مصافحة يده تترك رطوبة في الكف. آه، ستضحكين. خلص، انتهينا، دعينا نغيّر الموضوع لشيء أكثر بهجةً، حسناً. قولي لي، كيف تنمو القصة في روايتك؟»

«بالإنشات. بعد يوم من العمل في جريدة تصدر يومياً حيث يصرخ عليك رئيس التحرير بأن تستعجل وتسرع كل الوقت لأن لا وقت لدينا، نعمةٌ أن أجد

نفسي جالسة بكل هدوء أمام آلتي الكاتبة، وعندي القدرة على كتابة مئات وآلاف الكلمات إن أردت، ولكنني لا أستطيع التخلص من عادة حشو القصة كلها في الفقرة الأولى. في كل لحظة تنكشف لي جملة فصيحة ألقي نظرة قلقة وراء كتفي، متوقعة أن يظهر نوربيرغ مزروعاً ورائي وبيديه مقص وقلم تصحيح. وكنتيجة لهذا، وحتى الآن، فالقصة تُقرأ كتقرير شرطي عن حريق حصل قبل أربع دقائق من إرسال المقالة للمطبعة».

لم يبتسم فون جيرارد. «إذن، أرى أنك تحرقين الشمعة من الجهتين. تكتبين طيلة النهار، أليس كذلك؟ وفي الليل تعودين للبيت لتكتبي المزيد؟ آخ منك يا فتاة! ولكن لا، فسوف نغّير كل هذا. سنصير رفاقاً أفضل، نحن الاثنين، ما رأيك؟ هل تتذكرين ذلك المشوار اللطيف الذي قمنا به الخريف الماضي؟ عندما استكشفنا دروب ميتشغان الريفية؟ سأكون مرافقاً لك يوم الأحد، وسيكون هناك الكثير من المشي لإعادة اللون لوجهك. سنكون رفيقين جيدين، كما هي الحال بينك وبين جريفيث هذا. ماذا يقولون عنهم ـ أصحاب؟ نعم هذه هي، أصحاب. ما رأيك؟ دعينا نُقسِم على هذا بمصافحة؟»

ولكنني نزعت يدي من يده. «لا أريد أن أكون صاحبة». صرخت فيه. «تعبت من كوني صاحبة. أنا بقيت صاحبةً لسنوات وسنوات بينما كل امرأة أخرى في العالم كانت سعيدة في بيتها وهي تربي أولادها. عندما أصير عجوزاً أريد أبناء لأقلق عليهم وأسهر لأجلهم، وبنات ليبقينني شابةً، ويمنعنني من لفّ شعري في مؤخرة رأسي وارتداء القبعات! أكره الأصحاب النساء وأنت تكرههن أيضاً والجميع كذلك يكرههن! أنا... أنا»

«يا دون!» صاح فون جيرارد، ولكنني ركضت على الدرج صاعدة إلى النزل وطبقت الباب ورائي بعنف، وتركته واقفاً هناك وحده.

الفصل التاسع

ظهر محليّان جديدان وانضما إلى مجموعة المحليين الأصلية. واحدة منهما كانت امرأة، الأنثى المحلية الوحيدة بينهم. دخلا للمرة الأولى أثناء العشاء، فنسيت أن آكل وجلست أشاهدهما. القادمان الجديدان من فيينا، هو مهندس محترف، وهي سليلة عائلة نبيلة ولها ماض غامض. مظهرهما المشترك محسوب بدقة ليزرع الخوف في القلب؛ هو شديد البشاعة بذقن متقوسة تحت شفتيه بارزة كالمنقار. وهي كانت ترتدي فستاناً رمادياً بتصميم لم أرَ له مثيلاً في حياتي، ولم أتوقع أن أرى بعد اليوم مثله أبداً. كان الفستان مزمّماً بأزرار سوداء ضخمة امتدت على طول صدر الفستان القاطع للنفس لضيقه، والجزء العلوي من فستانها كان يتضمن قطعة ملابس ما قبل تاريخية معروفة باسم الباسك. جسمها كان مدوراً حيث يجب أن يستقيم، ومستقيماً حيث يجب أن ينحني. حول عنقها كانت ترتدي صفّاً من الخرز الأسود كقنابل المدفعية يطقطق أثناء مشيها، وعلى جبينها غرّة خفيفة.

«يا إلهي! هل أحّلم أنا؟» فكرت. «هذه ليست وسكنسن، هذه نُرنبيرغ، أو ستراسبيرغ وفيها لمسة من هيدلبيرغ وبرلين. دون يا فتاة، سيكون وجود هؤلاء أكثر إفادة من كلام الطهاة في كتب الطبخ».

وقد كان ذلك أصدق تنبؤ تفوهت به.

أولى المفاجئات كانت جلوس القادميْن الجدد إلى الطاولة الطويلة مع

باقي المحليين. السيدة المحلية هي المرأة الوحيدة بين اثني عشر رجلاً. كان من الواضح أن الجماعة يعرفون بعضهم من قبل هذا اللقاء، فقد صاروا أصدقاء جيدين فوراً، والرجال أطلقوا النكات وعلّقوا على أنهم ثلاثة عشر شخصاً على الطاولة.

وبسماعها لهذا بدأت السيدة المحلية بالضحك، ومن فوري نسيت الفستان بتصميمه الجنوني، نسيت عِقد قنابل المدفعية، نسيت الغرّة الخفيفة، وسامحتُ بروزات جسدها الغريبة. أي صوت كان هذا! صوت موسيقي رقيق. بعد ضحكتها أخذت تتكلم بحمية وحركات ذراعيها كانت مذهلة ومحيّرة، ولاحظت أن يديها كانتا بأناقة صوتها وبنفس قدراته التعبيرية. ألمانيتها كانت ألمانية أهل فيينا بلسانهم الموسيقي، ليس فيها ذرة من الغرغرة والحشرجة التي اعتدت على سماعها. وعندما توّجت كلامها بتلك الضحكة الرنانة، تغيرت نظرتي إلى اللغة بسرعة البرق.

رؤيتي لها وهي تفتح العلبة الفضية المسطحة المتدلية من نهاية عقد قنابل المدفعية السوداء، وتأخذ منها سيجارة لتشعلها وتدخنها في قاعة الطعام الألمانية تلك، بدا لي كأكثر شيء طبيعي في العالم. أحاطت نفسها بهالة سامية من اللامبالاة وهي تنفخ خيوطاً وأكاليلاً من الدخان في الهواء حولها، وتدردش بمرح مع زوجها ومع الرجال الآخرين على الطاولة. أحياناً تلفّظت بجمل فرنسية، لكنتها ساحرة ومتقنة كما في لغتها الأم. كان هناك لحظة من التحديق، وانقطاع النفس من جهة نساء الطبقة الوسطى المحترمات الجالسات إلى الطاولات الأخرى، ولكنهن وبعد لحظة أخرى استسلمن وهززن أكتافهن وعدن إلى الصحون أمامهن. كان هناك هالة من الثقة في تدخين تلك السيجارة لا يقدر على امتلاكها إلا النبلاء، ولا يقدر على تكديرها أي حشد من المحدقين.

بالنسبة لي، صارت مراقبة المحليّن الجدد أشبه بلعبة. لقد فُتِنتُ بالسيدة

المحلية وبصوتها الذهبي وزوجها القبيح بذقنه المنقارية. صرت أُسرع من غرفتي إلى الأسفل أوقات الطعام حتى لا أضيّعهم، وأتباطأ في الأكل حتى لا أنتهي وأخرج من القاعة قبلهم. اكتشفت أن السيدة المحلية وعندما تكون مفعمة بالحيوية يصير وجهها كوجه امرأة شابة فيه سحر السلالات النبيلة، ولكن عندما تكون في حالة سكون، يصبح وجه السيدة المحلية وجه امرأة كبيرة السن ومرهقة. اكتشفت أيضاً أن زوجها يتنمّر عليها، وأنه حين يفعل ذلك تنظر إليه كمن يتعبّد إلهاً.

وفي مساء ما، بعد أسبوع من ظهور المحليّان الجدد، جاء أحد وطرق على باب غرفتي. كنت جالسة أمام آلتي الكاتبة، والقصة كانت تجري وتسيل بقوة، فتمنيت أن يرحل طارق الباب.

«أدخل!» ناديت بصوت جاف، وبعدها أعدت النداء. «تفضّل!»

دار مقبض الباب ببطء، وفُتِح الباب قليلاً بما يكفي لإدخال قمة رأس متوجة بعقدة شعر ألمانية صارمة ولامعة. فتشت في ذاكرتي لأستطيع تمييز عقدة الشعر هذه، ولكنني فشلت وعاودت الكلام مجدداً، هذه المرة بضيافة مختلطة بالفضول. «ادخلي، أرجوك».

ما بدا كرأس مفصول دفع نفسه للأمام قليلاً، كاشفاً عن وجه بابتسامة اعتذارية، وعظام خدود عالية تتعرق من العمل وتشعّ بالودّ.

«مساء الخير يا آنسة». قال الرأس.

«مساء النور». أجبتها، وشعرت بالاستغراب فسألتها. «كيف حالك؟ هل هناك شيء ما»

دفع الرأس بنفسه للأمام أكثر، كاشفاً عن زوج من الأكتاف السمينة، من ثم أدخل الكتفين نفسيهما إلى الغرفة، كاشفين بدورهما عن جسم ممتلئ متين.

«أنا السيدة نابف». أعلنت لي المرأة المضيئة.

حتى هذه اللحظة، كانت السيدة نابف قد أبقت حولها هالة من الغموض والسرية. لقد سمعت إشاعات عنها، وتشاركت مع نزلاء آخرين حلويات ألمانية مقرمشة شاع أنها من صنع السيدة نابف، ولكن لم أرَ أبداً حتى لفتة من تنورتها تتحرك في أي زاوية. ولهذا ردّدت كلامها:

«السيدة نابف! لا يمكن! أنت أقرب إلى الخيال ـ طبعاً أنا سعيدة لرؤيتك، لا تظلي واقفة، ادخلي واجلسي».

«آه، لا!» ابتسمت السيدة نابف الضخمة وهي متشبثة بمقبض الباب. «لا وقت عندي فالعمل كثير الليلة. عجينة الكعك عليّ صنعها. اعتذر، لا وقت عندي».

السيدة نابف حمراء الخدين، نشيطة! هذا هو سبب عدم رؤيتي لها نهائياً، دائماً لا وقت عندها. فبينما كان السيد نابف المرح اللطيف يرحب بالزبائن ويدردش مع الزائرين ويصب كأس بيرة متوّج بالرغوة للسيد فيبر، أو يفتت بكل إتقان لحم الدجاج على طاولة المحليين، كانت السيدة نابف هي من تدير العجلة. اكتشفت أنها هي من كان يخبز الفطائر الألمانية الذهبية الذائبة صباح أيام الآحاد، وهي التي كانت تقلي شرائح لحم العجل المقرمشة، وهي التي تجهز البطات السمينات والمرق الدسم وشوربة العدس الحارة والنقانق الوردية التي توضع في سرير من القرنبيط المخلل. السيدة نابف تخبز وتقلي وتشوي، طوال الأسبوع. خداها المورّدان يلمعان بلون قرمزي من نار الفرن الذي تنحني فوقه.

ولكن في كل ليلة أحد، تنزع السيدة نابف إزارها الواسع عنها، وتنزل أكمامها من عن الساعدين القويين. كل ليلة أحد، تترك القدور والطناجر والطبخ، وتتحول إلى سيدةٍ أخرى. في ذلك اليوم ترتدي فستان حرير أزرق، ومعطفاً مخملياً فاحماً، وقبعة سوداء مزينة بعصافير صغيرة وثمرات خوخ جافة، ومن ثم تسير

هي والسيد نابف بكل راحة إلى مسرح بابست ليشاهدا المسرحية الألمانية التي تقدمها فرقة التمثيل الألمانية. يصفقان لممثلتهما الألمانية المفضلة، كوميدية شقراء بجسم ممتلئ تقفز من مشهد لمشهد في المسرحية الكوميدية الألمانية هذه. بعد ذلك، يذهبان إلى حانتهما المفضلة ويطلبان سمك البلم وسندويشات الجبنة والكثير الكثير من البيرة. ليلة ساحرة واحدة تنسي السيدة نابف كل شيء عن أحشاء الإوز وزيادة كثافة المرق، وتكون سعيدة.

أخبرتني السيدة نابف الكثير من هذه الأشياء بنفسها، وهي واقفة عند الباب وعجينة الكعك تستلب فكرها. أما البعض الآخر فعلمته من فون جيرارد عندما حدثته عن زائرتي وطلبها. هذا الطلب لم يُكشف عنه إلا بعد أن لاحظتني السيدة نابف وأنا ألقي نظرة يائسة إلى الورقة في آلتي الكاتبة.

اعتذرت مني. «آه! أنت لا وقت عندك للكلام، صحيح؟»

«لا لدي الكثير». طمأنتها بأدب. «لا داع للعجلة، ولكن ما رأيك أن تأخذي راحتك وتجلسين؟»

ولكن هذا لم يكن ليخدع السيدة نابف. «سأجلس، ولكن في الأول أريد سؤالك عن شيء. أنت تعرفين السيدة نيرلانجر؟»

هززت رأسي نافية.

«ولكن يجب أن تعرفيها، من فيينا هي، ولها صوت كالعصافير».

«وعقد الخرز، والفستان الرمادي، والغرة، والسجائر؟»

«والزوج البشوع». أكملت السيدة نابف عني وهي تومئ برأسها.

«البشوع... هذا هو الوصف المناسب». وافقتها. «إذن هي السيدة نيرلانجر؟ اعتقدت أن لابد من وجود (فون) في اسمها على الأقل».

وبهذا الكلام هجرتْ زائرتي مقبض الباب، وأخذت عدة خطوات حذرة باتجاهي، وخفضت صوتها لتهمس لي بنبرة واثقة تشبه الفحيح. «بالفعل يوجد فون في اسمها. سأخبرك. اليوم تأتيني السيدة نيرلانجر وتقول: «يا سيدة نابف، أود شراء ملابس جديدة، أزياء أميركية على آخر طراز». أنا عن نفسي لا أعرف ما هي الصرعات الجديدة، فلا أستطيع الذهاب وحدي».

«مغامرة كبيرة هذه». قلت وأنا أتذكر الباسك الرمادي وعقد قنابل المدفعية.

«أها بالطبع». وافقتني السيدة نابف. «فإذن تسألني هي إن كان هناك آنسة ما تقبل الذهاب معها إلى المحلات وتساعدها في انتقاء قبعة وقمصان وفساتين لتشتريها. هي تفضلهم أنيقين على آخر صرعة، وملابس أميركية من فوق لتحت. فإذن أقول لها: كنت لأذهب معك ولكني لست أنيقة، وعلى كل حال فلا وقت عندي، ولكنني أعرف آنسة لها ما لها من الأناقة!» رفعت السيدة نابف يدين وعينين شاكرين للسماء. «وهي لطيفة جداً هذه الآنسة وأنيقة جداً واسمها السيدة أورم».

«أوه سيدة نابف بالحق ـ» تمتمت وقد احمرّ خديّ خجلاً.

«بالطبع هذه الحقيقة». أصرّت السيدة نابف، وأخذت خطوة أخرى مقتربة مني وزادت من انخفاض صوتها. «لا تقولي إني قلت لك، لكن السيدة نيرلانجر تحب أن تظهر بمظهر الشباب لزوجها. هو أصغر منها بالكثير الكثير، ما يقارب العشر سنوات. السيدة نيرلانجر لا تقول لي هذا، ولكني علمت بهذا من أشخاص آخرين». هزّت السيدة نابف رأسها بحركات غامضة عديدة. «ولكن لعل لا اهتمام عندك بالسيدة نيرلانجر صحيح؟»

«اهتمام؟ لقد أكلني الفضول. لن تخرجي من هذه الغرفة حتى تقولي لي كل شيء!»

اهتز جسد السيدة نابف بفرح صامت. «تحبين المزاح، ها؟ طيب سأخبرك. في فيينا، السيدة نيرلانجر كانت أرملة من عائلة نبيلة ـ من الطبقة العليا، المخملية. عائلتها انحدرت من البلاط، وهم أصدقاء للإمبراطور. ولكن طبعاً، السيدة نيرلانجر مختلفة عن البقية. فهي تحب الكتب، واللقاءات، وأشياء مسلية كهذه. والآن ما رأيك!»

أخذت نفساً، وأنا أقلّب كلامها في رأسي. «لا أعرف، لا أعرف ما رأيي».

«تلتقي هنا بكونراد نيرلانجر، ويقعان في الحب، وعائلتها غاضبة! غاضبة بشكل رهيب! أربعون سنة عمرها هي ومن عائلة نبيلة وكونراد نيرلانجر ليس سوى طالب جامعي. هو ابن تعليم عال، ولكنه ليس من طبقة النبلاء، ولكن هذا كله لا يهمها فتهرب معه وتتزوج».

بدون أي استحياء تشربت كلامها كله. «غير معقول! ولكن ما الذي حصل بعد ذلك؟ هربت معه ـ وهو بتلك الذقن! وماذا بعد ذلك؟»

كانت السيدة نابف تستمتع بهذا الحديث بقدر ما كنت أستمتع به أنا. أخذت نفساً طويلاً، تحسست عقدة شعرها، وغاصت مرة أخرى في القصة.

«كأنها قصة من كتاب، صحيح؟ السيدة نيرلانجر هي أصلاً لديها ابن عمره عشر سنوات، وتملك كمية محترمة من المال كان زوجها الأول قد تركها لها، ولكن عندما هربت من عائلتها مع هذا الشخص الفقير غضبت عائلة زوجها الأول غضباً رهيباً، فصاروا يحاولون بالقانون أخذ ابنها ومالها منها، لأنها جلبت العار لعائلتها النبيلة، عرفتِ؟ استمر النزاع بينهم في المحاكم لسنة، وفي النهاية حكموا بأن يبقى المال مع السيدة نيرلانجر، ولكنها لن تأخذ ابنها، ستأخذه عائلتها الثرية ليتعلّم، وعليه أن ينسى كل شيء عن أمه. قصة تبكي صحيح؟ المسكينة! بعد هذا، لم تعد تستطيع العيش في نفس المكان حيث ابنها وهي غير قادرة على

رؤيته، وهنا يحصّل كونراد نيرلانجر فرصة ليأتي إلى أميركا حيث توجد مخططات هندسية ضخمة هنا في ميلواكي. تتوسل زوجها لأن يأتي هنا، لأنها تحب ابنها كثيراً ـ أوه، هي تحب زوجها الشاب أيضاً، لكن بشكل مختلف، عرفتِ؟»

«آه نعم». وافقتها وأنا أتذكر الضحكة الرنانة الغريبة والوجه الذي كان بغاية الشباب عند الفرح، وبغاية الكبر والإرهاق عند السكون. «آه طبعاً، بشكل مختلف، بالتأكيد».

مسّدت السيدة نابف تنورتها النظيفة وهزّت رأسها ببطء وحزن. «وهكذا يأتون إلى أميركا، وكونراد نيرلانجر لعله منزعج قليلاً، لأنهم ظلوا لسنة في المحاكم ولربما كان المال هو ما سيخسرونه، وللمال يهتم كونراد نيرلانجر كثيراً ـ ستعرفين بعد قليل. لكن السيدة نيرلانجر يجب ألا تحزن وتبكي، يجب أن تضحك وتغني، وتكون مرحة لأجل زوجها، ولكن السيدة نيرلانجر لا ملابس جيدة عندها، لأنها في البداية تهرب مع كونراد نيرلانجر فيُعلّق مالها كله في المحكمة، والآن عاد لها مالها وتريد أن تكون شابة، شابة جداً!»

نفضت السيدة نابف ذراعيها وكأنها تدلّني على عالم من الشفقة والعبث. «لا يريد لها أن تبدو مختلفة عن النساء في هذا البلد، لهذا السيدة نيرلانجر ترى أنه يجب عليها شراء فساتين جديدة من المحلات ـ فساتين أميركية. تريد الحصول على كل شيء جميل وجديد، لأنها تريد أن تبدو شابة، عرفتِ؟ ولعل ابنها سيتذكرها عندما يصير شاباً جميلاً إن كانت هي شابة عندما يكبر، عرفتِ؟ وهناك الزوج الشاب أيضاً. في البداية تتخلّى عن حياتها القديمة، وعن أصدقائها وعائلتها لأجل هذا الرجل، والآن عليها فعل كل ما بوسعها لإبقائه، فالرجال هم في النهاية أطفال». وصلت السيدة نابف الحكيمة إلى نتيجتها. «يتنازعون ويبكون ويتوسلون للشيء الذي يريدون، ولما يفوزون به كما ترين، يتسلون للحظة وبعدها تُرمى اللعبة الجديدة جانباً».

«السيدة نيرلانجر المسكينة، العادية، الفاتنة المضيئة!» قلت. «أتساءل كم من الألم وانفطار القلب تخفي تحت تلك الضحكة الموسيقية؟»

«بالفعل»، قالت السيدة نابف. «عيناها تبدوان كعينين ذرفتا الكثير من الدموع، صحيح؟ إذن، هل تتلطفين وتذهبين معها لشراء ملابس جميلة؟»

«ملابس؟» ردّدت عليها وقد نسيت الطلب الأصلي. «ولكن يا سيدتي العزيزة! كيف يختار أحدنا ملابساً لامرأة أربعينية تريد ألا تتعب زوجها؟ هذه مهمة لمصمم أزياء فرنسي، وساحر، وأم عرّابة ملفوفين ثلاثتهم في شخص واحد».

«ولكن ستقومين بها، صحيح؟» حثّتني السيدة نابف.

«سأقوم بالمهمة». وافقت أخيراً. «سأقوم بها فقط لأرى وجه الزوج البشوع عندما تظهر عروسه بأبهى حُلّة».

وفي تلك اللحظة، اتسعت عينا السيدة نابف جزعاً، وقد تذكرت عجينة الكعك، فأسرعت راكضةً خارج الغرفة ويدها على فمها وعيناها مليئتان بالأسرار، أما أنا فجلست أحدق بآخر صفحة كتبتها وقد بقيت عالقة في الآلة الكاتبة، ووجدت أن الأحرف الصغيرة على الورقة البيضاء كانت تسبح في ضباب بنفسجي معتم.

الفصل العاشر

من الأزواج بشكل عام، ومن الأزواج الألمان البشعين بشكل خاص، أسأل اللّه أن يحميني! يستحيل أن أعاود تكرار تجربتي في اختيار ملابس (أميركية للعظم) لامرأة لا تريد إتعاب زوجها الشاب، ولكن كيف كان لي أن أعرف أن رحلة تسوّق عادية ستختتم نفسها بمأساة عائلية، يكون فيها السيد نيرلانجر هو الشرير، والسيدة نيرلانجر هي البطلة المضطهَدة. أما بالنسبة لي، أي دور في هذه التراجيديا يناظر دور العابر البريء في الواقع، سيكون هو دوري.

شراء الملابس كان متعة حقيقية، فبالإضافة لشراء أشياء جميلة لنفسي، أحب كثيراً اختيار أشياء جميلة لأشخاص آخرين، وعندما تصدف أن يكون ذلك الشخص الآخر امرأة أجنبية فاتنة تكاغي لأي شيء حريري بمزيج مذهل من الألمانية والإنجليزية، وبالأخص عندما تكون هذه المرأة تريد الظهور بكامل سحرها حتى تذهل زوجها البشوع، في حالات كهذه، اختيار الأشياء الجميلة لا يبقى مجرد مهمة عادية، بل يصبح فناً.

اتفقنا على أن يكون الأمر مفاجأة خالصة للسيد نيرلانجر. لن يعرف أي تفاصيل عن هذا حتى يتم كل شيء، وتكون السيدة نيرلانجر مرتدية أجمل الفساتين الأميركية الجميلة، ومستعدة لإذهاله حين يعود إلى البيت من مكتبه في المصنع حيث يحل المشاكل الهندسية.

«من مالي أنا أشتري هذا». قالت لي السيدة نيرلانجر عندما خرجنا وأطلقت

ضحكة صغيرة مرحة. «من فيينا يأتي المال. دائماً أعطيه لزوجي مباشرة، كما يفترض بالزوجات أن يفعلن. البارحة أتى المال ولكنني تكتمت عليه ولمّا قال لي زوجي: يا آنّا، ألم يصل المال اليوم كالعادة؟ حان وقته. قلت أنا كذبة صغيرة، صغيرة جداً. كان الأمر ممتعاً وكنت بالكاد أكتم ضحكتي. لا، لن ينزعج حين يرى أن زوجته تبدو كالآنسات الأميركيات. هو شديد الإعجاب بالنساء هنا في أميركا، قال هذا عدة مرات».

وفكرت بنفسي: أراهن أنه بالفعل معجب بهن، هذا الغليظ الضخم البشع!

«سنريه!» قلت بصوت عال. «لن يعرفكِ. هناك الكثير من الملابس الجميلة التي نستطيع شرائها بكل هذا المال. آه يا سيدة نيرلانجر يا عزيزتي، سنستمتع بوقتنا جداً! أنا متحمسة لهذا وكأننا سنشتري جهاز عروس».

«بالفعل هو كذلك». أجابتني وظلٌ من الحزن انسدل على النور في وجهها. «لدى زواجنا لم يكن عندي أي ملابس جيدة ـ لا شيء! لعلك تعرفين قصتي. في أميركا، الكل يعرف كل شيء، وأجد هذا رائعاً. عندما هربت لأتزوج كونراد نيرلانجر لم يكن عندي إلا الفستان الذي ارتديه الآن، وحتى ذلك استعرته من إحدى الخادمات رفيعات المنزلة، وفعلت هذا حتى لا يميزني أحد. آخ! لم يكن علي أن أقلق. إذن، وكما ترين، فهو تماماً سيكون كشراء جهاز عروس!»

لماذا يا ربي امرأة بمثل تألقها ونبلها وحيويتها الجميلة لُعِنَتْ بجسد عشوائي التفاصيل كهذا! بالأخص في حال كهذه حيث عبّر الزوج الشاب عن إعجابه بنوع الأنوثة الوردية الرقيقة التي لا تملكها زوجته.

«لا يهم أيها الزوج الشاب، فسوف أريك!» وهذا ما عزمت عليه عندما أوصلنا المصعد إلى طابق حيث آنسات شمعيّات الوجوه جالسات في محلاتهن الزجاجية مضطرات للابتسام طيلة اليوم.

لا يجب أن نختار درجات فاقعة من الألوان الوردية والزرقاء. البنيّ يدل على القِدَم والكِبَر، ولم تكن بسن صغيرة بما يكفي لترتدي الأسود. أما البنفسجي فمتعب للعين. هكذا بدأت الفساتين تتكوّم على المقاعد والطاولات والمناضد، وبقيت أهز برأسي وبدأ اليأس يتسرّب إلى السيدة نيرلانجر، وعيني البائعة الإيرلندية المكتنزة لمعتا وكأنها تريد خنقنا.

ومن ثم وجدناه! كان الأمر أشبه بالوقوع في الحب من أول نظرة. أولئك فاقدي الخيال كانوا ليقولوا رماديٌّ، واللامباليون كانوا ليقولوا ورديٌّ، ولكن الفستان لم يكن أي منهما، وكان كلاهما؛ مزيج من رمادٍ زهري رقيق، مثل لون السماء التي يراها الواحد في غسق الشتاء، مثل غروب وردي محتجب خلف سحابات ثلجية رمادية. كان الفستان مصنوعاً من قماش ثقيل لامع، بسيط التصميم ورقيق القَصّة.

«أخيراً وجدناه! دعينا نصلّ لئلا يحتاج للكثير من التغييرات».

ولكن عندما ألبستها إياه، غمغمت كلتانا بسبب ملابسها التحتية القديمة، فتبع هذا زيارة طارئة إلى محل آخر حيث زُمَّت الأوراك بسرعة واختفت عن الأنظار، وحيث أصبحت بأعجوبة تقوسات الجسم خطوطاً. وهكذا عدنا إلى الفستان مرة أخرى، ولبسته فوق ملابسها التحتية الجديدة. التأثير كان ساحراً. البائعة الإيرلندية وأنا شبكنا أصابعنا وتمايلنا بأجسادنا تعبيراً عن الإعجاب. السيدة نيرلانجر استدارت بهذا الشكل وذاك أمام المرآة الطويلة، وثرثرت مع نفسها كطفلة سعيدة. الصفات التي أطلقتها تحولت إلى جمل طويلة بمقاطع صوتية كثيرة. كَغَّت للفستان الرقيق اللامع بتعابير ألمانية وفرنسية متقطعة.

وبعد هذا اشترينا فستاناً بسيطاً مصنوعاً من قماش أزرق للمشاوير الخارجية، وملابس داخلية بيضاء، وقبعات وأحذية، وحتى فستانين من الساتان داخليين. خلص اليوم قبل أن نتمكن من الانتهاء.

تنمرّتُ على البائعة وأقنعتها بإرسال الفستان الرمادي الوردي لنا مساء غد.

«انبسطنا!» ضحكت السيدة نيرلانجر. «البسط هذا أتعبني. ما ألطفك، لأنك قبلتي مساعدتي وتحملّتني. أنا لا يمكن أن يكون لي قدرة على محاربة تلك الآنسة التي باعتنا ـ متعجرفة كانت، صحيح؟ ولكن من الجيد الحصول على ملابس جميلة من جديد. أحب الفساتين الجميلة، وأنت كذلك، مضبوط؟»

«بالطبع أحبها أيضاً. ولكن مالي يأتيني في مغلّف راتب أصفر، وكقاعدة يُصرف قبل حتى أن يصلني، فبشكل عام هذا لا يترك لي هامشاً من الطيش».

صدرت عن السيدة نيرلانجر تنهيدة صغيرة. «سيكون هناك القليل من المال لإعطائه لكونراد هذه المرة. تُكلِّف الكثير من المال، هذه الملابس! ولكن كونراد لن يهمه هذا عندما يرى كل الفساتين الجميلة، أليس كذلك؟»

«يهمه!» قلت بصوت عال وبكثير من الثقة، رغم التمتمة الشكاكة للصوت الضعيف داخلي. «بالطبع لا، لن يهمه المال».

في اليوم التالي وصلت الصناديق، فهرّبناها خفيةً إلى غرفتي. فَتْحُ ورق التغليف كان أشبه بحفل، واستمتعنا حتى بصوت طقطقة الورق. لقد عدت مسرعة من المكتب إلى البيت عند أبكر وقت يسمح به الأدب حتى أتمكن من تحصيل وقت كاف للمساعدة في ارتداء الفساتين، فقد كان علينا أن ننتهي من كل شيء قبل أن يرجع السيد نيرلانجر.

اشترت السيدة نيرلانجر ثلاث بطاقات لارتياد المسرح الألماني، كمفاجأة إضافية أيضاً، وكان يُتوَقع مني أن أرافق الزوج السعيد المتفاجئ والزوجة الشابة الفخورة بملابسها الأميركية الجديدة.

أقنعتها بأن تدعني أرتب لها شعرها، وهي قد اعتادت على شدّه للخلف

وزمّه في كعكة في مؤخرة رأسها، وقد كانت تصفيفة بشعة ومملة. كنت شاكرة لمهارة يديّ الإيرلنديتين عندما أخذت خطوة للوراء لأتفحص نتيجة عملي. تصفيفة شعرها الجديدة أسبغت عليها ملامح نعومة ووقار.

من ثم، وصلنا إلى عَقد الكورساج بأربطته البالغة الطول. همهمت السيدة نيرلانجر بضحكة مكتومة، لا تجرؤ على الضحك بصوت عال خشية أن يفرط الكورساج الضيق. «آخ! بالفعل شيء مضحك!»

قررنا أنا وهي أن ارتداء أجمل الفساتين الجديدة سيشرّف هذه المناسبة. «درجة اللون هذه تسمى رماد الورود». شرحت لها وأنا أسدل الفستان فوق رأسها.

«رماد الورود!» ردّدت من ورائي. «ما أجمل هذا الاسم، صحيح؟ ولكن أيضاً حزين، أليس كذلك؟ كأحلام وردية أصابها الذبول. آخ ما هذه الكلام! الآن، أتستطيعين زمّه لو سمحتي؟ يحتاج الأمر تقانة، بالحق لعينة هذه الأزرار».

عندما بكّلت كل الأزرار اللعينة وقفت لأعيانها.

«أنفك يلمع». قلت لها وأنا أبحث في الدرج عن علبة البودرة.

رفعت السيدة نيرلانجر يداً معارضة. «ولكن كونراد لا يقبل هذه الأشياء، هو قال هذا. هو ـ»

«قولي لكونراد إن بشرة مبودرة ليست بسوء بشرة لامعة. تعالي إلى هنا ودعيني أضع هذا على أنفك وذقنك. انظري لي، أنا هنا أتنفس الصعداء وأصلّ شكراً لأن لا زوج متشدد عندي ليمنعني من استخدام نتفة بودرة. ها! أنا لا أمدح نفسي هنا، ولكن ألقي نظرة على نفسك يا عزيزتي».

«أنت راضية؟ يعني لا شيء غلط في شكلي؟ آخ! سنضحك حين نرى وجه كونراد».

«راضية! كنت لأقبّلك لولا خوفي من إفساد مظهرك. أنت حتى لست المرأة نفسها، تبدين كفتاة! وجميلة جداً. والآن طيري إلى غرفتك وإياك أن تجرئي على الجلوس ولو للحظة، وأنا سأنزل للأسفل لأحضر السيدة نابف قبل أن يصل زوجك».

«ولكن ألدينا وقت؟» تساءلت السيدة نيرلانجر. «موعد مجيئه الآن».

«سأجلبها إلى هنا فقط لتراكِ. لن تعرفكِ! ستكون رؤية التعبير على وجهها متعة خالصة! لا تلمسي شعرك ـ شكله رائع. وحباً بالله، لا تستديري لتنظري إلى نفسك من الخلف وإلا سينفزر شيء، أنا متأكدة. سأعود في غضون لحظات، والآن اذهبي!»

اختفى الجسد الرشيق الأنيق مع ضحكة صغيرة، ونزلت أنا على الدرج بسرعة لأحضر السيدة نابف. وجدتها مع ملعقة بيد وقدر ممتلئة باليد الأخرى، فنزعتها عنهم وأخذت يديها الحمراوين القويتين بيديّ وسحبتها معي لنصعد الدرج، شارحة لها الوضع ونحن نمشي.

«والآن لا تقلقي على ذلك العشاء! لا بأس إن انتظروا قليلاً. عليك رؤيتها قبل أن يعود السيد نيرلانجر إلى البيت، فهو قد يصل في أي لحظة. تبدو كفتاة، شابة جداً وجميلة بحق! وجسدها ـ سماويّ! مضحك الفرق الذي يصنعه كورساج جيد وفستان وبعض البودرة، ها؟»

السيدة نابف كانت تلهث وأنا أسحبها ورائي بسرعة محمومة. بين هفهفات نفَسها لفظت بكلمات تعبر عن الدهشة وعدم التصديق. «مستحيل! هف هف بالفعل مذهل! هف هف!»

وقفنا أمام باب السيدة نيرلانجر، وأخذت أنا وضعية درامية، وأعلنت لها بصوت جليل: «تأهبي!» ودفعت الباب دفعة قوية.

رابضةً عند الحائط في زاوية بعيدة من الغرفة، كانت السيدة نيرلانجر. يداها مشبوكتان فوق صدرها وعيناها متسعتان كأنها كانت تركض. في منتصف الغرفة وقف كونراد نيرلانجر، وكان على وجهه البشاعة أكثر تعبير بشاعة رأيتها على وجه رجل في حياتي كلها. نظر إلينا بينما وقفت كلتانا مشدوهتان عند عتبة الباب، وأطلق ضحكة قصيرة محتقرة، وشعرت بها كصفعة قارسة على الخد.

«إذن!» قال، ولم أكن لأصدق أنه يوجد رجال يقولون بالفعل هذه (الـإذن) بتلك الطريقة خارج المسرحيات الميلودرامية. «إذن، أنتِ لك دور صغير في هذه المفاجأة، صحيح؟ تنقلين تدخلاتك خارج عملك الصحفي، ها؟ أترك خلفي في الصباح زوجة عجوز وأعود مساءً وهذا ما أجده! أجد عروساً شابة. رائع! لا حقاً أقول لكم، رائع!» وأطلق ضحكة خالية من الموسيقى أو حتى الفرح.

وأنا كالغبية سألت: «ولكن، ألا يعجبك؟»

السيدة نيرلانجر بدت وكأنها تنكمش أمام أعيننا، حتى أن الفستان الجميل بدا كالستائر الثقيلة المنسدلة حول جسمها.

حدقت مشدوهة بهذا الكونراد، بوجهه القاس اللئيم، وعينيه الصغيرتين القريبتين جداً من بعضهما، وبذقنه التي تقوست تحت الفم وبرزت بتلك الطريقة القبيحة.

شخر كونراد نيرلانجر. «يعجبني؟ لو كان لفتاة شابة، نعم، ولكن كم هو تافه ومتأخر جهاز العروس ذاك. أي تبذير للمال هذا! وكما ترين، فأنا لا أريد زوجة شابة. النساء الشابات يحصل عليهن الواحد متى كان، ودائماً، ولكني تزوجت امرأة عجوزاً، والمرأة العجوز لا تحتاج لكل هذه الفساتين، أي، سيدة أورم؟ وأنت أيضاً، سيدة نابف؟»

كانت السيدة نابف تحدق هي الأخرى، قرمزية الوجه، مصعوقةً. سمعنا

تنهيدة مرتجفة من الجسد الجاثم في الزاوية. السيدة نيرلانجر، وجهها ذابل ورمادي بشكل غريب، أخذت تنهار شيئاً فشيئاً على الأرض، ودفنت وجهها المَخزيّ بين ذراعيها.

استدار كونراد نيرلانجر نحو زوجته، التعبير المظلم على وجهه كان يزداد ظلمة. «هيا انهضي يا آنّا». أمرها بالألمانية. «هذه البطولات غير لائقة بامرأة في سنك. وعلى كل حال، يجب ألّا تفسدي الفستان الثمين، فسنرجعه للمحل غداً».

رُفع وجه السيدة نيرلانجر الأبيض من ملجأه بين ذراعيها. ملامح الكرب والألم كانت ماتزال عليه، ولكن لم يكن فيه خوف الآن. ببطء، وقفت على قدميها، ولم أدرك من قبل كم طويلة كانت.

«الفستان لن يُرَجَّع». قالت له.

«نعم؟» زمجر وفي صوته حدة همجية. «اسمعيني هنا، من الآن فصاعداً لا شراء لفساتين وسخافات كهذه فهمتِ؟ الزوجة تأتي لزوجها بالمال، هذا دورها وواجبها، المال ليس لها لتبدده بأنانية على الفساتين كبنت شوارع». صوته وحده كان إهانة. «أنت... أنت، بتجاعيدك وعينيك الميتتين في فستان من ـ» استدار نحوي متسائلاً: «هذا اللون، ماذا يسمونه يا سيدة أورم؟»

«يسمونه رماد الورود». أجبته وقد غشت الدموع عيني، وكررت مرة أخرة: «رماد الورود».

رفع كونراد نيرلانجر رأسه وأطلق ضحكة لادغة كجلدة السوط. «رماد الورود! تسمية جيدة، ولزوجتي العزيزة، يناسبها الاسم بطريقة شاعرية، أليس كذلك؟ فكما ترين، ورودها مجرد رماد ذاو، صحيح، آنّا؟»

بصمت وتأنٍّ، مشت آنّا نيرلانجر إلى المرآة ووقفت هناك، تحدق بالمرأة في الزجاج. كان هناك شيء رهيب ومتوعّد في الطريقة الهادئة والتأني المقصود

اللذين تفحصت بهما ذاك الانعكاس في المرآة. رفعت ذراعيها ببطء، وأعادت خصل الشعر التي تشعّبت إلى مكانها، تدير رأسها من جهة لأخرى لتدرس التأثير على شكلها. من ثم أخذت من الدرج القليل من البودرة التي أعطيتها إياها، ومررتها بلطف فوق جفنيها وخديها، وتفعل كل هذا وهي تدندن أغنية ما لنفسها. لم يمر على أذني موسيقى بهذه الغرابة. المرأة أمام المرآة نظرت إلى المرأة في المرآة بنظرة طويلة وثابتة وفاحصة. من ثم، ببطء وتأنٍّ، ومع طبقات فستانها الطويلة تجرجر ورائها، مشت حيث وقف زوجها العابس. مشت كالملكات، مرفوعة الرأس نظرتها ثابتة. وقفت بُعدَ شعرة عنه، عيناها بمستوى عينيه، ولنصف دقيقة طويلة وقف الاثنان هكذا، عينا الزوجة الزرقاوان الضابيتان تحدقان بعيني الزوج السوداوين المتجهمتين، وكان هو الأسبق لكسر نظرته، فكل الدم النبيل الذي يجري في عروق آنّا نيرلانجر، وكلّ سلالتها من الأجداد شريفي المولد، قد قدموا لمساعدتها في التعامل مع زوجها ابن الطبقة الوسطى.

«أنت تنسى». قالت ببطء ولكن بوضوح. «لو كانت هذه النمسا بدل أميركا، لم تكن لتنسى. في النمسا، الناس من أمثالك لا يتكلمون بهذا الشكل مع أهل طبقتي».

«هراء!» ضحك كونراد نيرلانجر. «وهذه أميركا، ونحن هنا فيها».

. «صحيح». قالت آنّا نيرلانجر. «هذه أميركا، وفي أميركا كل الأشياء مختلفة. أفهم الآن ما عناه أهلي عندما قالوا إنني لابد جننت لأفكر بتزوج حقير من العامة على شاكلتك».

للحظة، اعتقدت أنه كان على وشك ضربها. أظن أنه بالفعل كان ليقوم بهذا لو هي جفلت، ولكنها لم تفعل. رأسها كان مرفوعاً، عالياً، والنظرة في عينيها لم تضطرب.

«لقد تزوجتكَ بدافع الحب، وإنه لأمر فكاهي، أليس كذلك؟ معك أنت، ظننت أنني سأجد السلام والسعادة وإحياء عقلي وفكري الذي أخمدته التقاليد والزيف والقيود على حياتي هناك. ويبدو أنني كنت على خطأ، خطأ كبير. والآن أنت اسمعني!» كان صوتها متشنجاً لكثرة الحماس فيه. «سيكون هناك فساتين ـ بأي عدد أريد وبأي ثمن أريد. لقد قلتَ العديد من المرات إنك معجب بنساء أميركا، وسترى! سأصير أنا أيضاً واحدة من هاته النساء اللواتي تعجب بهنّ. مالي سيصرف على الفساتين! وعلى القبعات! سيصرف على الأشياء التافهة كالفرو والمخمل والدانتيل! ستتعلم أنك لم تتزوج فتاة ريفية. هذه أميركا، أرض الأحرار يا زوجي! وكما ترى، من هو أميركيٌّ أكثر منّي؟ من؟»

ضحكت ضحكة صغيرة مرتفعة وأتت إلي، آخذة يدي بيديها.

«يا فتاتي العزيزة، اذهبي بسرعة وارتدي ملابسك، فنحن ذاهبون هذا المساء إلى المسرح، ويجب أن تأتي معنا. لن يكون هناك أي إزعاجات، أعدك بهذا. زوجي سيرافقنا، بكل رضى، أليس كذلك يا كونراد، بكل رضى؟ حسناً إذن!»

فكرت فوراً بأن أرفض، ولكنني لم أجرؤ، لهذا هززت رأسي فقط خوفاً من العقدة في حلقي. من ثم أخذت يد السيدة نابف لأهرب معها. السيدة نابف كانت تتمتم بجمل ألمانية بلهجتها الأصلية، جمل فيها تعجب واستياء، وتمسح الدمع من عينيها بإزارها. أما أنا فارتديت ملابسي بأصابع مرتجفة، لأنني لم أجرؤ على التخلي عن تلك المرأة النمساوية الشجاعة، المحلية المرحة التي، وبعد ارتداء فساتين أميركية جديدة، طوّرت لنفسها جرأة أميركية حقيقية.

الفصل الحادي عشر

منذ مساء انفجاري الهيستيري، لم أرَ شيئاً من فون جيرارد. في يوم عيد الميلاد، أتت إلى غرفتي علبة من الورود لضخامتها لم أستطع إيجاد ما يكفي من الأصُص لوضعهم فيها، ولكني استعملت كل شيء من المرطبانات في المطبخ لكؤوس ملونة بشعة جلبتها من محل الحلوى. وحتى بعد أن أعطيت باقة للسيدة نيرلانجر، وشبكت وردة في شعر السيدة نابف الملفوف في أعلى رأسها بقسوة حيث تدلت الوردة من غير ثبات، فقد ظل عندي ما يكفي من الورود لملأ حوض الغسيل. بدت غرفتي كحجرة مغنية أوبرا في انتظار عدة صحافيين لإجراء الكثير من المقابلات معها. استمتعت بعطر الورود الفواح وشعرت بلفح شرقي، وبأنني مرفّهة ومشهورة.

لقد كان أسبوعي صاخباً وسعيداً ومليئاً بالعمل، وقد سرقت منه لحظات قليلة لأنتقي هدايا وألعاباً جميلة للعفريتين الصغيرين. كان هناك دمى وملابس دمى ومطبخ مُصغَّر جميل لشيلا الواثقة العملية، ومجموعة من اللعب عبقرية التصميم التي تقوم بأشياء لا تصدق حين تُفكك، وهذه لهانز الذكي صاحب المخيلة الكبيرة. لن أنعم برؤية عيونهما تتفتح وتتسع من الفرح، ولكنني عرفت أنه ستصلني رسائل مهذبة منهما، مليئة بأحرف مخربشة وخطوط منزلقة يعبران فيها عن شكرهما لخالتهما العجوز اللطيفة التي جلبت لهما السعادة الصيف الماضي.

أعياد الميلاد في النزول والبيوت الخاصة أضحت قصصاً قديمة بالنسبة لي.

لقد تعلمت أن أتقبلهم، حتى مع تلك الأجزاء الغامضة والغريبة من ديك الحبش التي لا تُرَى إلا في صحون شقق النزول، والتي لا يمكن أن تُمَيَّز في أي جزء منها على أنها تنتمي للحم ذلك الطائر الضخم.

عيد الميلاد عند نابف كان مفاجأة سعيدة، يوم مليء بفرح قلبي ولطف، وحتى أنه كان هناك شجرة عيد ميلاد، معلق عليها ملائكة ألمانيون سِمان وبسكويت بندق وكعك بكريمة وردية. وجدت نفسي المتلقية المدهوشة لهدايا من الجميع ـ من الزوجين نابف، ومن المحليين، وحتى من واحدة من الزوجات الحزينات. المحليّ الذي ينادونه فريتز قد قدم لي رغيفاً ضخماً من خبز الزنجبيل موضوعاً في علبة بحواف مزركشة، ومزيّناً بشخصيات ألمانية خضراء وحمراء، ومطبوع عليها بحروف سميكة اسم (نُرنبيرغ)، فقد قطعت هذه العلبة ورغيفها كل تلك المسافة إلى هنا من المدينة المشهورة بكعكها. وضعت رغيف الخبز هذا على الرف فوق الموقدة بما يتناسب مع شيء بهذه الروعة. لقد كان الرغيف متقن الصنع وجميلاً لدرجة لم أستطع معها أن أعامله كباقي الطعام، ورغم هذا فقد كانت له رائحة بهار عذبة أغرتني بكسر قطعة من هنا أو هناك.

في مساء يوم عيد الميلاد، جلست لأكتب رسالة أشكر فيها الطبيب فون جيرارد على كل تلك الورود بأجمل طريقة ممكنة. وسألته السماح، أيضاً، ولم يكن الأمر صعباً وقد غرقت غرفتي وامتلأ أنفي برائحة وروده.

«لأجلك»، كتبت. «أنت الحكيم العارف بأحوال تلك الأعصاب اللعينة، يجب أن تعرف أن ما جعلني أقول تلك الأشياء التي لا تليق بآنسة، لم يكن إلا هيستيريا بسيطة. لقد كتبت لنورا رسالة أخبرتها فيها بكل شيء، وقد نصحتني بأن أثبت مكاني في دور الصاحب، ولكن أن أتجنب ارتداء الزي المعتاد لهذا الدور. لذلك، عندما تراني المرة القادمة، سأكون رفيقة بمعطف وبكامل قواي العقلية. وها أنا أعدك، لا مزيد من الانفجارات».

وقد حصل أني وفون جيرارد، في مساء عيد رأس السنة، تمنينا لبعضنا، بكل جدية، الكثير من السعادة والأشياء المستحيلة للسنة القادمة، وفعلنا هذا ونحن نحدق بكل صدق وجسارة في عيني بعضنا.

تكلم فون جيرارد، وقد كان الرضى بادياً في صوته. «إذن، أعصابك هادئة اليوم. ما رأيك بأن نذهب في مشوار سريع على طول البحيرة ليضعنا في مزاج السنة الجديدة، وبعدها نذهب لتناول العشاء في مطعم ما، ونرفع نخب نورا وماكس؟»

«أنت منقذ حياتي! اجلس هنا وتمعَّن في ورق الزينة البرتقالي بينما أضع أنا البودرة على أنفي وأرتدي ملابساً للخروج. لدي قصة كبيرة لأخبرك إياها! لقد جعلَتني راضية عما أمتلك».

والقصة كانت عن آل نيرلانجر، وبينما نازعنا الريح الباردة على طرف البحيرة، أخبرته بها. تجمعت الدموع في عيني بمجرد انتهائي من روي الأحداث، قد يعود ذلك للريح، ولكن أيضاً بسبب القصة. حدق فون جيرارد فيّ مشدوهاً.

«ولكنك ـ تبكين!» تعجب وهو يراقب دمعة تنزلق على أنفي.

«لا لست أبكي». أجبته. «وعلى كل حال فأنا أعرف، أعرف أن لي الحق بالانتحاب كما أريد، كباقي النساء، صحيح؟»

«انتحاب؟» كرر فون جيرارد، وأخذ يتكلم بإنجليزيته الحذرة والمتأنية. «بالتأكيد تستطيعين، إن أردتِ. لقد كنت أعتقد أن الصحافيات لا يستغرقن في امتياز البكاء».

«لا يفعلن، في الكثير من الأحيان. لا وقت لدينا. إن انفجرت صحافية بالبكاء في كل مرة رأت شيئاً مسبباً لذرف الدموع، فستقضي أغلب يومها بأنف أحمر وجفون منتفخة. يندر أن يمر يوم بدون أن تواجه فيه أشكالاً وألواناً من العذاب

البشري. هي لا ترى هذه الأشياء فقط، ولكنها يجب أن تكتب عنها أيضاً ليقدر القرّاء على رؤية ما رأته هي. وفقط لأنها لا تنوح ولا تنتف شعرها ولا تفقد الوعي، يظن الجميع أنها لابد مخلوقة متحجرة القلب تدخن طيلة الوقت وتعيث فساداً في الأرض، باحثة عن أحد لتمزّقه بقلمها، وتراقب، بعيون جافة وباردة، مشاهد سفك الدماء».

«ومع هذا مأساة آل نيرلانجر تجلب الدموع لعينيك؟»

«أوه، الأمر هنا مختلف. قصة آل نيرلانجر لا علاقة لها بدون أوهارا الصحافية والمراسلة، فقط دون أوهارا المرأة التي شهدت تلك المأساة الصغيرة. يا إلهي! أ كلُّ الأزواج الألمان هكذا؟»

«ليس الكل، لدي صديق جيد اسمه ماكس ـ»

«أوه ماكس! ماكس زوج ملاك. تخيل نورا وماكس واقعان بأزمة زوجية بسبب فستان! ولكن أنت ـ»

«أنا؟ هيا، أنت أقسمت على الصحبة الجيدة، فمن رفيق لآخر، قولي لي، أي نوع من الأزواج تتخيلينني؟ نوع نيرلانجر الغليظ، أو من الفصيل الساحر الذي ينتمي له ماكس؟ هيا أخبريني، أنت يا من ـ يا من دائماً قادرة على الاهتمام بنفسها». عيناه كانتا تلمعان بتلك الطريقة المميزة.

جلت ببصري على امتداد البحيرة، حيث كان خط مهيب من الأمواج يتراكم ويرتفع لينتهي مكسوراً ومبدداً عند الحائط حول البحيرة، وفي رؤية هذا المشهد، نمت بداخلي رغبة بالكسر والتبديد، تلك الغريزة الوحشية واللامنطقية عند النساء التي تدفعهن لإيذاء من يحببن.

«أوه أنتَ!» بدأت، بينما عينا فون جيرارد تنظران لي من الأعلى بمرح وضحكة مكتومة. «عليّ أن أقول إنك ستكون على شاكلة نيرلانجر، بطرقك الألمانية الفظة

الحجرية. لا يعني هذا أنك قد تقلل من شأنك لدرجة النزاع على مجرد فستان، بل يعني أنك ستتحكم بهذه الأشياء. ستكون زوجتك آنسة ألمانية شقراء وسمينة ووديعة، من عائلة ممتازة وبدون ذرّة خيال. الرجال من نوعك دائماً ينتقون زوجات سلبيّات. من عشرين سنة، كانت لتركض وتجلب لك جريدتك وشحّاطتك. سيكون هذا نوعها، لو مازال هناك رجال من نوع الجريدة والشحّاطة في الوجود. ستكون قريبة من قلبك، وستعاملها بطريقة لطيفة فوقية، وهي لن تعرف في حياتها الفرق بين هذا وبين أن تُحَب فعلاً، كونها لا تملك الكثير من الخيال، كما قلتُ سابقاً. أنت ستتابع حياتك وتزداد شهرة على شهرة، وهي ستزداد سمنة ووداعة، وشيئاً فشيئاً سيقلُّ فهمها للأشياء التي غالباً ما تقولها المجلات الطبية الهزلية عن زوجها دائم الاكتشافات، وستعيشان بسبات ونبات ـ»

قبضت يدٌ على كتفي. نظرت للأعلى مشدوهة ورأيت عينين زرقاوين مشتعلتين تحدقان في عيني. كان وجه فون جيرارد ممتقعاً بلون أحمر مؤلم. أعتقد أن اليد على كتفي زعزعتني قليلاً، هناك على الضفة المهجورة والمظلمة للبحيرة. حاولت أن أحرك كتفي وأحرره من القبضة، وصحت فيه. «أنت تؤلمني!»

رعشة من الألم مرّت على الوجه الذي دائماً ما ظننته هادئاً وخالياً من المشاعر. «تتكلمين عن الألم! أنت، من قررت وبكل شرٍّ متأن ومقصود أن تجعليني أتعذب! كيف تجرئين على التكلم معي هكذا! أنت تغرزين بألف سكين ـ أنت، التي تعرفين أنني أنا ـ»

«أنا آسفة». قلت مقاطعةً. «أرجوك، لا تأخذ الموضوع بكل هذه الحدّة، ففي النهاية أنت من سألني، ألم تفعل؟ لعلي جرحت ثقتك بنفسك، وهذا أيضاً شيء لم أعني فعله. خلص، دعنا نتكلم عن شيء غير شخصي. علاقتنا سيئة جداً هذه الفترة».

اختفت الحمرة الغاضبة تدريجياً من وجه فون جيرارد، وتنحّى انّقاد الغيظ

في عينيه، تاركاً مكانه ضياءً أعمق وأكثر إشراقاً كان قد قيّدني بسحره. ارتسمت على شفتيه ابتسامة حلوة، اليد التي قبضت على كتفي انزلقت للأسفل والأسفل حتى التقت بيدي وأمسكت بها.

«لا بأس يا حلوة. أولئك الذين نحبهم كثيراً ما نؤذيهم. عندما اعترفت لك بحبي، رغم أنك كنت تعرفين به أصلاً ـأعرف أنك ستعترضين. صه! لا تنكري هذا الشيء، لا مزيد من الأكاذيب بيننا، سيكون هناك الحقيقة فقط. ولا مزيد من الكلام عن زوجات ألمانيات شقراوات سمان يركضن مع الجريدة والشحّاطة. على كل حال، فهذا ليس سرّاً، فأنا قد أخبرت نورا به منذ ثلاثة شهور. لم تتفاجأ نهائياً، ولكنها تثق بي».

شعرت بوجهي يصير ببياض وتشنج وجهه. «نورا... تعرف!»

«من الأفضل أن تُقال هذه الأشياء، فلا يحتاج المرء لاستراق النظرات، واستخدام الكلمات المموهة أو الخدع والذرائع».

لقد استدرنا وتعقبنا خطواتنا، متخطين صفوف البيوت المميزة بدفئها ورحابتها التي تمتد على طول ضفة بحيرة ميلواكي الرائعة. النوافذ كانت مزينة بالألوان البرتقالية والخضراء، وهنا أو هناك قد ترى وجهاً ينظر من النافذة بعيون تراقب الرجل والمرأة اللذين يمشيان مسرعين على التلال المرتفعة المخيمة على امتداد البحيرة.

انتشر شعور بالتمرّد العنيف في داخلي وأنا أحدق في هدوء تلك البيوت العادية والسعيدة.

«لماذا قلتَ لي! أي خير سيأتي من هذا؟ على الأقل كنا ندّعي الصداقة سابقاً. افترض لو قلت لك إن المشاعر متبادلة، ماذا ستفعل حينها؟»

«أنا لا أطلب منك أن تقولي لي هذا». أجاب فون جيرارد بصوت منخفض.

«ولا تحتاج لأن تطلب مني ذلك، وأنت تعرف. أنت تعرف منذ فترة طويلة. أنت تعرف أني أحب السكون الشاسع فيك، وثقتك، وطريقتك الألمانية تلك في قلب الجُمل على بعضها، وقبضة يدك الثابتة، ونُدرة ضحكتك، وكل تلك البساطة التي فيك. وأحب حتى النظافة في بشرتك الحمراء، والشكل الذي ينمو فيه شعرك مبتعداً عن جبينك، ومشيتك، وصوتك ـ آخ ما الفائدة من كل هذا؟»

«الفائدة أمامنا يا دون. ضوء النهار يحلّي كل الأشياء. لقد سحبنا ما بيننا إلى ضوء الشمس، حيث إذا نمى، سينمو بشكل صحيّ ومنطقي. محاولة زرع شتلات مريضة في عتمة ووحدة أقبية وعينا الداخلي كان عملاً سيئاً وبشعاً ومشوّهاً. معرفة نورا بالأمر كان أنظف وأحلى شيء في هذا الحب».

«ما أروعك كيف تفهم نورا، وكم أنت على حق! معرفة نورا بالأمر تبدو كأنها تجعل الأمر كما يجب أن يكون، أليس كذلك؟ من الآن أحس أنني أشجع لمعرفتي بحبك. هل سيصير هناك فرق في علاقتنا؟»

«لن يكون هناك فرق في علاقتنا يا دون». قال.

«لا، بالتأكيد. فقط في القصص يتنهدون ويتأوهون، ويتلفظون بالكلمات السخيفة، ونحن لسنا كذلك. لربما، بعد فترة، ستلتقي بواحدة تهتم لها كثيراً ـ ليست سمينة، أو شقراء، أو ألمانية، ربما، ولكن ـ»

«أليست هذه قلة احترام منك؟»

«يجب أن أقول هذه الأشياء لأكبح الدموع، فمهما يحصل لن أنتحب هنا في الشارع. قل لي شيئاً واحداً فقط، ولن يكون هناك المزيد من انقطاع الأنفاس واستراق النظرات المضنِ. قل لي، متى بدأت تهتم بي؟»

فقال هو، بكل بساطة: «منذ اليوم الذي تعرفت فيه عليك عند نورا».

حدقت فيه، مشدوهة، حس الفكاهة المقيم فيّ ينازع للخروج إلى السطح.

«لا يمكن... لا يمكن أن يحصل هذا في اليوم الذي دخلت فيه غرفتي حيث كنت أنا أجلس على كرسي بجانب النافذة، وبطانية عليها ورود مخيمة فوق كتفي! وآلام الحمّى نافخة فمي! ولون بشرتي كلون الجبنة، وخصل شعري ملتصقة ببعضها، وعيني كالبصل المغلي!»

«أشكر اللّه على نعمة ضحكتك». قال فون جيرارد، وأخذ يدي بيده للحظة قصيرة قبل أن يستدير ويمشي مبتعداً.

بحركة درامية فتحت الباب الرئيسي الكبير لنزل نابف، لأجد السيد نابف نفسه واقفاً في البهو.

«مساء الخير يا سيدة أورم».

كانت هناك الرائحة الجميلة والمهدئة للحم العجل، وأصوات الهمهمة في الجو. ركضت إلى الطابق العلوي متجهة نحو غرفتي، وأشعلت كل الأضواء، ونظرت إلى المرآة لأحدق بالمخلوقة التي أمامي، والنجوم في عينيها. من ثم، أخذت أكبر وأجدد صورة لنورا عن رفّ الموقدة وحدقت فيها لدقيقة طويلة، بينما حدقت هي بي بأسلوبها الجريء والشجاع.

«شكراً لك يا عزيزتي». قلت لها. «هل ستظنين أنني سخيفة ودرامية لو قبّلتك، مرة واحدة، على عينيك الجميلتين الواثقتين؟»

سمعت صوت رنة الهاتف من الأسفل، وصوت السيد نابف زارعاً نفسه عند أسفل الدرج، وزأر بقوة، منادياً عليّ لأنزل.

أخذت السماعة منه. «معك إرنيست». قال الصوت من الجهة الأخرى للسماعة. «لقد تذكرت للتو أنني دعوتك لتناول العشاء في وسط المدينة».

«أفضل أن أشكر ربي وأصوم». أجبته برقة شديدة، وأعدت السماعة إلى مكانها.

الفصل الثاني عشر

في زاوية محمية من الجفاف والضوء الساطع من غرفة السيدة نيرلانجر، كان يوجد سرير خشبي صغير، مدهون بالأزرق ومزخرف بورود متفتحة قد محيت مع الزمن وكثرة الاستعمال. كل مساء في تمام الساعة الثامنة تقيم ثلاث نساء قلقات اجتماعاً ملفوفاً بأصوات خافتة حول السرير القديم، بينما ساكن السرير ينام ويبتسم وهو نائم، ويضم إلى صدره دبدوباً صوفياً مهترئاً. لقد وصلت إلى السيدة نيرلانجر الحزينة فرحة جديدة، وكنت أنا، ومن غير قصد، من جلبها إليها. السرير الأزرق الصغير الغريب، بوروده الممحية، أُنزل من السقيفة بيدي السيدة نابف، فقد كانت هي إحدى المتبنيّات الثلاث لساكن السرير الصغير. ساكن السرير اسمه بِني، وقد شُكِّل تنظيم بهدف تربيته كما يجب أن يُربّى، وقد تضمن هذا التنظيم: دون أوهارا أورم، رئيسة التنظيم والمربية دائمة انشغال البال؛ السيدة نيرلانجر، المسؤولة الرئيسية عن تقديم الأحضان والسلطة العليا فيما يخص موعد نوم بِني؛ السيد بلاكي جريفيث، الملاك الخيّر، والعقيد المتكفل بمراقبة بِني وانتقاء ألعابه وربطات عنقه؛ الدكتور إرنيست فون جيرارد، مدير الاستشارة الطبية وممولّ التنظيم وله امتياز اختيار كل الحلويات. أعضاء التنظيم يجتمعون بكثرة في المساءات والآحاد، وكل هذا على حساب رواية معيّنة يجب أن تُكتب، والتي تعاني دون أوهارا من كتابتها في كل المساءات.

بِني كان واحداً من تلك المآسي التي تجد نفسها وقد أحيلت إلى محكمة الأحداث. قصة بِني كانت كثيرة الحصول، ولكن بِني نفسه كان مختلفاً. عشر

دقائق بعد ظهوره الأول في المحكمة، كل الناس، من القاضي الضخم الأصلع إلى أجدد موظف مراقبة للسلوك، وقعوا في حبه. لسبب ما، تأتيك رغبة في تمسيد شعره وردّه عن جبهته، ورغبة في أن ترفع وجهه الصغير الشاحب، وبكل رقة ولطف، تقبّل جبينه الأبيض الناعم. هذا وحده كان كافياً ليميز بِني، فأطفال محكمة الأحداث هم حُكماً غير قابلين للتقبيل.

لقد اتُهمت والدة بِني بأنها غير مؤهلة لتربية ابنها، ولهذا وضع بِني لفترة مؤقتة في مركز الاحتجاز. هناك، وقع الرقيب المشرف وزوجته الحنونة السمينة في حب الولد، وجعلاه يرتدي بذلة صغيرة أنيقة، وربطة عنق حريرية مزخرفة. كان هناك تأجيل في القضية، وإرجاء بعد إرجاء، لهذا أتى بِني إلى غرفة المحكمة كل ثلاثاء لأربعة أسابيع متتالية. المراسلون وموظفو مراقبة حسن السلوك ورجال الشرطة أصبحوا لطيفين جداً مع بِني، وأغدقوا عليه بسنتات جديدة مشعّة وحلويات رائعة. آرنيت، الرقيب المشرف في مركز الاحتجاز، كان فخوراً بالصبي وكأنه ابن له، وعندما ينظر بِني بخجل وتساؤل إلى وجهه طالباً الإذن لقبول كل العطايا المقدمة له، يضحك الرقيب المشرف الضخم بمرح وسعادة. كان لِبني وجه كاريزميّ غريب وجوده في طفل بمثل سنّه، وله جبين أبيض، وقسط من النعومة لم أره في حياتي.

الكوميديا والدموع والحزن والضحكات في قاعة المحكمة ذات الجدران البيض كانت أكثر مما يستطيع بِني تحمله. كانت عيناه تتنقلان في القاعة، زرقاوان وحائرتان، من ثم، مقتنعاً أن الوضع أكبر بكثير من قدرته على الفهم، يلجأ إلى رسم دوائر وأقواس على شقفة ورقة بقلم رصاص أصفر كبير أهداه إياه أحد الصحافيين.

كل ثلاثاء كانت تحشى صفوف المقاعد بجمهور متنوّع من البولنديين والروس، السلافيين والإيطاليين، اليونانيين واللتوانيين؛ جموع مكونة من الآباء

والأمهات، الأخوات والأخوة، العمات والأعمام، الجيران والأصدقاء والأعداء للصبيان والبنات الذين عُلِّق قدرهم في يدي الرجل الضخم الجالس على الكرسي الدوّار في صدر الغرفة. ولكن والدة بِني لم تكن جزءاً من هذا الجمع، هذا الجمع المثير للشفقة الذي يملأ القاعة بالرائحة القوية الخانقة للفقراء. وحتى بِني لم يكن بينهم، بل كان يجلس بعينين مضيئتين وبدون ابتسامة في قلب كرسي كبير على الجانب الآخر من القاعة، واستقبل بكدرٍ الاهتمام الموجّه إليه من قبل المحامين والمراسلين وملحقي قاعة المحكمة الذين أحبوا وتعلّقوا بالصبي الصغير الحزين.

من ثم، وفي خامس ثلاثاء، ظهرت والدة بِني. كيف كان لتلك المرأة أن تكون أم هذا الولد اللّه فقط يعلم ـ أو لعل لا يد له في الموضوع. كانت المرأة مرعوبة وعلى أعصابها، وكان وجهها مجروحاً ومتورّماً، وتحت إحدى عينيها كان يوجد تورم أخضر وأزرق منتفخ. قصتها البائسة متكررة الحدوث، كما قال لنا موظف مراقبة حسن السلوك. المرأة هذه كانت تعيش في غرفة واحدة بائسة مع الصبي، وقد هجرها زوجها. ولم يكن عندهم طعام ولا يمتلكون سوى بعض الأثاث. أغرب تفصيل في كل هذا، كما قال لنا موظف مراقبة حسن السلوك، هو أن المرأة استطاعت المحافظة على نظافة الصبي ومظهره المرتب، أياً كان وضعها هي، وأغلب الأحيان كان يحصل على الطعام، رغم أن الأم قد تقضي أياماً بدون أكل أي شيء. وخلال الفاقة والبؤس والذل في حياتها، فقد ظل بِني، وبشكل ما، غير ممسوس، معصوماً عن الحال المزرية.

همهم القاضي ويلينغ ونظر إلى بِني. كان الصبي يقف بجانب أمه، هادئاً جداً، وعيناه تبتسمان للمخلوقة المرهقة التي كانت تحارب لأجله. «أظن أننا سنضطر لإبعادكِ عنه». قرر القاضي فجأة. «هذا الصبي يستحق حياة أفضل».

المرأة المصدوعة الثملة الواقفة أمامه لم تفهم مباشرة المعنى الكامل

لكلماته. ظلت واقفة هناك، تتمايل قليلاً، وتحدق ببلاهة في القاضي. من ثم، وبشكل مفاجئ، أدركت ما يحصل. أخذت خطوة سريعة للأمام، ارتفعت يدها إلى صدرها، ثم عنقها، ثم شفتيها، حركة غريبة مخنوقة.

«لا تأخذوه وتبعدوه عني! لا تأخذوه مني! لا لن تفعلوا هذا صحيح؟ ليس دائماً ـ ليس للأبد! لن تفعلوا هذا ـ لا تفعلوا ـ»

لوّح القاضي ويلنيغ بيده ليفهمها أن الموضوع انتهى، ولكن المرأة جثت على ركبتيها.

«أيها القاضي، أعطني فرصة! سأتوقف عن الشرب، أي شيء لكن لا تأخذوه مني! أيها القاضي أرجوك! هو كل ما عندي في هذا العالم. أعطني فرصة. ثلاث شهور! ست شهور! سنة!»

«انهضي!» أمرها القاضي ويلينغ بقسوة. «وتوقفي عن هذا! لن يفيدك التوسل في شيء».

بعد كلامه هذا، شيء مذهل حصل. نهضت المرأة على قدميها، وملامح جديدة وغريبة من الكرامة مسحت وجهها، وكأنّ سحراً محى خطوط الخطيئة والمعاناة، وبدت المرأة كأنها صارت أطول، أكثر شباباً، وحتى أجمل. عندما عاودت الكلام، فعلت هذا ببطء وتأني، كلماتها معتوقة من لثغة الحانة وعامية الشارع.

«أقول لك إن عليك إعطائي فرصة. لا تستطيع أخذ طفل من أمه بهذه الطريقة. أقول لك، إن ساعدتني سأقدر على الزحف لأعود من الدرب الذي سلكته. لم أكن دائماً هكذا كما تراني، كان لي حياة أخرى قبل ـ قبل... ولكن منذ ذلك الوقت عشت سنيناً من السواد والجوع والبرد، وأسوأ! ولكن في عمري لم أجر الصبي معي فيها. انظر إليه!»

تنقّلت عيوننا من وجه المرأة المهشّم إلى وجه الصبي، والآن كان بوسعنا تقفّي أثر شبه رائع بينهما، كما لم نقدر من قبل. المرأة تابعت الكلام بشكل ثابت ومتدفق.

«لا أستطيع الكلام كما يجب، لأن عقلي ليس صافياً، من الشرب. عندما تشرب، تنسى. لكن عليك مساعدتي. لا أقدر على فعل هذا بنفسي. أستطيع أن أتذكر كيف أعيش كما يجب، مثلما أستطيع أن أتذكر كيف أتكلم كما يجب. دعني أثبت لك أن ليس كل ما فيّ سيءٌ. اعطيني فرصة. خذ الصبي وأعده لي عندما تصير راضياً عن وضعي. سأحاول، ووحده اللّه يعلم كيف سأحاول، ولكن أيها القاضي لا تأخذه مني للأبد! لا تفعل هذا!»

مرر القاضي ويلينغ أصبعاً متوتراً حول حافة عروة قميصه. «لديك أي أصدقاء يعيشون هنا؟»

«لا! لا!»

«متأكدة من هذا؟»

«كل التأكد».

«والآن اسمعي هنا، سأعطيك فرصتك. سآخذ هذا الصبي منك لمدة سنة، وخلال هذه الفترة ستتوقفين عن الشرب وتصيرين امرأة محترمة وقادرة على إعالة نفسها. سأضعك تحت مسؤولية واحدة من مراقبي حسن السلوك، ستجد لك عملاً وبيتاً جيداً، وستقف بجانبك، وواجبك أنت أن تبلغيها بكل شيء. إن كانت راضية عنك في نهاية السنة، يعود الصبي إليك».

«ستكون راضية». قالت المرأة ببساطة. انحنت للأسفل وأخذت وجه بِني بين يديها وقبلته مرة واحدة. ثم تنحّت جانباً ووقفت ساكنة، تراقب الطفل الصغير وهو يخرج من قاعة المحكمة، يده بيد شرطي ضخم وحنون، وظلت تراقبهما حتى فُتح باب القاعة ليخرجا منه، ومن ثم أغلق خلفهما.

بعد هذا كله، بالنسبة لي، كانت الحادثة كلها مجرد قصة أخرى لأكتبها للصحيفة. قصة جيدة لأكتب عنها مقالة. ذلك المساء، حدّثت السيدة نيرلانجر عن القصة، وقد بكت بصمت ومرمرت: «ذاك الطفل المسكين، كصغيري أوسكار، بدون أم». وأخبرت إرنيست أيضاً، وبلاكي كذلك، وهذا لأنني لم أستطع طرد وجه الصبي الحزين من ذهني. تساءلت إن كان هؤلاء المسؤولون عنه الآن سيأخذون الوقت لغسل جسده الصغير، وتمشيط شعره الناعم حتى يلمع، وعقد ربطة عنقه الحريرية بالحب نفسه كما فعل «بابا» آرنيت في مركز الاحتجاز.

من ثم، كنت أنا ـ وبدون أي تخطيط مسبق أو تفكير ـ من دخل إلى حياة بِني.

كان هناك احتفال سنوي، أو تغيير في مجلس الإدارة، أو طبقة دهان جديدة، أو شيء من هذا القبيل في واحدة من دور الأيتام، وكتابة المقالة وقعت عليّ. وجدت دار الأيتام شبيهاً بالأبنية على شاكلته ـ مبنى ضخم وكئيب مصمم كسجن. المرأة عند المدخل الرئيسي لم تهتم مطلقاً بالسماح لي بالدخول. كانت امرأة بفم سمكة وعينين حادتين، وعندما قلت لها هدف مجيئي، زمّت شفتيها أكثر وازدادت عيناها حدة. أخيراً، قادتني في بهو طويل ومظلم لا يمرّ عبره أي تيار هواءي، وافترقت عني لتبحث عن رئيسة الدار، وتركتني جالسة في قاعة استقبال خالية من أي ودّ، مقاعدها ذات ظهور مستقيمة، مصفوفة ببرود على طول الحائط، تخيّم فوقها صور وأيقونات دينية زرقاء وحمراء وبرتقالية.

عندما بدأت أتساءل في نفسي عن سبب استحالة أن يكون الشخص متديّناً وحبوراً في الوقت نفسه، سمعت وقع خطوات متتالية قادم من البهو. في اللحظة التالية، وقفت رئيسة الدار عند الباب. كانت مبنية كجبل، امرأة بوجه أحمر وثآليل على أنفها.

«مساء الخير». قلت بلطف، ولكن صوتي الداخلي كان يقول: «آغغغ ما

أغلظها!» أخذت أشرح لها سبب قدومي، مكررة ما قلت للمرأة الأولى. نقدٌ للدار؟ تساءلتْ. بالتأكيد لا، طمأنتها. أخيراً، وبعد أن تيقنت من عدم اهتمامي، قادتني بتردد في المبنى الضخم الموحش. كان هناك عدد لانهائي من الأدراج، وعدد لانهائي من الغرف الخانقة الفاقدة للتهوية. بقينا نسير حتى وصلنا إلى باب فتحته هي بعنف، كاشفةً عن غرفة نوم الأطفال. بدا لي وكأن هناك المئات من الأطفال ـ أطفال في كل مرحلة من النمو، في كل الأحجام، في كل الأعمار والأشكال. نظروا كلهم نحو انفتاح الباب، وحصل بعد هذا شيء مريع.

كل طفل قادر على المشي أو الزحف تحرك مسرعاً نحو أبعد زاوية، وبقي صامتاً، ساكناً بعيون مفتوحة على وسعها وملامح الخوف والترقب اعتلت كل وجه.

للحظة، توقف قلبي عن النبض. التفت لأنظر إلى المرأة الواقفة بجانبي. شفتاها النحيلتان كانتا مزمومتان في خط مستقيم قاس. تلفّظتْ بكلمة ما لإحدى المربيات الواقفات على مقربة منا، وأخذت تتمشى في الغرفة وتعاين الأطفال بعينين حادتين. مدت يداً لتضعها على رأس طفل صغير أحمر الشعر بإزار متسخ، ولكن قبل أن تصل يدها إليه، رأيت الطفل يتفادى اليد، ويداه الصغيرتان بدورهما طارتا لقمة رأسه، كأنه يحمي نفسه.

«إنهم خائفون منها!» قال لي قلبي المتألم. «هؤلاء الأطفال خائفون منها! ماذا تفعل لهم؟ لا أستطيع تحمّل هذا، سأرحل».

تمتمت كلمة شكرٍ سريعة للرئيسة السمينة وأنا أستدير لأترك الغرفة الكبيرة الفارغة. على رأس الدرج كان يوجد باب أسود ضخم. وقفت أمامه ـ ووحده اللّه يعلم لماذا! ـ أشرت إليه. «ماذا يوجد في هذه الغرفة؟» سألتها.

منذ تلك اللحظة تساءلت كثيراً عن القوة الخفية التي دفعتني لأن أتلفظ بذاك السؤال.

الرئيسة الضخمة تابعت مشيها، المفاتيح تقرقع أثناء سيرها. «أوه ـ هنا، نضع الأولاد مستحيلي الإصلاح».

«أيمكنني رؤيتهم؟» سألتها، مرة أخرى مدفوعة من صوت داخلي.

«هناك واحد فقط في الداخل». قالت هذا وفتحت الباب غصباً عنها، مستعملة لذلك واحداً من المفاتيح الضخمة المتدلية من حزام على خصرها. اندفع الباب الأسود الثقيل للوراء، وأخذت خطوة داخل الغرفة الخالية، ضوؤها الوحيد قادم من نافذة صغيرة. في أبعد زاوية، قرفص مخلوق ما، وقد تحرك ونظر إلى الأعلى حين دخلنا. حدق المخلوق فينا وقد اعتلت وجهه تعابير بشعة من الخوف والتمرّد، وأنا حدقت فيه، في الضوء الخافت. خلال ثانية مريعة، مقطوعة النفس، بقيت أحدق بينما توقف قلبي عن النبض.

ثم، صرخت: «بِني!» وركضت نحوه متعثرة. «بِني يا عزيزي!»

المخلوق الصغير الأشعث، بملابسه النيويوركية المتسخة، وشعره المشمِس المهمل، وربطة عنقه الجميلة ملوثة ومبللة، ركض نحو ذراعي بصرخة مجنونة وكلمات غير مفهومة. جاثية على ركبتي في الغرفة الفارغة بأرضيتها العارية، احتضنت الصبي إلى جسدي، وذراعاه حول عنقي معقودتان كأنه لا يريد فكهما أبداً.

«خذيني! خذيني!» خده المبلل كان ملتصقاً بخدي حيث بدأت الدموع تنهمر. «أريد أمي! أريد بابا آرنيت! خذيني من هنا!»

مسحت دموعه بكم قميصي، وحملته بين ذراعي، وبدأت السير نحو الباب، وكنت قد نسيت أمر رئيسة الدار السمينة.

«ماذا تظنين أنك فاعلة؟» سألتني وقد سدّت مدخل الباب بجسدها الضخم.

«سآخذه معي خارج الدار. أرجوك دعيني! سأهتم به حتى تنتهي السنة! لن يزعجك بعد اليوم».

«يستحيل هذا». ردت ببرود. «لقد بُعث إلى هنا عن طريق المحكمة ولمدة سنة، ويجب أن يبقى هنا. وعلى كل حال، فهو طفل عنيد وأهوج».

«أهوج! هو أبعد ما يكون عن هذا! لماذا لا تعاملينه كما يجب أن يعامل طفل بدل معاملته كحيوان صغير؟ أنت لا تعرفينه! لم أرَ طفلاً أكثر لطفاً منه ـ وهو أصلاً مجرد طفل! ألا ترين هذا؟ مجرد طفل!»

لم تفعل المرأة أكثر من التحديق فيّ باحتقار، عيناها الخنزيرتان تصغران وتزدادان لمعاناً.

«أيتها الغليظة ـ الضخمة ـ ال...!» زعقت فيها كطفلة غاضبة. والدموع تسيل على وجنتي، فككت يدي بِني الباردتين من حول عنقي، ولكنه تمسك بي، محموماً وخائفاً، حتى اضطررت لإزاحته بعيداً عني والركض خارج الغرفة.

شدت المرأة الباب لتغلقه، ومن ثم قفلته. ورغم سماكة الباب، استطعت أن أسمع صوت قبضات بني الصغيرة الضعيفة تضرب صفيح الباب، وأنا أسرع وأتعثر على طول الدرج، وصوت بني يصل إلى أذني ضعيفاً، مخنوقاً خلف سماكة الباب وثقله، وهو يصرخ لي بأن آخذه معي إلى أمه، وإلى بابا آرنيت.

أمضيت الطريق كله أنوح في السيارة حتى صار الكل يحدقون بي، ولكني لم أهتم. عندما وصلت إلى مبنى الجريدة أسرعت مباشرة نحو مكتب بلاكي المليء بالدخان. عندما انتهيت من إعادة القصة على مسمعه، تركني أبكي فوق مكتبه، ورأسي مدفون في كومة من الصور ودموعي تسقي علبة اللاصق الصغيرة. جلس هو يدخن صامتاً، وأخيراً أخذ يتفلسف مستعملاً لهجة لطيفة.

«والآن يا فتاة، هو على الأغلب بحال أفضل بكثير هناك عما كان عليه في البيت مع أمٍّ سكرانة كل الوقت. لعله يسبب مشاكل لرفيقتك رئيسة الدار المُثأللة وهو يبكي ويصيح يريد أمه».

رفعت رأسي عن المكتب. «طبعاً تستسهل قول هذا الكلام، فأنت لم تره! لن تهتم! ولكنك لو رأيته، مقرفصاً هناك، وحيداً، كحيوان صغير! كان رقيقاً جداً ـ ومحبوباً، وهو... هو لم يعطه أحد حماماً محترماً منذ أسابيع ـ وذراعاه تعلقتا بي... ما زلت أشعر حتى الآن بيديه حول رقبتي!»

دفنت رأسي بين الأوراق مجدداً، وتابع بلاكي تدخينه. لم يكن هناك أي صوت في الغرفة الصغيرة إلا وشوشة التبغ وهو يحترق في غليون بلاكي، ثم قال:

«قدمت لويلينغ خدمة مرة».

فوراً رفعت رأسي لأنظر إليه. «آه بلاكي أتعتقد ـ»

«لا، لا أعتقد. أصلاً لا مجال للتكهّن في هذه المواضيع. حصل هذا منذ أربع أو خمس سنوات مضت، وذكرى الخدمات القديمة تموت بسرعة. لكن، إن انتهيت من سقاية مكتبي بدموعك، أحب أن أجري مكالمة سريعة على الهاتف. تستطيعين الخروج».

بكل تواضع، خرجت من المكتب مع قليل من الأمل في قلبي.

حتى هذا اليوم، لا أعرف على أي وتر سرّي لعب بلاكي العليم أو أي خيط حرّك، ولكن في مساء اليوم التالي، وجدت ملاحظة مكتوبة على قطعة ورق صغيرة، ملفوفة على شكل سيجارة ومحشوة بين مفاتيح آلتي الكاتبة. قراءتها جعلتني أقفز كالمجنونة في البهو ونحو مكتبَ رئيس تحرير قسم الرياضة. هناك، على كرسي بجانب المكتب، محاطاً بالدفاتر وأقلام الرصاص والتبغ وأدوات مكاتب الصحافة، جلس بِني. شعره كان مفروقاً على جنب بشكل بالغ الترتيب، وأشعّت تحت ذقنه المرصوعِ ربطة عنق جديدة، حريرية وملونة، بمربعات حمراء وخضراء.

بالكاد مرت لحظة قبل أن أزحت الأوراق والأقلام والكتب والصور واحتضنت

بِني بين ذراعي. راقبنا بلاكي وقد طغى بريق غريب على عينيه السوداوين، وعلى وجهه تعبير قرف مُفتَعل.

«كل النساء سواسية، أليست هذه الحقيقة؟ كنت أعتقد أنك مختلفة، ولكن بخ! لستِ كذلك. تشتغل الدموع عندك لحظة الغضب أو الاستفزاز. أقولها من الآن، لن أسمح لك بالمجيء إلى مكتبي بين فترة وفترة وتبليل المكان كله بالدموع! الجلوس هنا ممتقعاً في كل هذا البلل يسيء إلى صحتي».

«أوه اسكت يا بلاكي». قلت أنا بفرح. «بالله عليك كيف فعلتها؟»

«لا تشغلي بالك بهذا. السؤال هو، ماذا ستفعلين بهذا الصبي وهو الآن معك؟ ستجلبين له عربة أو تجرّينه باليد؟ القاضي ويلينغ عيّن لجنة من ضباط السلوك ليراقبوا تصرفاتنا وتعاملنا معه، وعلينا الالتزام بالخط المقبول».

«يا لطيف!» زعقت. «لا أعرف ما سأفعل به. سيكون عليّ أن أجلبه معي إلى هنا كل صباح، ولربما تستطيع أنت أن تجعل منه رئيس تحرير القسم الرياضي القادم بعدك».

«يستحيل، ليس وهو بهذا الجبين. يبدو لي مثقفاً، سنجعله ناقداً للمسرحيات. خلال هذا الوقت سألعب دور عرّابته السحرية، وإن لبستِ قبعتك سأدعوك مع هذا الصغير إلى كيك فراولة وبوظة بالشوكولا».

وحدث أن السيدة نابف الحائرة والسيدة نيرلانجر المتعاطفة طُلِبَتا لأغراض استشارية بعد ساعة. تخفّى بِني في غرفتي، واسع العينين متسائلاً، ولكن راضٍ. بدخول السيدة نيرلانجر، اضطربت جلسة الاستشارة، فقد أسرعت المرأة نحو الصبي وجمعته بين ذراعيها الجائعتين لوجود طفل.

«يا طفلي الصغير!» بكت. «يا عزيزي!» ونزلت على ركبتيها، وبطريقة ما، ذاب جسدها الضخم على شكل تقوسات أمومية مذهلة، ورأس بِني مرتاح على

أكثر طياتها حناناً، بين كتفها وصدرها. كاغت له بمزيج من الفرنسية والألمانية والإنجليزية، وتناديه بأوسكارها الصغير. بدا بِني وبشكل غرائبي وكأنه يفهم. لعله صار معتاداً على سيدات غريبات يشدّنه إلى صدورهن.

«إذن»، قالت السيدة نيرلانجر وهي تنظر إلينا. «أليس حلواً؟ سيكون صبيي الصغير، صحيح؟ لسنة واحدة قصيرة سيكون ابني. آخ، أنا وحيدة خلال كل يوم طويل في هذه البلاد الغريبة. ستدعينني أعتني به، صحيح؟ وكونراد سيكون غاضباً جداً ولكن هذا لن يصنع أي فرق، أي، أوسكار؟»

وهكذا حُسِم الأمر، وبعد ساعة، تناقشت ثلاث نساء قلقات بجبهات معقودة حول السؤال المصيري المتعلق بعشاء بِني. أيكون بيضاً أو خبزاً أو حليباً؟ السيدة نيرلانجر اقترحت البيض المسلوق كشيء خفيف بعد تجربة دار الأيتام، أما أنا فكنت منحازة إلى الخبز والحليب، كنوع من العشاء الذي دائماً ما قرأت عن أيتام يأكلونه في كل الروايات من (العالم الشاسع[1]) وحتى (أطفال هيلين[2]). السيدة نابف كانت مع فكرة إطعامه كلًّ من البيض والخبز والحليب، مع قليل من اللحمة والبطاطا لأجل صحته، وقطعة من الكعك إلى جانب كل هذا. قررنا أخيراً على بيضة واحدة، كأس من الحليب، وقطعة من الخبز المغطى بالزبدة والمربّى. بِني الذي وضعناه في الفراش كان رقيقاً ونظيفاً ونعساً. نحن النساء الثلاث وقفنا ننظر إليه وهو متمدد على السرير القديم الأزرق اللون الذي كان في يوم ما من الماضي مِلكاً لأولاد نابف السمان.

«أتعتقدن أن عشاءه كان كافياً؟» تساءلت السيدة نابف وجبينها مقطب من القلق.

«سيكون عليه الذهاب إلى المدرسة، صحيح؟» تمتمت السيدة نيرلانجر بحزن، وكأنها لا تريده أن يغيب عن عينيها نهائياً.

---

(1) رواية للكاتبة الأميركية سوزن وارنر

(2) رواية للكاتب والصحفي الأميركي جون هابرتن

رتبتُ حواف الغطاء على جانبي السرير، ليس لأنه احتاج إلى ترتيب، بل لأن القيام بهذا الفعل جلب لي الكثير من الرضى والراحة.

«أنا أفعل هذا فقط الآن، بسبب الظروف». قلت وأنا ألفّ الغطاء حوله. «أفضّل أن أكون مراسلة في جريدة على أي شيء آخر في العالم. فكمهنة، هي تفتح الآفاق، وفي الوقت نفسه، تقدم فرصاً غريبة».

الفصل الثالث عشر

يوماً ما، سيتقدم سن الزواج عند النساء من العشرين إلى الثلاثين، وطابور العوانس سيتغير ليصبح من الثلاثين للأربعين. عندما يحين ذلك اليوم، سيكون هناك، وبشكل مفاجئ، القليل من حالات الطلاق. الزوج الذي نحلم به في سن العشرين يختلف تماماً عن الرجل الذي يجذبنا في سن الثلاثين. الرجل الذي تزوجته وأنا في سن العشرين كان مخلوقاً مذهلاً، محيّراً، وسيماً وغير عادي، بعينين رائعتين وأسنان جدّ بيضاء ولا شهية عنده للأكل. الرجل الذي ربما أحبه في سن الثلاثين سيكون من النوع العادي، الآمن والمتين، الذي قد يأتي في الساعة السادسة، يقبلني مرة، يشتمُّ الهواء مرّتين ويقول: «أممم! ما هذه الرائحة الشهية يا فتاة؟ أنا جائع كدب، اخرجي الأكل هيا. أين الأولاد؟»

من الخطير التفكير بهذه الأشياء. هذه الأشياء خطيرة ومزعزعة لسلام الذهن لدرجة أنني قررت عدم رؤية فون جيرارد لأسبوع أو اثنين. وجدت أن رؤيتي له كانت كفيلة بجعلي أنسى بيتر أورم؛ تجعلني أنسى أن عندي مسؤولية كبيرة، تجعلني أنسى أنني اقتربت بخطر من علامة سن الثلاثين، تجعلني أنسى نورا وماكس والعفريتين، والعالم، وكل شيء إلا السعادة التي تملئني لكوني بجانبه، أراقب عيناه التي تقولان شيئاً بينما تتفوه شفتاه بشيء آخر.

في أوقات كهذه كان عقلي يميل بنفسه باتجاه أفكار وحشية، مما يجعلني أحبس نفسي في غرفتي مساءً، متجاهلة قرع السيدة نيرلانجر الخجل على

بابي، أو تمنيات بِني لي بليلة سعيدة. أخرج آلتي الكاتبة وأدفع نفسي للعمل فيما تكون أو قد لا تكون رواية، وأكون شديدة الإرهاق والكآبة والتشاؤم، على هذه الشاكلة:

«على الأغلب، هو لم يكن ليهتم لك لو كنت حرة. كل ما في الأمر هو أن الفاكهة الأبعد عن اليد هي المرغوبة أكثر. الرجال لا يتزوجون نساء ثلاثينيات رثات ومغرورات أو من هذا النوع. الرجال أصلاً لا يتزوجون هذه الأيام، وبالتأكيد ليس بدافع الحب، وعندما يتزوجون، فهم يفعلون ذلك طمعاً بمنصب، وسلطة، ومال. فكري بكل النساء الرائعات اللواتي يلتقي بهن كل يوم ـ نساء شعرهن وأظافرهن وأسنانهن دِينٌ؛ نساء ملابسهن قطع فنية. نساء لديهن من الحرية ليهتممن بأنفسهن، ليرتحن، ويستمتعن، ويسمعن موسيقى عذبة، ويقرأن كتباً ساحرة، ويأكلن طعاماً لذيذاً. في الحقيقة، هو لا يهتم لك مطلقاً، لا يهتم بقمصانك المعلوكة، وقفازاتك وحذائك المهترئ، وعروات قمصانك الكتانية المشكوك بأصلها. آخر مرة رأيتهِ كنتِ راجعة إلى البيت من المكتب بعد يوم عمل شاق، وكان هناك لطخة ما على أرنبة أنفك، وأخبرك عنها وهو يضحك، ولكن أنتِ لم تضحكي. مسحتيها بغضب وكنت على وشك البكاء. البكاء! أنتِ، دون أوهارا! يا الله! فقدان حسك الفكاهي سيكون آخرتك! اعملي على استعادته!»

وبعد هذا أنكبّ على كتابة الرواية بشكل محموم وعبثي، وأكتب فقرات فارغة من المعنى وغير مفهومة، والتي كنت أعلم أنها ستزاح وتمحى غداً عندما أكون بكامل قواي العقلية لإعادة قراءتها.

كان من السهل التكلم عن الحب في يوم رأس السنة بتلك الطريقة السامية، الرفيعة والحيادية. مجرد الكلام عن الحب بعد كل تلك الأسابيع من الكبت كان كافياً بالنسبة لي، ولكن ليس من السهل أن تكون سامياً ورفيعاً وحيادياً عندما تكفي لمسة كم معطف على ذراعك لإرسال ارتجافات صغيرة واخزة في

جسمك، وللتسارع بجنون في آلاف الأعصاب المشدودة. ليس من السهل أن تُجبر العقل واللسان على اتباع قنوات آمنة ومنطقية عندما يعصرك تهديدهما الأبدي بالاشتغال معاً، والإسراع سوياً في سيل جارف مرعب لن يترك خلفه سوى الدماء والتعاسة. وكما في كل مرة، نتكلم بصدق محموم عن عملي في الجريدة، وعن روايتي التي أكتبها، وعن مهنة إرنيست وعن تطورها الدائم، نتكلم عن نورا وماكس والعفريتين، وعن البيت، وعن آخر الأخبار، وعن الطقس، وحتى عن بيتر أورم ـ بعدها، نقع في الصمت.

في آخر لقاء لنا أخذ الموضوع منحاً جديداً ومذهلاً، مذهلاً جداً، ومليئاً بالإغراء والسعادة التي يمكن أن تتحقق، لدرجة أنني قررت أن أحرم نفسي من الألم والسعادة التي أشعر بهما وأنا بجانبه حتى أتأكد كل التأكيد من أن قبضتي على دون أوهارا، على نفسي، كانت ماكنة وغير مخلخلة وثابتة.

فون جيرارد يملك سيارة، آلة صغيرة هيفاء، مصممة للطول والانخفاض بعجلات سباق، ولون أخضر، وأنف يطعن الهواء كمقدمة قارب سريع في الماء. فون جيرارد وعد أن يأخذني في جولة فيها عند أول يوم دافئ. أتى يوم الأحد، جميلاً مفاجئاً، كأي يوم مارس آخر، وبأشعة شمس حقيقية تدفئ الأنف بدل أن تضحك وهي تقرصه، كما كانت تفعل أشعة شمس فبراير الكاذبة.

«ولكن عليك ارتداء ملابس دافئة». كان قد حذرني فون جيرارد. «لا بلوزات خفيفة أو فساتين بدون أكمام. الهواء يقطع كالسكين، ولكنه رائع حين يهبّ على الوجه. على الطريق يوجد مطعم صغير أعرفه، يقدمون هناك أطباقاً حارة من مرقة المحار. ما رأيك بهذا المشوار؟»

وهكذا لففت نفسي بطبقات من الملابس حتى بالكاد استطعت ركوب السيارة الصغيرة، وأسرعنا على طول الطرق السلسلة المحاذية للبحيرة بينما

ساطت الريح خدودنا حتى احمرّ جلد وجهينا وملأت الدموع أعيننا. لم يكن هناك فرصة لتبادل الأحاديث، حتى لو كان فون جيرارد بمزاج للدردشة، وهو ما لم يكنه. بدا صموتاً أكثر من المعتاد، وهو جالس هناك خلف المقود، ينظر بثبات لشريط الشارع أمامه، عيناه مزمومتان على شكل خطين أزرقين. أدركت، بدون أي خوف، أنه كان يقود بطيش ولا مبالاة، كما أدركت لا مبالاتي بذلك. فون جيرارد كان من ذلك النوع من الرجال، يستطيع الشخص أن يجلس بجانبه بكل هدوء وهو يشد لجام زوج من الخيول الهائجة وعنده كل الثقة أن فون جيرارد سيكون المنتصر.

عندما شعرت أن وجهي صار بقساوة وتيّبس وجه مومياء، مالت السيارة عن الشارع الرئيسي، وقدنا باتجاه مدخل المطعم الذي كان من المفترض أن ينفخ فينا الحياة بطعام ساخن ومرقيّ.

«لو بقينا في السيارة لدقيقة أخرى»، بدأت الكلام من بين شفتين جافتين نازعةً عن نفسي طبقات الملابس. «لكنت قد أصبحت ما وصفه السيد مانتاليني بالجسد المُفرَغ. أرجوك، قل لهم ألا يجعلوا الحساء ساخناً جداً، أو باعثاً للبخار كرمى لصديقتك هنا، لقد تنشقت هواء منعشاً يكفيني لبقية حياتي. أيمكنني أن أقترح، بكل أدب، أن يتبع حساء المحار سندويشة جبنة؟ أتضور جوعاً، ويبدو أن هذا المكان قادر على أن يخصّني بسندويشة جبنة».

«لك سندويشة الجبنة التي تريدين. أي شيء آخر؟ ذاك الهواء المنعش أعطاك شهية للأكل، أليس كذلك؟» قال هذا ولكني لم ألمح أي ابتسامة على وجهه، ولا ذاك البريق اللطيف والمرح في العينين، ذاك البريق الذي تعلمت أن أترقبه وأنتظره.

«ابتسم للآنسة». ترجيته ساخرة عندما وصل طعامنا. «طيلة المساء وجهك

كالبومة. خذ، جرّب سندويشة الجبنة. الآن قلي لي، لماذا في رأيك الخردل هنا ألذ بكثير من الخردل الذي يأكله الواحد في البيت؟»

كان فون جيرارد يدخن سيجارة، وكانت تلك أول مرة أرى واحدة بين أصابعه. قذف السيجارة إلى الموقدة السوداء الخالية من الداخل على جانب قريب منا في القاعة، ثم أزاح الصحون والكؤوس التي كانت أمامه على الطاولة، وحدق فيّ بكل تأني.

«سأسافر إلى أوروبا على متن سفينة وسأبقى هناك لمدة سنة، وحتى أكثر». قال لي.

«في البحر!» أجبته بحماقة وأخذت بشكل أعمى أغمّس سندويشتي في صحن الخردل.

«سأذهب لأدرس وأعمل مع اغْلَكْ. هذه فرصة العمر. اغلك بالنسبة للطب كإديسون بالنسبة لعالم الكهرباء. هو ساحر، رجل موحى عليه. فقط لو ترينه، رجل صغير منحني، عجوز أشعث مهترئ ينظر إليك ولا يراك. هذه فرصة رائعة، فرصة ـ»

الخردل والسندويشة والطاولة ووجه فون جيرارد صارت كلها تسبح بهلامية خالية من أي شكل في عيني، ولكنني استطعت أن أقول: «أنا سعيدة لأجلك ـ مبارك لك ـ جيد جداً ـ بالتأكيد محظوظ ـ»

يدان قويتان أمسكتا برسغي. «اتركي ملعقة الخردل والسندويشة الغبية من يدك. لا يا دون، أنا لم أقصد إخافتك. انظري ليديك ترتجفان، اسمعي، انظري إلي. ستعجبك فيينا يا بنت، ستعجبك غرابتها وأنوارها، والموسيقى، والنساء الحلوات، والفساتين الفريدة. حس الفكاهة عندك سيميز الخواء تحت كل تلك الأبّهة والبهرجة وفروق الطبقات القاسية والعظمة العسكرية. غرائز الكاتب لديك ستحب البريق والألوان والرومانسية والتشويق».

هززت كتفيّ مدعية اللامبالاة. «ألا تستطيع أن تخبرني كل هذه الأشياء بدون أن تقبض على رسغي كشرير في مسرحية ميلودرامية؟ وعلى كل حال، لا كرم عندك أو رجاحة تفكير في إخباري بكل هذا، وأنت تعرف أن هذه الأشياء ليست لي. فيينا لك، وميلواكي وسندويشات الجبنة لي. أعطني الخردل لو سمحت».

ولكن القبضة على رسغي زادت قوة. كانت عينا فون جيرارد ثابتتين وهما تحدقان في عيني. «يا دون، فيينا والعالم كله ينتظرك، فقط إن أنت أردت ذلك. فيينا ـ والسعادة ـ معي»...

بذلت جهداً كريهاً لأحرر رسغي من قبضته، ونهضت من كرسي وأنا أشعر بالمرض والحيرة، بالانشداه. عالمي ـ ملجأي الحقيقي، كرامتي، أمني وصحة عقلي، كل الأشياء التي كانت في يدي إرنيست فون جيرارد العظيمتين الثابتتين كانت تنجرف بعيداً عني. أعتقد أن الرعب الذي شعرت به من المؤكد قفز إلى عيني،لأنه وفي غضون لحظات كان فون جيرارد يقف إلى جانبي، يهدّئ من روعي بعينيه الزرقاوين الصافيتين. لم يلمس حتى رؤوس أصابعي رغم وقوفه هناك، شديد القرب مني. من ملامح الألم على وجهه عرفت أنني لابد أسأت الفهم بطريقة ما.

«حسناً، أرى أنك لا تعرفينني مطلقاً». قال بالألمانية، وقوله هذا كان برقة أمّ توبخ ابن لها تحبه. «هذه الحرب مع العالم، تلك السنين من الحزن والتعاسة، كل هذه جعلك شكاكة وقليلة الثقة، أليس كذلك؟ أنت حتى الآن لا تعرفين الحب الكامل الذي ينفي كل شك. يا دون، أسألك بحق كل ما هو منطقي، ولأجل سعادتك وسعادتي، أن تطلقي ذلك الرجل بيتر أورم ـ هذا الرجل الذي ولعشر سنوات لم يكن زوجاً لك ـ ولا يمكنه حتى أن يكون زوجك. أسألك أن تفعلي شيئاً لن يسبب المعاناة لأي أحد، ويجلب السعادة لكثيرين. اسمحي لي أن أجعلك سعيدة، فأنت ولدتي لتكوني سعيدة ـ أنت التي تستطيعين الضحك كفتاة رغم آلامك كامرأة ـ»

ولكنني غرقت في كرسيي وأخفيت وجهي بين يدي هرباً من جمال ورقة عينيه. حاولت أن أفكر بكل تلك الأشياء العقلانية والعادية في الحياة. في مكان ما في وعي الداخلي، صوت صغير بارد كان يقول مردداً مرة تلوى الأخرى:

«احذري يا دون! قد وصلتي هنا إلى مفترق طرق أخير. يمين أو يسار؟ اختاري! الآن يا دون، كوني حذرة!» وتكرر هذا في ذهني مرات عديدة.

أخيراً، وعندما رفعت وجهي من بين يدي، لم ألتقي في عيني فون جيرارد سوى بالرقة والحنان الثابتين أبداً.

«عليكَ أن تعرف»، قلت ببطء شديد وتوازن. «أنّ طلاقاً في ظل الوضع الحالي هو أقرب للمستحيل، حتى لو تمنيت أن أفعل ما تقترح. هناك قوانين معينة ـ»

تنهّد فون جيرارد بنفاد صبر. «قوانين! في بعض الولايات، صحيح، ولكن ليس في بعضها الآخر. هذه كلها أمور سخيفة سهلة الحل! لا شيء فيها مما قد تعتبرينه خطأً أحمر. كل هذا لا يعني شيئاً، هكذا!» قالها مفرقعاً بأصابعه. «تستطيعين قضاء بضع شهور في ولاية أخرى، ربما. هذه القوانين الأميركية سُنَّت لتُخرق».

«صحيح، معك حق». قلت، وعرفت في قلبي أن ذلك الصوت البارد اللجوج الصغير داخلي لم يتكلم عن فراغ. «ولكن هناك قوانين أخرى، قوانين الشرف والأخلاق والعيش القويم والضمير ـ وهذه لا يمكن خرقها بسهولة. لا يمكنني تزوجك، لدي زوج».

«تسمين ذلك البائس المغلوب على أمره زوجك! هو حتى لا يعرف أن لديه زوجة، ولن يعرف أنه خسر زوجة. بالله عليك يا دون، يا حبيبة، لا تكوني بهذه الحماقة. أنت لا تعرفين كم سأجعلك سعيدة. أنت لم ترني أبداً إلا وأنا معذّب بالشكوك والمخاوف. أنت لا تعرفين كيف ستكون حياتنا معاً. سيكون هناك كل

شيء ليجعلك تنسين ـ كل شيء قد يقدمه لك الفكر والحب والمال. الرجل هناك في تلك الغرفة المقفلة ـ»

في تلك اللحظة أخذت يديه الحبيبتين في يدي وأمسكتهما قريباً مني، وبكل يأس أحاول أن أجعله ينصت لما قاله لي الصوت الصغير الهادئ.

«هذا هو! هذا الذي أقصده بالضبط! لو أنه كان حراً، لو كان يستطيع الوقوف أمام الناس ليُحكم على أفعاله بأمانة وعدل، لم أكن لأتردد ولو للحظة صغيرة. لو كان يستطيع المحاربة لأجل حقوقه أو لأجل التخلي عنها، إن هو أراد، لما كان تنفيذ اقتراحك ليكون بهذهِ الوحشية. ولكن يا إرنيست، ألا ترى؟ هو هناك، وحيد في ذلك المكان الموحش، ضعيف وعاجز، موجود تحت رحمتنا. قد أفكر بأذية طفل صغير أو سرقة مال من شحاذ أعمى قبل أن أفكر في إيذائه. لا ذرة من الإنسانية في هذا الفعل! إنه وحشي! لا قوانين في أي ولاية ولا أي خطوط حمراء تقدر على الإطاحة بهذا الزواج».

«ما زال يهمك أمره!»

«إرنيست!»

كان وجهه شديد البياض، شاحباً بسبب المشاعر المكبوتة، وعيناه كانتا كاللهب الأزرق الذي يبرق فوق طبقة من الفحم الأبيض المحترق.

«ما زلت تهتمين لشأنه، ولكن بالطبع! تستطيعين الوقوف هكذا، بكل هدوء، لتقولي لي أنك لا تستطيعين أذيّته، ولا حتى لأجل سعادتك وسعادتي، ولكن لا مشكلة عندك في أذيتي مرة بعد مرة بدون أي شعور بالذنب».

ساد الصمت للحظة في قاعة الطعام الصغيرة الفارغة، صمت تعيس من جهتي، وصمت مرارة من جهة إرنيست. من ثم، جلس فون جيرارد إلى الطاولة

مرة أخرى قبالتي، ورسم على وجهه واحدة من تلك الابتسامات النادرة التي تضيء وجهه جمالاً.

«هيا يا دون، صرنا على وشك خنق بعضنا ـ نحن الذين يفترض بنا أن نكون منطقيين وواقعيين. دعينا نجد نهاية لهذا السؤال. أنت ستفكرين بكل ما قلت، أليس كذلك؟ لعلي كنت فظاً وقاسياً. آخ يا دون، أنت لا تعرفين ـ خلص، حسناً، لن أتكلم».

بكلتا يدي كنت أتعلق بشجاعتي وأصلي ليكون لي قوة كافية لأتحمل هذا حتى أعود إلى النزل وأصير وحيدة في غرفتي مجدداً.

«بالنسبة إلى ذلك المخلوق المسكين فاقد العقل، فلن ينقصه أي اهتمام أو عناية. أما العبء الذي حملته أنتِ كل هذه السنوات سأضعه على كاهلي الآن».

لقد بدا بغاية الثقة، بغاية التأكد، ولم أعد أقدر على تحمل هذا. «يا إرنيست، إن كان عندك أي شفقة لي، أي حب، توقف! أقول لك إنه لا يمكنني فعل ذلك، فلماذا تصعّب الأمر عليّ كثيراً؟ وبدون أي شفقة! أنت دائماً ما كنت واثقاً وقوياً جداً... أنت صِرحٌ من الشجاعة».

«سأقول مرة أخرى، وأخرى وأخرى، أنتِ لا تهتمين».

فقط في تلك اللحظة أمسكت آخر حبال القوة والشجاعة معاً وخطوت نحوه، ووضعت كلتا يدي على كتفيه العريضين، ونظرت إلى وجهه المكدّر وأنا أتكلم.

«يا إرنيست، انظر إلي! لا يمكن لك أن تعرف كم أهتم. أهتم لدرجة لا يمكنني معها احتمال وقوع ظل الخطأ على سعادتنا. لا يمكن أن يكون هناك سعادة حقيقية مبنية على قاعدة من الخداع المخزي. سأكره نفسي إن حصل شيء كهذا، وأنت ستكرهني أيضاً، فهذا دائماً ما يحصل. يا عزيزي، أهتم كثيراً

لدرجة أن لي الشجاعة لأفعل ما أريد فعله أمام أمي وأختي الليلة. لا أسألك أن تفهم، فالرجال لم يخلقوا لفهم مثل هذه الأمور، ولا حتى رجل مثلك جميل في قدر فهمه للأشياء. كل ما أسألك إياه هو أن تثق بي ـ وتفكر بي أحياناً ـ وسأشعر بك، وتكون بهذا قد ساعدتني. هلّا أخذتني إلى البيت الآن، يا دكتور فون جيرارد؟»

أطبق الصمت على درب عودتنا نحو البيت. الريح كانت أبرد وأكثر حدة، وكنت بردانة، وتعيسة ومريضة. وجه فون جيرارد كان خالياً من المشاعر وهو يقود السيارة الصغيرة فوق الطرق الملساء. عندما توقفنا أمام النزل وبعد لم نتبادل أي كلام، ظننت أنه سوف يتركني مع جدار الصمت ذاك بدون كسره، ولكن عندما خطوت بتشنج نحو المدخل، ضمّت يداه يدي بالكامل في تلك القبضة الثابتة التي اعتدت عليها. مباشرة نظرت إلى الأعلى لأرى ابتسامة في زوايا العينين المرهقتين.

«أنتِ... ستسمحين لي برؤيتك، في وقت ما؟»

أتت الحكمة لمساعدتي. «ليس الآن. من الأفضل أن يذهب كل منا في طريقه لعدة أسابيع، حتى يساعدنا عمل كل منا على إعادة التوازن الذي تخلخل في علاقتنا. في نهاية هذين الأسبوعين، سأبعث لك برسالة، ومنذ ذلك الحين وحتى تبحر في يونيو سنكون رفيقين جيدين مرة أخرى، وعندما تصير في فيينا ـ ما أدراك؟ـ قد تلتقي بالآنسة الشقراء السمينة سليلة النبالة ـ»

«ـ وفاقدة الخيال».

من ثم، ضحك كلانا بقليل من الجنون، ففي النهاية، الضحك موازي للبكاء.

ابتعدت السيارة الخضراء الصغيرة عن نظري، وأنا استدرت لأدخل عالمي الجديد من الوحدة.

الفصل الرابع عشر

مرّ عليّ أسبوع مبارك من العمل، أسبوع «إنسان محارب» بحق، وخلف كل زاوية استتر شيء لاذع ومثير للاهتمام. كان أسبوعاً ممتلئاً على آخره، كثير الألوان والأشكال، تتابعت أحداثه بسرعة لدرجة جعلت مشاكلي الخاصة وأحزاني تنسحب إلى زاوية مهملة من عقلي، حيث هجرتها هناك بدون إذكائها بالدموع أو التنهّدات.

الأخبار وتدفقها يأتي على دورات. هناك أسابيع ينتف فيها محرر الشؤون المحلية شعره عبثاً، وينفخ ويزأر مطالباً بقصة ليضعها على الصفحات الأولى. وهناك أيام تتبع تلك وتكون متقدة بقصص حقيقية ومُعاشة، وفي الأيام العادية قد توضع على الصفحات الأولى، ولكن في أسابيع كهذه ينتهي بها الأمر محشورة ومخفية بين خبرٍ عن الاستخبارات البحرية وتقرير عن زبدة إلجن.

كنت الآن أعيش هكذا أسبوع؛ عقدت مقابلات مع الكثير من الأشخاص، من قاتل متسلسل إلى طفل أنبوب. بدت البلدة وكأنها مغناطيس للمشاهير، ونوربيرغ، رئيس تحرير الشؤون المحلية، مفتون بالمشاهير، أبداً لا يسمح لأحدهم بأن يرحل بدون مقابلة. وقع على كاهلي يوم الجمعة مهمة لقاء مغنية أوبرا مشهورة، وملاكم محترف سيء الصيت، وعجوز فاتنة. نوربيرغ لا يهتم مطلقاً إن كانت الشخصية المشهورة معروفة بطبقة سوبرانو مذهلة أو ركلة قص فريدة طالما قدمت له مقالة طازجة وتفصيلية، ملأة بالاقتباسات، ومرشوشة

بكثرة بالنعوت والأوصاف واستخدام مكثف للحال، وصورة للضحية المسكينة تزين أعلى عامود المقالة.

كان الوقت قد تخطى ساعة الغداء عندما التُقطت صورة لمغنية الأوبرا والملاكم وقد زُيّنا ورُتّبا للكاميرا. مغنية الأوبرا قد دردشت بالفرنسية، والملاكم المحترف قد بربر بكلمات عامية، ولكن المرأة العجوز التي كانت تتكلم الإنجليزية بلهجة ميلواكي، كانت المادة الأمثل لقصة تتفوق على كورال مغنيات الأوبرا بأكمله أو حلبة مليئة بالملاكمين. ولروعة قصتها لم أقدر على أن أستخدمها كمادة لمقالتي.

عندما بعث ورائي نوربيرغ، كانت هذه المرأة العجوز الفاتنة هي من في ذهنه.

أعلن لي بصوت مرح: «قصة مميزة أُعدّت لك خصيصاً».

لم يظهر على ملامحي الفاقدة للغذاء أي سعادة. «ملاكم محترف حاصل على عدة جوائز في الساعة العاشرة، ومغنية أوبرا في الساعة الثانية عشر. ما هي خيارات اللقمة التالية؟ راكب منطاد قام برحلة ناجحة؟ أو امرأة متزوجة ورثت الملايين من زوجها؟»

ظهرت الغمازتان على خدي نوربيرغ. «لا هذا ولا ذاك. هذه المرة ستقابلين سيدة ألمانية لطيفة».

«لا شك هربت خطيفة مع مدّرب ما؟»

«أنا قلت سيدة عجوز لطيفة، وهي لم تفعل شيئاً بعد. مهمتك هي أن تعرفي ماذا ستشعر هي عندما تفعل ما ستفعله».

«وصلت الفكرة». علقت على كلامه، وقد ازداد قرع طبول الجوع في بطني وحشية.

أكمل نوربيرغ شرحه للقصة بحماسته المعتادة، وسيجارة تدلى من زاوية فمه. «هذه الورقة عليها الاسم والعنوان. اذهبي إلى هناك بسيارة. السيدة العجوز اللطيفة قد قضت معظم حياتها تعيش في كوخ قديم لطيف. جدها بناه بنفسه منذ ما يقارب المئة سنة، وكل أفراد العائلة ولدوا فيه، وتزوجوا فيه، وماتوا فيه، فهمتي؟ الكوخ محشو لسقفه بالمَغَازِل وخشب الماهوجاني وأشياء ستجعل عيونك تجحظ من الفضول، فهمتي؟ والآن، لا أحد بقي في هذا الكوخ إلا هذه العجوز اللطيفة، وحيدة. كان لها أخت هربت مع وغد ما منذ سنوات، والسيدة العجوز اللطيفة لم تسمع شيئاً عن أختها منذ ذلك الحين، ولكنها تترك بوابة الكوخ الخارجية مشقوقة أو مزلاج الباب مفتوحاً أو تضع مصباحاً عند النافذة أو شيئاً ما، حتى إن أتى يوم ومرت أختها من هناك، ستعرف أنه مرحب بها دائماً، فهمتي؟»

«يبدو الأمر كله كأفلام الرسوم المتحركة». قلت له.

«ولكن انتظري، فهذه ليست القصة كلها. النقطة الأساسية هنا هي أن مجلس البلدية يريد أن يبني فرعاً للمكتبة أو شيئاً ما على أرضها، والعجوز المسكينة بحاجة شديدة للمال فلا خيار لديها سوى أن تقبل عرضهم، وها قد حان الوقت لترك ذلك الكوخ القديم، بكل رومنسيته وذكرياته وذلك المصباح عند النافذة، وستذهب هي لتعيش في شقة صغيرة رخيصة، فهمتي؟ هناك أثاثها كله سيخنق الغرفة ـ»

«وهناك ستُدهن الردهة بالأحمر والأخضر»، أضفت لكلامه بحماسة. «وسيكون هناك خوان ممتلئ في غرفة السفرة لا يناسب تصميمه القديم باقي الغرفة نهائياً، ومطبخ صغير بجانب هذا حيث القدور الحديدية الضخمة والأباريق التي كانت تحوي أعشية العائلة ستكون كالوحوش البرية في مدينة ـ»

«وصلت الفكرة». قال نوربيرغ.

بعد نصف ساعة، وقفت أمام الكوخ. كان مبنياً في وسط أرض واسعة ممتدة لعدة أمتار مربعة من كل جانب. في نهار ذلك اليوم الرمادي من مارس، كان المنظر مخضلاً وعارياً. ولكن لم يمضي الكثير من الوقت قبل أن تقف آلما فلوجل في منتصف هذا المنظر، تملأه بمسحة لون قوية، رياح مارس تراقص طبقات تنورتها حول كواحلها. أثناء كلامها، صفوف من أزهار الخطمي والقرنفل وحجر الدم والزعفران أمالت رؤوسها حول جوانب الكوخ. هواء مارس القارس صار حلواً مع عبق أزهار البنفسج والقرنفل، وأكاليل الزهور البيضاء. تفتحت الأغصان العارية لشجيرات الورد بشكل مذهل لدرجة أنها انحنت نحو الأرض لثقل حملها من الورود القرمزية والصفراء. الطرق الحجرية الخالية كانت مغزوّة بنباتات خضراء تنمو بين أحجارها. أتلال رمادية من التراب بدت كأنها تحترق تحت نيران زهور شقائق النعمان. حتى خشب العرائش المبتل كان كالمعجزة مخبئاً تحت سياج من الخَضار، وفوق ذلك السياج انبلج جمال كالفراشات، بأزهار اللافندر والقرنفل وبراعم الكرز. آه، آلما فلوجل البسيطة قد فعلت أشياء مذهلة يوم مارس الممل هذا! وما زال يوجد أشياء أكثر إذهالاً في طريقها نحو هذه المرأة.

ولكننا، أنا وآلما فلوجل، لم نعرف من هذه الأشياء ولو تفصيلاً، فقد فُتح الباب وأخذت كل منا تحدق بالأخرى بفضول. كُتِب الاندهاش على وجهها الصادق أثناء شرحي لها عن مطلبي وسبب مجيئي. كان من الواضح أن طرق الصحافيين غريبة وأجنبية في حياة هذه المرأة الألمانية البسيطة، ولكنها على كل حال أفسحت لي المجال لكي أدخل برحابة ولباقة.

حائرة ولكن صامتة، قادتني في ممر ضيق معتم أودى إلى غرفة الجلوس، وعندما رأيت الغرفة وما فيها، علمت أن نوربيرغ كان يعرف عما يتكلم عندما شرح لي الوضع.

موقد عريض محمرّ الواجهة توهّج بقوة في إحدى زوايا الغرفة، وبجانب الموقد استلقت قطة كسولة ناعسة، فتحت عيناً فضولية، ثم تثاءبت بدون أي خجل وقامت لتتحقق كما تفعل القطط. حواف النوافذ كانت مختفية تحت أصص النباتات المتينة التي دائماً ما تجد النساء الألمانيات المحبات للزهور طرقاً لجعلها تتفتح وروداً. الغرفة بسقفها المنخفض التمعت وأضاءت حيث عكست الأسطح المصقولة للطاولات والكراسي التوهج الوردي للموقد المُتخم. غرقتُ في ثنايا كرسي هزّاز لابد أنه صُنع ليلائم كرش وبروزات جسم الجد فلوجل. جالسة على كرسي مقابلي، انتظرت آلما فلوجل بأدب أن تبدأ المقابلة، ولكن أنا، مرتخية في حضن ذلك الكرسي العظيم، أدركت فجأة أنني كنت جائعة وبغاية الإرهاق ومتعبة من الكلام، وأنه هنا، في هذا المكان، شعرت بسلام جميل. مغنية الأوبرا، بفرنسيتها ومكياجها ولآلئها، والملاكم المحترف بعاميته، وأذنيه الشبيهتين بالقرنبيط وخواتمه الألماسية بديا كمخلوقين من كوكب آخر. عيناي رفّتا مغمضتين، وإحساس لذيذ بالدفء والنعاس والرضى سرق طاقتي مني.

«اسمعي خرخرة تلك القطة!» مرمرت. «مكاتب الجرائد لا تمت بصلة لأي من هذا. هذا المكان صُنِع للسلام والراحة».

انحنت آلما فلوجل للأمام في كرسيها. «أحقاً يعجبك المكان هنا؟»

«يعجبني؟ أحس وكأنني في البيت، وأشعر كأن أمي كانت هنا في هذه الغرفة، جالسةً على واحدة من هذه الكراسي العميقة، وعدّة الحياكة بين يديها. أشعر بها قريبة، أستطيع مدّ يدي لألمس خدها بأصابعي».

نهضت آلما فلوجل من مقعدها وأتت إليّ، واضعة يداً خجلة على ذراعي. «أنا سعيدة أن هذا ما تشعرين به. أنت لا تضحكين على السقوف المنخفضة، أو الأرضية الغير متساوية، أو على الغرف قديمة الطراز. أنت لا ترفعين عينيك

بقرف وتقولين: «لا وسائل راحة حديثة! ولما لا تستعملين ورق جدران مخطط؟ سيوحي هذا بإن السقوف البشعة عالية». ما ألطفك كيف تفهمين!»

زحفت يدي للأعلى لتغطي يدها على ذراعي. «بالفعل، بالفعل أفهم». همست لها. «وهو أمر يقدر أي صحافي غض أن يؤكد لك أنه ليس الطريقة المثلى التي تبدأ بها المقابلات».

مئات الذكريات السعيدة ملأت الغرفة ذات السقف المنخفض بينما أرتني آلما فلوجل كنوزها. خرخرت القطة برضى عظيم، وبسطت الموقدة بوهجها الوردي على المشهد أثناء حديث المرأة البسيطة عن قصة كل قطعة عزيزة على قلبها، من الشمعدان المكسور على الرف إلى طاولة الماهوجاني الضخمة التي يمكن طيّها، وماكينة الخياطة والسرير المنمق بالزخارف. كان يوجد أيضاً الفانوس القديم الذي كان يستخدمه جيكوب فلوجل منذ قرن خلى. وفي زاوية من زوايا غرفة الجلوس ظهر مغزل الجدة فلوجل. وراء زجاج الغَلق كانت توضع أواني الخزف الزرقاء والبيضاء، حيث اصطفت بترتيب وحُفظت بأناقة، وعلى الرف تحتها وضعت الأواني الطينية الخرقاء الصنع التي صنعها الجد فلوجل بنفسه لعروسه الشابة في واحد من تلك الأيام. في صندوق الملابس، كان يوجد طيات عديدة من الكتان المرتب الزكي الرائحة الذي قد غُزِل على دولاب المغزل الذي اصفرّ مع الزمن. وبسبب المأساة التي رأيتها على الوجه الصادق المنحني فوق هذه الكنوز العزيزة، ولأن هذه المرأة حاولت بكل شجاعة أن تخفي دموعها عني، عرفت في قلبي أن حالة كهذه لا يمكن لها أبداً أن تكون قصة في جريدة.

«إذن»، قالت آلما فلوجل أخيراً، ونهضت لتسير ببطء نحو النافذة ذات الألواح الزجاجية المربعة الصغيرة، وقد كانت هذه النافذة في زمن مضى تطل على مخيم للهنود الحمر. الجدة فلوجل قد جلست عند هذه النافذة طيلة ليال

مريرة، رضيعها بين ذراعيها، تراقب وتنتظر عودة الزوج الشاب الذي كان يحثّ ثيرانه لتقطع الجليد في بحيرة ميتشغان وهم في أنياب عاصفة ثلجية هوجاء.

كانت الغرفة الصغيرة بسقفها المنخفض شديدة السكون. نظرتُ إلى آلما فلوجل وهي واقفة هناك عند النافذة في فستانها الأزرق الأنيق، وشيء ما في ذلك الوجه والجسد ـ أو لعلها انحناءة الرأس المتكدر؟ ـ بدا مألوفاً جداً لي. في مكان ما من ذهني، لاحقني الشبه. شبه ـ لماذا؟ لمن؟

«أتودين أن تري حديقتي؟» سألتني آلما فلوجل وهي تدير ظهرها للنافذة. للحظة، عاينتها بحيرةٍ، ولكن الوجه الصادق الرقيق لم يكن يبتسم. «هذه الأشياء التي أريتك إياها، هذه أستطيع أخذها معي عندما... أرحل من هنا، ولكن تلك»، وأشارت نحو الحديقة المنبسطة تحت الريح. «هذه شيء لا أستطيع أخذه. زهوري! ترين تلك التلة الصغيرة هناك، تلك المغطاة والمخبأة الدافئة تحت كيس الخيش؟ هناك تنام توليباتي وزنابقي. بعد عدة أسابيع، عندما يُنزع الغطاء عنها، آه سترين! عندها فقط يتأكد الشخص أن الربيع قد وصل حقاً. من يقدر على النظر إلى سرير من الورود والقرنفل واللافندر والتوليب الأصفر والزنابق ويشك في هذا؟ تعالي».

بحركة سريعة ألقت شالاً على رأسها وأشارت لي بأن أتبعها. معاً خطونا نحو الصقيع الغض لمساء ذاك النهار الربيعي. وقفتْ للحظة ساكنة، تنظر إلى الأرض الخضلة، ثم مشت كطير خفيف نحو الدرب الضيقة، وتوقفت أمام هيكل غريب صغير مصنوع من الآجرّ ومغطى بساق نبتة زاحفة. طوت آلما فلوجل ركبتيها لتزيح الغطاء الحديدي الصدئ ورفعت رأسها لتبتسم لي.

«كان هذا فرن أمي. كل خبزها صُنِع هنا، في فرن الآجرّ هذا. كان الخبز أسود، بطبقة خارجية سميكة، وله طعم مرّ، ولكنه كان حلواً أيضاً. لم أتذوق في حياتي

أطيب منه. أحب أن أفكر بجدتي عندما كانت عروساً، تخبز لأول مرة الخبز في هذا الفرن الذي بناه لها جدي، ولأن الفرن القديم كان يصعب التعامل معه، ولأنها كانت فتاة صغيرة شابة ـ فقط في السادسة عشر من عمرها!ـأحب أن أفكر أن أوائل أرغفتها لربما لم تكن ناجحة جداً، وأن جدي قد ضحك عليهم، وأن العروس الصغيرة بكت لذا أخذ الزوج الشاب يمسح دموعها بقبلاته».

أغلقتْ الغطاء الصدئ المائل ببطء وحنو. «لا شك أن العمال الذي سيأتون لتجهيز الأرض للمكتبة الجديدة سوف يضحكون ويسخرون بين بعضهم عندما يرون هذا الفرن، سوف يركلونه بأقدامهم، ويتساءلون عما يمكن أن تكونه هذه التلة الآجريّة».

كان هناك ابتسامة مكروبة على وجهها وهي تنهض، ابتسامة جلبت ضباب الدموع الحار إلى عيني. هناك مأساة كاملة تكمن في تلك المرأة الدافئة الوحيدة وهي تقف هناك في الحديقة والرياح تلفّ قماش تنورتها حول قدميها.

«ليس عليك إلا أن تري الأولاد وهم يسترقون النظر من فوق السور ليروا زهوري في الصيف». قالت وعيناها الزرقاوان تتخللهما نظرة شوق بعيدة. «كل الأولاد يعرفون حديقتي. هي تزهر من أبريل وحتى أكتوبر. هنا ترين الفاصولياء الحلوى، وهنا ورودي، الآلاف منها! بعضها أحمر كقطرة دم، وبعضها الآخر أبيض كفستان عروس. يتنهدّ القلب ألماً لشدة جمالهم عندما يبدؤون بالتفتح».

بدت وكأنها قد نستني تماماً، فقد كانت حديقتها الآن تزهر من جديد. كان المشهد يوحي وكأن جنيّة الأزهار قد لمست الأغصان العارية بأصابعها السحرية موقظة الأزهار لتتوهج لها، هي من لن تغدق حبها واهتمامها عليهم بعد الآن.

«هذه شقائق النعمان. أجربتي في حياتك أن تخرجي في الصباح لتجدي مئات شقائق النعمان تبتسم لك، وتهزّ رؤوسها وتلمع وتتراقص مع النسيم؟

هناك هم، قرمزيات وزهريات، جنباً إلى جنب، فقط اللّه يستطيع فعل هذا. قريباً من شقائق النعمان زرعت بنفسجاتي، لأن كل واحدة منهن درس للأخرى. أسمّي بنفسجاتي بالأولاد الصغار ذوي الوجوه السعيدة. أترين كيف تغمز تلك البنفسجة بعينها الصفراء وتضحك!»

انزلق شالها الرمادي عن رأسها وارتمى مرتاحاً فوق كتفيها، والريح قد طيّرت شعرها حتى بدا كتلة من القطن فوق رأسها. «اعتدنا أن نأتي إلى هنا في كل صباح باكر، أنا وشويستر الصغير، لنرى أي وردة فتحت بتلاتها أثناء الليل، أو إن كانت زهرة الفاونيا هذه التي رفعت رأسها الأبيض شامخاً البارحة قد أحناها التواضع إلى الأرض في سرير صغير من الأوراق المتكسّرة. آه، كانت تحب الصباح كثيراً، لهذا جعلت الحديقة تزهر مع كل صيف جديد، حيث أنها لو قررت أن تعود يوماً إلى البيت، سترحب بها الزهور. على طول الطريق نحو الباب، ستسير في درب من الشذى، وعندما تدير مقبض الباب القديم، ستجده مفتوحاً، صيفاً أو شتاءً، نهاراً أو ليلاً، كل ما عليها فعله هو أن تدير المقبض وتدخل».

من ثم، توقفت فجأة عن الكلام. مات النور في وجهها. نظرتْ إليّ بنصف جرأة، بنصف تردد، كشخص ليس متأكداً تماماً مما قاله. على هذا، رحت إليها، وأخذت يديها المتعبتين والمتشققتين من العمل بيدي، وابتسمت للعينين الزرقاوين الضبابيتين اللتين نفذت إليهما عتمة الدموع.

«لربما ـ من يعرف؟ـ قد تأتي الأخت الصغيرة. أشعر بهذا. ستسير في تلك الدرب الضيقة، وستمدّ يدها نحو مقبض الباب، وسيستدير المقبض تحت أصابعها، وستدخل».

بذراعي ملتفة حول كتفيها، مشينا معاً في الطريق نحو تعريشة قديمة التصميم، عارية هذا الوقت من السنة إلا من الخيوط الجافة للنباتات اللولبية التي التفتّ حول الأخشاب. قد أُضيف للتعريشة أرض خشبية، وكان هناك عدة

كراسي صدئة وطاولة. كنت أستطيع تخيل الأختين تجلسان هناك وبيدهما عدة الحياكة، تقضيان مساءات الصيف الطويلة الهادئة معاً. قد تكون آلما فلوجل ترتدي واحداً من فساتينها القطنية الجميلة، جافّ وجامد من كثرة غسله، ولربما غطى الفستانَ إزارٌ أبيض كالثلج، حوافّه منمقة بزراكش ثقيلة خاطتها يدا الجدة فلوجل المتجعدة. وعلى الطاولة الصدئة قد يكون هناك إناء من الزهور، وإبريق من القهوة اللذيذة، وصحن من كعك القهوة الألماني، ومن خلال المدخل المورق سيتسلل العبق المذهل للحديقة نحوهن.

فكرت بالشقة الصغيرة البشعة، وبالخوان القبيح، والمساحة الصغيرة في الفناء وليس فيها إلا الأشواك والأعشاب، وبالزقاق وراء الشقة، وورق الجدران الأحمر والأخضر في مدخل الشقة. في اللحظة التالية، ولرعبي، جثت آلما فلوجل على ركبتيها أمام الطاولة في التعريشة الصغيرة الرطبة، وجهها بين يديها وكتفاها الهزيلان يرتجفان.

أخذت تنتحب بالألمانية: «لا أستطيع فعل ذلك! لا أستطيع! آخ، صغيري شويستر أين أنت! أصلي في الليل والنهار ولكنك لا تأتي».

هزّتها تنهيدة بكاء جافة، وراحت يدها إلى صدرها، ثم إلى عنقها، ثم إلى شفاهها، بحركة غريبة، متشنجة، مخنوقة.

«افعلي هذا مرة أخرى!» صرخت بحدة وأمسكت بكتفي آلما فلوجل. «افعلي هذا مرة أخرى!»

حدقت عيناها الزرقاوان المشدوهتان في عيني، وسألتني: «ماذا تقصدين؟»

«تلك ـ تلك الحركة، لقد رأيتها ـ في مكان ما ـ تلك الحركة عندما تضغطين اليد على الصدر وعلى العنق، وعلى الشفاه... أوه!»

وفجأة عرفتُ. رفعتُ رأسها المنحني وشعّثت شعرها وجدائلها تحبباً، وأطلقت ضحكة مقابل الوجه المشدوه أمامي.

«هي هنا!» صحت وبدأت رقصة نصر على الأرضية المخلخلة للتعريشة القديمة. «أنا أعرفها. من اللحظة التي رأيتك فيها الشبه أسَرَني». وبينما تابعت آلما فلوجل تحديقها، والتعجب المشدوه نمى أكثر في عينيها، تابعت أنا الكلام. «تصدقين، أنا الآن واحدة من أربع أشخاص يهتمون بابن أختك في هذه اللحظة، واسمه بِني!»

وبسماعها هذا، فقدت آلما فلوجل وعيها تحت تعريشة العنب بهوائها القارس، وبكل سكون انحنى رأسها على كتفي.

أطلقتُ الكثير من الشتائم على نفسي وأنا أفرك يديها وأقوم بكل الأشياء الحمقاء والعبثية التي يفكر بفعلها الناس المضطربون في مواقف كهذه، وكل الوقت أتساءل إن كنت قد جننت لأميّز درجة من الشبه بين هذه المرأة الألمانية البسيطة ذات العينين الصافيتين، وبين تلك المرأة الرثة المتمايلة ذات الوجه المجروح التي وقفت أمام القاضي في المحكمة.

فجأة، فتحت آلما فلوجل عينيها، وقد رأيت الإدراك يشعّ فيهما. من ثم، بحركة خرقاء، جلست مستقيمة الظهر، يداها المرتعشتان تتمسكان بي.

«أين هي؟ خذيني إليها. آخ، أأنت متأكدة ـ متأكدة؟»

«يا ربي، أتمنى أن أكون! تعالي، دعيني أساعدك للعودة إلى داخل البيت. وأين أقرب هاتف من هنا؟ ولا يهمك، سأجد واحداً».

عندما نجحت في إيجاد أقرب صيدلية، قضيت ما يقارب عشر دقائق كالمجنونة أجري اتصالات مع ضابطة حسن السلوك المتفاجئة، ومن ثم مع السيدة نيرلانجر، وأخيراً مع بلاكي، لا لسبب معين. زعقت لهم القصة من على الخط من خلال عبارات متقطعة وبالكاد مفهومة. بعدها، أسرعت عائدة إلى الكوخ الصغير حيث قعدنا أنا وآلما فلوجل في حالة انتظار، نغرف من كل قطرة صبر استطعنا استجماعها.

بلاكي كان أول من وصل، ولم يحتج إلا إلى القليل من الشرح. هذه كانت من أفضل المزايا في بلاكي، أنه يفهم عبر قفزات وأميال بينما يصل الآخرون إلى الفهم زحفاً. لكن عندما أتت السيدة نيرلانجر، ومعها بِني، كان هناك دموع، وتأوهات متبوعة بصمت كئيب من جانب السيدة نيرلانجر عندما رأت بِني يؤخذ ويشد إلى صدر هذه المرأة المنتحبة. وفي منتصف كل هذا التشوش والاضطراب لم نسمع صوت قدوم ضابطة السلوك ومعها والدة بِني. سارت المرأتان على طول الطريق نحو الباب، وعندما وصلتا أدارت الأخت الصغرى المقبض، ولان تحت أصابعها، وفُتِح الباب القديم. وباستثناء أن الورود لم تكن تزهر على حواف الدرب الحجرية المنخفضة، فقد دخلت المرأة البيت تماماً كما أرادت لها آلما فلوجل أن تدخل.

دخلتْ الغرفة في صمت، ولم يكن لأي أحد أن يميز في هذه المخلوقة الجميلة الرقيقة تلك الخربة التعيسة التي كانت تقف في محكمة الأحداث. عندما رأت آلما فلوجل وجه الأخت الصغرى ـ الوجه الفقير، المجروح، الكئيب ـ قبض كرب عظيم على وجهها هي. أنزلت بِني على الأرض بكل رقة، ونهضت لتأخذ الجسد الهزيل المرتجف بين ذراعيها القويتين، واحتضنته كأنها لا تريد أبداً أن تفلته مرة أخرى. تبادلت الاثنتان كلمات مكسورة من الحب والعطف. نادتها بـــ(الحَمَل) وبـــ(صغيرتي)، وهكذا تراجعنا أنا وبلاكي والسيدة نيرلانجر إلى الوراء بعد طرح بضع الأسئلة والاستشارات على ضابطة السلوك القصيرة.

بلاكي كان قد جاء في سيارته الحمراء الصغيرة، والآن أدخلنا إليها، مدّعياً قرفاً عميقاً. «نفسي أن أعرف ما هو دوري بالضبط في هذه الدراما العجيبة». قال لنا وهو يشخر. «كأن لا عمل عندي إلا التجول في البلدة وجمع أختين ضائعتين وأيتام ببعضهم!»

«يا بلاكي، أنت تعرف أنك لم تكن لتسامحني أبداً لو تركتك خارج هذه

القصة. وعلى كل حال، عليك أن تتشيطن قليلاً وتجد طريقة ليبقى الثلاثة معاً في ذلك الكوخ الصغير الجميل. لا تتذمر! لن تكون لك أي فرصة أخرى لتلعب دور الجنية العرّابة».

امتدت يد السيدة نيرلانجر بحثاً عن يدي، فأخذتها وضغطت عليها بتعاطف. السيدة نيرلانجر المسكينة، سعادة امرأة أخرى لم تجلب لها سوى الألم، وقد قبّلت بِني مودعة، وهي تعرف كل المعرفة أن السرير الصغير بلونه الأزرق وورود الحمراء الممحية سيعود مرة أخرى، فارغاً، إلى عتمة سقيفة السيدة نابف.

رفع نوربيرغ رأسه مباشرة عندما دخلت غرفة الشؤون المحلية، وسألني فوراً: «حصلتي على قصة جيدة من تلك المرأة؟»

«لا للأسف». أجبته. «لقد كنتَ مخطأ فيما يخص هذه القصة. تلك السيدة اللطيفة ـ يبدو أنها لن تهجر البيت كما قيل لك».

الفصل الخامس عشر

جعّد الذعر جبين كل محليّ في الغرفة. ضاعف الذعر والحيرة من عدد التجاعيد على جبيني. نحن مشردون، يعني، لا نابفليين ـ نحن، الذين نعتبر آل نابف ونزلهم بيتنا.

السيد نابف، بشاربيه المرتجفان، والسيدة نابف، بخدودها اللامعة، أعلنا لنا الخبر في مساء لحق الأسبوع الذي غيّر حياة بِني. «نحن آسفون، آسفون جداً». كان قد قال السيد نابف بالألمانية، وقبل أن يستطيع الإكمال، اختلطت صيحات الاعتراض الألمانية بمحاولاته الشرح بألمانية بليغة. شعر المحليون كأنهم صُعقوا. صفقوا جبهاتهم البارزة بقبضاتهم السمينة، ولطموا صدورهم، وقاموا بحركات هوجاء بأذرعهم. وإن كانت اعتراضاتي أقل حميّة منهم، فهذا فقط لأن معرفتي باللغة الألمانية تتوقف عند أي كلمة من ست مقاطع صوتية.

وأثناء الضوضاء والفوضى والهذر والاستجواب، صار سبب طردنا من النزل معروفاً. لم يكن هذا الأوتيل الألماني الصغير يجني أي أرباح. مضيفنا ومضيفتنا كانا أشد كرم وأكثر أدب من أن يقولا لنا السبب الحقيقي لوقوع هذه الأزمة. لعل أجرة الغرف كانت مرتفعة جداً، ولربما، فكرتُ، كانت السيدة نابف تكرمنا أكثر من اللازم بكل تلك الزبدة على الدجاج المطهي. لربما كان هناك الكثير من الفطائر ببيض وحليب حقيقين مخلوطين فيها، والكثير من التلال الصغيرة من المربى الأحمر عليها. لربما كان هناك الكثير من الطعام الصحي المصنوع بكل صدق، ولا مؤن تكفي للنزل. على كل حال، كان على المشروع أن يُغلق ويُهجر.

عزّ عليّ كل هذا. هناك في غرفة الطعام الصغيرة، البسيطة النيّرة، بصورها العجيبة لملازمين ألمان بذقون بارزة، ووجوه نزلائها الغريبة، وكل الطعام الألماني الذي تذوقته فيها، كله هذا عز على قلبي. لقد صرت أحب السيدة نابف ذات الخدود العالية اللامعة، والسيد نابف بأدبه الثقيل. لقد امتدت بيني وبين السيدة نيرلانجر رابطة قوية من الصداقة، وسأشتاق لزياراتها الظريفة وحركاتها الحلوة ونقاشاتها المميزة. قضينا أنا وهي العديد من السهرات بفساتيننا، وأحياناً ـ وقلة من كان يحصل هذا ـ فتحتْ لي شقوقاً صغيرة لأرى من خلالها أي عالم تركت خلفها ـ فيينا، الأوبرا، البلاط، تلك الحياة التي كانت ملكها. لقد كانت بغاية البلاغة في أحاديثها، فقد كان عندها كل ذلك السحر والحيوية الحقيقية للفينيسيين. حتى المحليون، بقصات شعرهم السخيفة ونظاراتهم السميكة وأسلوبهم المريع وكل ذلك، صاروا أعزاء كالأصدقاء القدماء، بالأخص بعد أن عرفت أني سأخسرهم.

تلك الغرفة الكبيرة ذات السقف المرتفع في الطابق الأعلى قد جسّدت البيت بالنسبة لي. الخزانة بقياساتها الملائمة لصاحب اللحية الزرقاء لم تعد تربكني. اللون البنفسجي الفاقع للورود المزخرفة على السجادة صارت جميلة في عيني لأنها كانت جزءاً من تلك المساحة الصغيرة التي حملت السلام والراحة والحب. كيف لي أن أعيش بدون الكرسي الأصفر المطرّز! شدة لدانته ونعومته كانت بلسماً لعظامي المتعبة، ومقعده يسمح بالجلوس متربعاً على الطريقة الشرقية، وظهره الموسّد يتوقف عند اللحظة التي يجد فيها الرأس مكان اتكاء مريح، ومسانده السميكة قدمت الراحة للأكواع المتعبة، ومؤخرته الطرية مصنوعة للظهور التي تقضي النهار متقوّسة. كانت روحي المرهقة تتمرّغ بكل رضى وتغرق بالراحة التي يقدمها ذلك الكرسي القديم لي، حيث يستريح بين يدي كتاب قديم مستعمل وطبق من التفاح الأحمر يلمع أمام نور الموقد. بالإضافة لهذا كله، فالرواية التي ما زالت قيد الكتابة، قد نمت في تلك الغرفة. لقد تطورت

من لايقين متعثر وضعيف إلى مخلوق بدم حام ونفس طويل، وظلت تنمو وتنمو حتى بدا أنها عما قريب ستصير شخصها المستقل.

والآن، كل هذا سوف يتغير. لقد عرفت أني سأشتاق للجو الألماني البسيط للمكان، للعطف الذي رأيته من النزلاء، لمينّا المعجبة الثرثارة، ولكلب الدهشند كريمي اللون، وللمحليين بتبغهم ذي الرائحة السيئة وشحاطتهم المهلهلة؛ سأشتاق للحم العجل، وللزوجات المكسورات، والأزواج الألمان متعددي المهارات. سأشتاق لكل رتق في غطاء طاولة، ولكل شُعرٍ في الأواني الخزفية.

كتقدير منا على كل ما قدمه السيد والسيدة نابف لنا، عقدنا سهرة عائلية، ولأني لم أره منذ ثلاث أسابيع، ولأن موعد رحيله كان يزحف مقترباً جداً، ولأني كنت متأكدة أنني قادرة على تمالك نفسي، ولأنه كان يعرف آل نابف وكان يحبهم، ولأني، وبكل بساطة، دعوته، أتى فون جيرارد. لقد أتى، ووجدت نفسي مربكة بسبب كم السعادة الذي أصابني لدى رؤيته، لهذا جعلت من سلامي عليه بسيطاً وسطحياً قدر الإمكان، ولعلي سطّحت الأمر أكثر مما يجب، فقد حدق بي فون جيرارد لدقيقة طويلة سادها الصمت حتى توقفت عن الثرثرة معه ومات الهذر على شفتي، ووجدت نفسي أنظر للأعلى إليه كطفل يترقب التوبيخ على مشاكسة ما قام بها.

«بدون كل هذه الثرثرة يا صغيرة». قال بدون أن يبتسم. «هذا النوع من الادعاءات ليس ضرورياً بينك وبيني. تبدين شاحبة قليلاً». قالها بالألمانية ثم كررها بالإنجليزية. «أنت لست مريضة يا دون؟»

«مريضة؟ لم أشعر بكل هذه الصحة في حياتي». أجبته بلا مبالاة. «وأنا أحب أولئك الأشخاص الذين دائماً ما يخبرونك كم أنت نحيل، أو شاحب، أو هزيل».

«لا، بالفعل يستحيل إرضاؤهن، هاتي النساء! إن كنت لأقول لك كم أراك

جميلة الليلة، كنت لترفعي ذقنك بكرامة باردة وتذكريني أني لا أملك الامتياز الذي يسمح لي بقول هذه الأشياء لك، لهذا أمرر بحذر تعليقاً على شكلك، كالقول إنّ شحوبك واضح، وأتأكد من إخفاء الحنو في صوتي، وبالرغم من كل هذا أنت لست راضية». وهزّ كتفيه بيأس.

«ألا تستطيع أن تجد أرضاً وسط بين الغلظة والرقة؟ فأصلاً عيني لم تريا ولو لمحة من جمالك الأشقر لثلاث أسابيع. ورغم أني لا أطلب منك أن تهمس لي كلمات حلوة، فأنا ما زلت أتوقع شيئاً بعد كل هذه الأيام من غيابك ـ»

«كنت تشعرين بالوحدة؟ فقط لو كنت أعرف كم كانت هذه الأسابيع مقلقة بالنسبة ـ»

«ليس الوحدة بالضبط ما أشعر به». قاطعته بسرعة. «ولكن فقط ذلك التمني البسيط أن يربّت أحد ما على رأسي ويقول لي بأنني فتاة جيدة. أنت تعرف ما أعني. من السهل جداً أن يعتاد الشخص على الاهتمام والرفقة، ومن الصعب جداً أن يكون سعيداً بدونها بعد أن يكون قد جرّبها وعاشها. كان هذا نوعاً من التدريب على ما أتوقع أن أشعر به عندما تبتلعك فيينا».

«ما زلت على عنادك؟ ألم يغيرك مرور ثلاث أسابيع؟ آخ منك يا دون! طفلة!ـ»

ولكنني كنت أعرف أن هذه نقاط هزيلة مختومة بكلمة (خطر!) في بِرْكة حديثنا. «تعال»، قلت له. «عندي محليّان جديدان أريد تعريفك عليهما. هما أكثر المحليون لمعاناً للبشرة وهوجة من بين كل المحليين اللامعين والأهواج. لابد لك أن ترى بناطيلهم وربطات عنقهم! إياك وأن تجرؤ على العودة من فيينا مرتدياً هكذا ملابس!»

ضحك فون جيرارد. «وهل أقيمت الحفلة على شرف هذين المحليين؟ لم تشرحي لي في رسالتك. كل ما فعلته هو أنك طلبتي مني المجيء، بينما تعرفين

أنه لا يهمني سواء كانت مأدبة في حديقة أو حفلة راقصة إن سمحت لي المناسبة أن أكون معك مجدداً».

كنا أنا وهو في طريقنا إلى غرفة الطعام حيث ستقام السهرة الاحتفالية. عندما سمعت سؤاله هذا توقفت فجأة واستدرت نحوه، والحيرة على وجهي.

«أنت لا تعرف أن آل نابف سيرحلون؟ هل نسيتُ أن أذكر لك أن هذه الحفلة هي حفلة وداع للسيد والسيدة نابف؟» نحن سنخسر بيتنا، ولدينا فقط أسبوع واحد لنجد آخراً».

«ولكن أين ستذهبين؟ ولماذا لم تخبريني بهذا مسبقاً؟»

«لا فكرة لدي أبداً عن أين سأضع رأسي المسكين، في حضن القديسين على الأغلب، فلا أعرف كيف سيكون عندي الوقت لمقابلة المؤجرات وحزم أمتعتي خلال سبع أيام قصيرة. عملية الكتابة ستعاني من هذا التغيير، وخصوصاً وأني قد كتبت جيداً في الرواية».

كان هناك رقة خطيرة في عيني فون جيرارد وهو يقول: «مرة أخرى تكونين رحّالة، صحيح يا صغيرة؟ كيف لك أنت، بحبكِ للأشياء الجميلة، ونيافتك، أن تضطري للعيش بهذه الطريقة ـ في الأوتيلات والنزول، وحيدة، وبدون حتى وسائل الراحة التي تحق لك. أنت خلقت للبيت، مع زوج وأطفال، وكل تلك الأشياء التي تجعل الحياة مهمة».

أحسست كأن شيئاً ما عالق في حلقي، فبلعت ريقي وأنا أهز كتفي. «بخ! أي امرأة تستطيع الحصول على زوج وأولاد». رددت على كلامه بحقارة. «ولكن القليل جداً من النساء يستطعن كتابة رواية، فهذه الأخيرة لعنة من نوع خاص».

«وأنت تفضلين هذا الوجود، هذا النوع من الحياة، على كل ما أعرضه عليك! أنت تفضلين تحمّل كل تلك المشقات على أن تتخلي عن كل آرائك اللامنطقية التي تملكينها عن ـ»

«أرجوك. نحن لن نتكلم في هذا الأمر. أنا لا أتحمل أي مشقات. منذ جئت لأعيش في هذه المدينة الجميلة صرت واحدة من عابدي آلهة الراحة. لعلي لن أجد بيتاً آخر عزيزاً على قلبي كما هو هذا البيت، ولكن على الأقل لن أضطر للنوم على مقعد في حديقة، وأي أحد يستطيع أن يؤكد لك أن مقاعد الحدائق كانت دوماً مكان الراحة المفضل للعباقرة. انظر، السيدة نيرلانجر تشير لنا. الآن توقف عن العبوس وابتسم للسيدة. أعرف أنك ستتوافق جداً مع المحليين».

وقد صار على وفاق معهم لدرجة أنه وفي أقل من نصف ساعة كانوا يتبادلون القصص عن ألمانيا، والنمسا، وعن الجامعات وعن الحياة الطلابية. قدمت السيدة نابف عشاء متأخراً، وأثناء وضع الصحون على طاولاتنا أخذ واحد من النزلاء يغني أغنية شعبية رغم أن الأصوات التي خرجت من أفواه المحليين حول الطاولة زرعت الشك بكونها ألحاناً لأغنية عسكرية حربية. تبع هذا نهوض المحليين أجمعين وزأيرهم لأغاني الجامعات الألمانية، ضاربين بكؤوسهم على الطاولة عندما وصلوا إلى اللازمة، حتى انتقلت عدوى هذه الروح إلينا وأخذنا كلنا نضرب بكؤوسنا على الطاولة كأننا خريجي حانات محترفين. من ثم، فريتز صاحب الوجه الأحمر المغلوب على قلبه في حب لينا الغائبة، أعلن عن رغبته في تسلية الساهرين، وقد أشعل جرأته مزيج من بيرة السيد نابف المذهلة وكوكتيل كحولي صنعه فون جيرارد، وبهذا وقف فريتز على كرسيه، ووضع يده السمينة على المكان في صدره الذي ظن أنه فوق قلبه، وثبّت عينيه الزرقاوين المغرورقتين بالدموع على وجهي الخجِل، وبدأ بالغناء: «ويل لنا! نحن الذين يجب أن نرحل!» وقد تفاجأت بطبقة الباريتون الجميلة التي امتلكها. لم أجرؤ على النظر إلى فون جيرارد، لأني كنت أعرف أن وجهي لابد بنفسجي اللون لكتماني ضحكات الفرح، لهذا حدقت كحجر في ساندويشة السردين والمخلل في صحني، وشعرت بنفسي أزداد حرارة وهيستيرية، ولكني أيضاً شعرت ببرودة ورغبة بالبكاء.

عندما انتهى البيت الشعري الأخير من الأغنية، نهضت على عجل وأخرجت الهدايا من حيث أخفيتها، الهدايا التي اشتريناها، نحن نزلاء نابف، تقديراً منا وذكرى للسيدة والسيد نابف. لقد وقع علي دور إلقاء الخطاب، لهذا أمسكت بيدٍ الغليون المنمق الذي سيجعل السيد نابف كئيباً، والمظلة الحريرية على آخر طراز التي ستذعر السيدة نابف، وتسلقت المنبر الصغير الموجود في صدر قاعة الطعام، وبدأت التكلم بما ظننته لغة ألمانية فصيحة ومنمقة. فوراً انفجر المحليون في نوبة من الضحك، رفعوا رؤوسهم وزأروا وصفعوا أفخاذهم وذروا البصاق. بدا لي وكأنهم ظنوا أنني ألقي خطاباً فكاهياً، وبمعرفتي لذلك، أزحت الخجل جانباً، وتابعت خطابي بلغة أشبه بتلك التي يتحدث بها الكوميديون الألمان في المسرحيات الهزلية، ولكني أضفت لها شيئاً من البلاغة أيضاً. عندما قدمت لها المظلة الحريرية، انفجرت السيدة نابف بالبكاء، وأخذت تتلمّس بيأس باحثة عن إزارها لتدرك أنه لم يعد في مكانه المعتاد حول خصرها، وبدل هذا مسحت دموعها بكم فستانها الأزرق الحريري المفضل، شاعرة بوحشة العذاب. رفعنا نخب الصحة والازدهار المستقبلي لمضيفنا ومضيفتنا، والبعض اقترح أن نغني واحدة من أكثر الأغاني الشعبية صخباً، وقد أجبنا على هذا الاقتراح بطريقة تجعل الملازم ذو الذقن البارزة يرتجف في ثنايا إطاره الخشبي على الحائط.

عندما انتهى كل شيء، أشارت لي السيدة نيرلانجر، ومن ثم أنا وهي والدكتور فون جيرارد تسللنا إلى البهو ووقفنا عند أسفل الدرج، نتناقش في خططنا للمستقبل، محاولين أن نبتسم ونحن نتكلم في هذا المخطط أو ذاك. السيدة نيرلانجر، بفستانها الأبيض الجميل، كانت تبدو منهكة ومضطربة. الزوج البشوع كان لا يزال في قاعة الطعام، ينهي بيرته وكحوله وقد شرب الكثير منها.

«لقد استأجرنا شقة ضئيلة جداً». قالت السيدة نيرلانجر بلهجتها اللطيفة. «وهو أفضل، سيصير عندي القليل من الأعمال المنزلية، والقليل من الطبخ،

والقليل من التسوق لإبقائي مشغولة، وربما سعيدة». أخذت يدي بيدها. «ولكن هذا لن يفرقنا». تضرّعت لي. «ماذا لي أن أفعل أنا ولا أحد غيرك يجلب الضحكة إلى قلبي؟» التفتت إلى فون جيرارد ووجهها يقطّر توسّلاً. «ستكثر من اصطحابها إلى شقتنا الصغيرة، صحيح؟»

«بقدر ما تسمح لي السيدة أورم». أجابها.

«آخ، نعم. وحيدة جداً سأكون، فأنت لا تعرف ما كانته هي بالنسبة لي. هذه الدون، هي تتحلى بشجاعة تكفي لشخصين. دائمة الضحك هي، ومرحة، صحيح؟ أنا أسميها جنديتي الصغيرة».

«جندية، ها؟» همهم فون جيرارد. «جنديتنا الصغيرة. يليق بها هذا الاسم، ومعاركها تحارب فيها وحيدة، وحيدة تماماً». عيناه، وهما تنظران إليّ من علوه العظيم، كان فيهما ما جعل الدم يغلي في عروقي والتنميل يسري في أطراف أصابعي. رفعت يدي إلى رأسي وألقيت عليه تحية عسكرية.

«التفتيش مرضٍ، سيدي؟»

ضحك ضحكة صغيرة كئيبة. «بكل تأكيد، مرضٍ جداً».

كان طويلاً جداً، وشامخاً، وجميلاً على البصر، وهو يقف هناك في الردهة والضوء المنبعث من مصباح الدرابزين ينير ملامحه ويشدد على شقاره. وجه السيدة نيرلانجر تسربل بتعبير صغير من الألم وهي تنظر إليه، ومنه إلى جسد زوجها الذي كان قد خرج لتوه من قاعة الطعام، وكان يقطع الردهة بخطى متعثرة متجهاً نحونا. كان وجه السيد نيرلانجر محمرّاً وشعره الأسود المبتل كان منحرفاً في كل اتجاه وانحدرت شعرة واحدة بكسل على جبينه. أثناء تقدمه نحونا تفحصنا بعبوس تغير ببطء إلى تكشيرة خبيثة. وصل إلينا مترنحاً ووضع يداً على كتفي كأن بيننا ألفة.

«لا خيار لنا سوى الفُرقة». أعلن بشكل درامي. «أفضل الأصدقاء يفترقون. يعني، وداعاً، يا شيطانة متطفلة، لكن أنا أسامحك، لأنك شيطانة صغيرة جميلة». رفع يداً كأنه يريد أن يربّت على خدي، وبسبب الرعب الذي رأيته مرتسماً على وجه المرأة الواقفة بجانبي، حاولت أن أبتسم ولم أنكمش على نفسي، ولكن بحركة سريعة أمسك فون جيرارد بالرجل المترنح وأدار له جسده ليواجه الدرج.

«تعال يا نيرلانجر! حان موعد نوم الرجال كثيري العمل مثلنا، والسيدة أورم، كذلك، يجب ألا تغفو فوق مكتبها غداً. إذن، ليلة سعيدة، ونوماً هنيئاً لكنّ يا سيّدتيّ».

ألقى كونراد نيرلانجر بنظرة خلف كتفه ووجهه عابسٌ، ومن ثم نسي لماذا كان يعبس واستبدل التعبير بابتسامة خبيثة أخرى.

«صديقتان جيدتان، أنتِ وهي، هذه الشيطانة الصغيرة، ها؟ أعتقد أن عليّ ضبطك ومراقبتك، ها؟ سنراقبهما صحيح يا آنا؟»

بدأ الرجل بتسلق الدرج بصعوبة، وجسد السيدة نيرلانجر الخفيف يرف ببضع خطوات خلفه. عند زاوية الدرابزين استدارت ونظرت إلى الأسفل نحونا للحظة، عيناها لامعتان جداً وكبيرتان. ضغطت بأصابعها على شفتيها، وأرسلت قبلة صغيرة في الهواء إلينا بطريقة حزينة ورقيقة لا يمكن وصفها. تفحّصتْ تقدم زوجها الشاق بدون أن تجرؤ على تقديم المساعدة له، من ثم، تابعت طريقها نحو غرفتها، وأخفتها عن ناظرينا استدارة الدرج.

في العتمة الساكنة للردهة، مد فون جيرارد يديه ـ تلك اليدان الماهرتان، الثابتتان والواثقتان كما تكون أيدي الجراحين تماماً ـ يدين للتعلّق بهما، لتوازن نفسك بهما، ولأنني احتجت إليهما أكثر من أي وقت مضى في تلك اللحظة، ولأن كل جزء من روحي كان يتوق لأضع يدي المرهقتين في تلك اليدين القويتين،

ولأرفع تلك الأصابع الغالية، الباردة، إلى وجنتي الساخنتين، ثبّتّ قدماً على الدرجة الأولى ومددت له أصبعين باردين. «تصبح على خير، يا سيدي الطبيب». قلت. «وشكراً لك، ليس فقط لأجلي، بل لأجلها هي أيضاً. لقد شعرت الليلة بما تشعر هي به، ليس من السهل أن تكون المرأة مَخزيّة وخجلة من زوجها».

طوّقت يدا فون جيرارد يدي. «يا دون، ستدعينني أساعدك في إيجاد مكان مريح للسكنة؟ لا يمكن لك أن تقفزي من مكان لمكان طيلة الأسبوع. دعينا نجهز قائمة من العناوين، ومن ثم بسيارتي نستطيع أن نسوق من عنوان لعنوان في غضون ساعة. على الأقل هذا سيقلل من عناء البحث، ويقلل من تعبك».

«تريد مني أن أبحث عن غرفة في نزل وأنا أستقل سيارة خضراء رائعة!» قلت له. من موقعي على الدرج كنت أقف أعلى منه وأنظر للأسفل إليه، واجتاحتني رغبة عظيمة، وتوق، لأن أمرر أصابعي برقة في ذلك الشعر الأشقر الناعم، وأن أضم رأسه إلى صدري لنتشارك لحظة سكون رائعة، ولكني لم أفعل أياً من هذا.

«المؤجرات والسيارات!» قلت وضحكت. «يستحيل! ألا تعرف أنهن إن استرقن نظرة واحدة إليّ من إحدى شبابيك ردهن، ورأوني أترجل، بكل أبهة، من سيارتك الخضراء، سوف حتماً يطلبون أجاراً أعلى لأي غرفة في النزل؟ سأذهب لأتصيّد غرفة وأنا أرتدي أقدم قبعاتي، وسينبز أصبعي خارجاً من قفازي المخزوق».

هز فون جيرارد كتفيه بيأس.

«آخ، لا فائدة من النقاش معك. أحياناً أفكر إن كان كل ما تفعلينه ليس فقط لإرضاء نفسك، بل أيضاً تفعلين ما تفعلين لتجمعي قصصاً لروايتك، أو لتحفظي تجارب جديدة وتضميها لمخزونك المتنوع».

مباشرة استدرت لأخفي عنه ألمي، وبدأت أصعد الدرج. بخطوة واحدة كبيرة صار فون جيرارد بجانبي، وجهه مشدود ومتشنج.

«سامحيني يا دون! أنا أعرف أنك أكثرهن حكمة، كل ما في الأمر، أظن أنا، أن القليل من الغضب يأخذني عندما أراك تعاركين وحدك هكذا بين الغرباء، بينما أعرف أن لا حق لي أنا بمساعدتك. أنا لا أعرف عما كنتُ أتحدث. هيا، ارفعي عينيك وابتسمي، كالجندية الصغيرة التي نعرف. إذاً، أنا الآن مُسامح، صح؟»

ابتسمت بمرح كاف لعينيه الزرقاوين. «مسامح طبعاً. والآن عليك أن تعجّل بالذهاب، الوقت متأخر ووقفتنا هنا هكذا فضائحية. المحليون سيأتون ويقولون لنا «صباحكم!» بدل «مساءكم!» إن استمرينا في الوقوف هنا. تصبح على خير».

«ستعطيني عنوانك الجديد عندما تجدين غرفة ترضيك؟»

«إياك والخوف! على الأغلب سأظل أزعجك باتصالاتي، أحثك فيها على أن تشفق عليّ وتتعاطف مع وحدتي. والآن، تصبح على خير مرة أخرى. امتلأتُ هذه الليلة ونضحت بالوداعات». ولأنهي هذا الموقف ركضت متسلقة الدرج، وعند نفس زاوية الدرابزين التي توقفتْ عندها السيدة نيرلانجر، توقفت أنا، وألقيت نظرة من خلف كتفي. كان فون جيرارد ما يزال واقفاً كما تركته، ينظر نحوي من الأسفل. وكالسيدة نيرلانجر،

أرسلت له قبلة صغيرة في الهواء قبل أن أختفي وراء زاوية الدرابزين وأغيب عن ناظره. ولكن فون جيرارد لم يشر بكلمة أو نظرة على أنه رأى القبلة، وظل يقف هناك محدقاً بي، ويدٌ بيضاء قوية مسنودة على عامود الدرابزين.

الفصل السادس عشر

كان معنا أسبوع واحد فقط لنهرول فيه بحثاً عن غرفة جديدة. مضت الأيام مسرعة، تتعثر فوق بعضها البعض في عجلة. ساعات نومي كانت مسكونة بكوابيس عن مؤجرات وغرف نزل بشعة وعجيبة. تراقصت عواميد من إعلانات (للسكن، مفروش أو غير مفروش) وتقافزت وتدافعت أمام عيني الغارقتين في حالة من الدوار. وقد قضيت وقتي بعد ساعات العمل في تسلّق أدراج معتمة، أتقابل مع مؤجرات في ملابس النوم متحجرات الوجوه، مسترقةً النظر داخل غرف نوم قبيحة مسجونة بين ورق جدران بزخارف مرهقة للعين ومملوءة برائحة أعشية أُكِلت منذ زمن. وجدت في النهاية غرفة أفضل بقليل من البقية، ولكن قيل لي إن تفضيل إعطائها هو لرجل كان قد أتى البارحة ووضع عينه عليها.

«أفضّل أن أؤجر للرجال فقط». شرحت لي الآنسة المكتنزة التي تحمل المفاتيح لغرف النزل. «الرجال يذهبون في الصباح الباكر ويأتون متأخرين في الليل، وهذا كل ما ترينه منهم، أغلب الوقت. أنا جرّبت النساء، وهن يثرن جنوني، يصرخن دائماً طلباً للماء الساخن ليغسلن شعورهن، أو يضعن مناديلهن على المرآة، أو يدخلن إلى المطبخ لكيّ هذا القميص أو تلك التنورة. إذا لم يأخذ الرجل الغرفة، سأرد لك خبراً، ولكني أشعر أنه سيأخذها».

وقد أخذها بالفعل. على كل حال، لا أحد استدعاني لملجأ الرجال ذاك. كان هناك مؤجرات غرف أخريات ـ مؤجرات سمينات ألمانيات، مؤجرات نحيلات

إيرلنديات، ومؤجرات ثرثارات من مختلف الجنسيات، ومؤجرات متحفظات، ومؤجرات بدون أزواج. متزوجات، وأرامل، ومطلقات، وعندهن استعداد لتأجيري غرفة، مؤجرات متحررات، وأخريات متزمتات، وكلّهن تلمح في وجوههن ماض من الثراء والأبّهة.

وفي النهاية، عندما قبض على قلبي اليأس، وتخللت ذهني صور لحقيبتي وصندوق قبعاتي وآلتي الكاتبة مصفوفين على الرصيف بينما أنا، مشردة، أقرفص بينهم، صدف أن وجدت غرفة منعمة بإطلالة ملكية على البحيرة. صحيح أنها كانت أغلى مما كنت مستعدة لأدفعه من محفظتي الهزيلة، وصحيح أن صاحبتها كانت ذات وجه محمّض، وصحيح أن الغرفة نفسها كانت غائرة كالكهف وباردة المظهر ولا شيء محبب فيها، ولكن منظر البحيرة الزرقاء الرائعة انتصر على كل هذه الإزعاجات، ورغم هذا فقد حذرني صوت داخلي متردد بأن إطلالة البحيرة هي نفسها تمثّل عدة مشاكل. تذكرت، لاحقاً، كيف أن السيدة ذات الوجه المحمّض أغرقت في مديح منظر الشروق فوق ماء البحيرة. قلت لها في تلك اللحظة إنني، ورغم شغفي بمنظر شروق الشمس، فأنا أحب المنظر أكثر إن لم يحدث باكراً جداً في الصباح. بسماعها هذا، شخرت السيدة بمزاج كالخل. أنقم على المؤجرات اللواتي يشخرن.

حقيبتي وآلتي الكاتبة الموثوقة أُرسلتا إلى غرفتي الجديدة في الظهيرة، بدوني أنا شخصياً، فلم يكن لدي وقت لأضيعه في تلك الساعة من النهار. لاحقاً تبعت أغراضي، محمّلة بمظلة، صناديق، ومغلفات طرود بنية وأشياء أخرى متعلقة بالتنقل. تعثرت واصطدمت على طول طريق صعودي شاحطيْ الدرج المؤديان إلى إطلالة البحيرة وإلى سريري، وكل ما ارتفعت قدماي درجة انحدر قلبي. في النهاية، عندما صارت الغرفة الكهفية لي، شعرت بفمي يرتجف، لهذا رميت أغراضي على الأرض في كومة ورحت إلى النافذة لأنظر إلى البحيرة حتى ترتفع

معنوياتي، ولكن النهار كان رمادياً، والبحيرة بدت ضخمة وكئيبة وغير ودودة, لم تكن لتقضي وقتاً لطيفاً معها أو تصادقها. عدت لأحدق في الحظيرة التي صارت غرفتي، ولم تكن لتقضي وقتاً لطيفاً مع هذه أيضاً. أخذت أفرغ حقائبي وطاقة من الغضب تملؤني. ومن ثم أضأت كل مصباح غاز، ولم يفعل ضوؤهم سوى مد ظلال معتمة في المساحة القاتمة لتلك الغرفة البشعة. مفرقعات عيد الاستقلال، وشموع رومانية، وصواريخ، ومراوح ورقية ملونة وأزياء وكل هذا ما كان ليستطيع زرع روح احتفالية في تلك الغرفة.

وأنا أفرغ حقيبتي فكرت بغرفتي الدافئة في نزل نابف، وبينما أنا أفكر بها رفعت رأسي عن الحقيبة وانهرت على الأرض، حاملةً بلوزة من الساتان في يد، وجزمة جلدية في اليد الأخرى، ورغبت بأن أنوح بسبب الشعور بالوحدة. عادت لي ذكريات عزيزة عن الكرسي الأصفر المطرز المريح، والمصباح، والموقدة، والسيدة نيرلانجر، والفطائر. فكرت بالمحليين أيضاً. داخل ذهني الغارق في الشوق، وجوههم القاسية صارت ملامحاً من جمال عابر. لو رأيتهم الآن، لوضعت رأسي على أكتافهم جميعاً وذرفت الدموع على ربطات عنقهم الزرقاء الساتانية. وفي ذكرياتي عن السيدة نابف، بدا لي أنني أستطيع أن أميز هالة خفيفة ضبابية تطوف حول رأسها بشعره المشدود بإحكام. تاقت روحي لها وأنا أتذكر عظام الخدود المرتفعة والبشرة اللامعة، والإزار، والدجاج المطهو مع الزبدة. كنت مستعدة للتضحية بسنة كاملة من حياتي لأسمع واحدة فقط من كلمة «مساءكِ» الودودة. كان من عادة أحد المحليين أن يحتدّ في نقاشات ما بعد العشاء ويعبّر بحميّة عن رأيه، فيستلّ عود أسنان بين إبهامه وسبابته ويلوح به. هذا المحلي دائماً ما كان يزعجني، ولكن الآن فكرت به بعطف في قلبي وأنّبت نفسي على كل ذلك التكبّر. كنت لأنوح وأبكي لو لم يكن في إحدى يدي جزمة جلدية وفي يدي الأخرى بلوزة من الساتان. جزمة الجلد تجلب راحة نفسية باردة، ولأنني

كنت شخصاً مقتصداً ورهفاً، فقد منعت أي دموع من النزول وإفساد البلوزة، لهذا قررت في النهاية النهوض على ركبي وإكمال إفراغ الحقيبة.

قبل العشاء بقليل ارتديت فستاناً جميلاً لأرفع من معنوياتي وأزيد من شجاعتي، من ثم تلمسّت طريقي وأنا أنزل الدرج الطويل المعتم، واتصلت بفون جيرارد. بدا لي أن مجرد سماع صوته كان كفيلاً بأن يغرس فيّ شجاعة وأملاً جديدين. مررت الرقم، وانتظرت.

«الدكتور فون جيرارد؟» كرر صوت نسائي من الطرف الآخر للسماعة. «مشغول جداً الآن، تريدين أن أسجّل اسمك؟»

«لا»، قلت لها. «سأظل على الخط. قولي له إن السيدة أورم تنتظر لتتكلم معه».

«سأقول له». قال الصوت بحنق.

لحظة انتظار أخرى، ثم: «دون!» أتى صوت متفاجئ ولكن سعيد.

«مرحباً!» صحت بهستيرية. «مرحباً! آه تكلّم! قل شيئاً لطيفاً أترجاك! أنا آسفة أنني عطّلتك عن أي شيء كنت تفعله، ولكن لم أقدر على الانتظار. تكلم فقط، أرجوك! أنا أموت هنا من الوحدة».

«يا بنت، أنت مريضة؟» كان من المرضي أن أسمع ذلك القلق في صوت فون جيرارد. «أهناك خطب ما؟ صوتك مرتجف، أستطيع سماع هذا بكل وضوح. ما الذي حصل؟ هل كتبت لك نورا ـ»

«نورا؟ لا، لا شيء أزعجني في رسالتها، كل ما في الأمر هو الغربة التي أشعر بها في هذا المكان. سوف أصير على أحسن ما يكون في يوم أو اثنين».

«الغرفة الجديدة، هل ترضيك؟ هل وجدت ما كنت تريدين؟ غرفتك مريحة؟»

«هي ـ هي غرفة كبيرة». تلعثمت. «وهناك ـ منظر ممتاز أيضاً، إطلالة على البحيرة».

كان هناك صوت مُكمّم في الجهة الأخرى من الخط، ثم: «أريدكِ أن تلتقي بي في وسط المدينة الساعة السابعة. سنتعشّى معاً». قال فون جيرارد. «لن أقبل أن تقضي مساءك تعيسة ووحيدة».

«لا أستطيع القدوم».

«لما لا؟»

«لأنني أريد القدوم كثيراً. وعلى كل حال، فقد تحسنت حالتي النفسية الآن. سوف أذهب لتناول الطعام هنا، وبعد العشاء سأقضي الوقت للتآلف مع غرفتي. هناك ست زوايا ومساحة كاملة تحت السرير لم أكتشفها بعد».

«يا دون!»

«نعم؟»

«إن كنت حرة الليلة، هل تتزوجينني؟ إن كنت تعرفين أنك في الشهر القادم ستكونين سيدة نفسك، هل قد ـ»

«يا إرنيست!»

«نعم؟»

«إن فُتحت لك بوابات الجنة على وسعها، وكتبوا (أهلاً وسهلاً) بالألماس على أعلى الباب، واجتمع أجمل الملائكة عند المدخل للترحيب بك واستقبالك، وتستطيع أن ترى على مد النظر أمامك كل ما ينتظرك من الجمال، من الروعة، من كل ما ترغب به، أتدخل؟»

وبعدها أغلقت السماعة وذهبت لتناول العشاء، وذهبت فعلاً، ولكني لم آكل شيئاً. قد رأيت هناك كل أطياف مُعذّبي النزل المعتادين. قاعة الطعام لا شك صُممت على شاكلة قاعات الطعام في الروايات التي تحكي عن المشردين. كانت فارغة، وبدون ألوان، وبدون أي زينة. المتعشّون كانوا جالسين على

طاولتين طويلتين جافتين ممدودتين على طول القاعة، وكل النساء نزلن ليأكلن وقد طوّقت أكتافهن الهزيلة شالات صوف بيضاء، ملفوفة بإحكام فوق فساتينهن السوداء. انطباعي الأول كان أني استأجرت غرفة في دار للعجزة. وجدت أن كل الكراسي على الطاولة كانت مشغولة، وأنني كنت أصغر شيء في المكان، وقد شعرت بصغر سني مقارنة بالناس والأثاث وكأنه جريمة، لدرجة أني تساءلت لم لا يشدوا وثاقي بعد إلى كرسي عال ويغصبوا الخبز والحليب في حلقي. بين الفينة والأخرى كان يُفتح الباب ليدخل فرد جديد وينضم للمجموعة، وهذا الفرد الجديد يكون حتماً أحفورياً ومنخنخاً وملفوفاً بشال. علمت أن السيدة شوارتز الجالسة على يساري لا يهمها كثيراً لحم البقر للفطور، وتحب لحم الخروف أكثر. وعلمت أيضاً أن جماعة العجائز على يميني وجماعة العجائز الأخرى على يساري كانوا حانقين بسبب جلوسي بينهم. الحديث بين العجوز على اليمين والعجوز على اليسار تسرّب نحوي من فوق طبق الحساء، كالتالي:

«كيف تشعرين هذا المساء آنسة ماورر، هِم؟»

«لا تسأليني».

«هذا سبب إصابتك بالروماتيزم. غرفتي كانت كالثلاجة طول اليوم. أنت أيضاً؟»

«ما عدت أشتكي. الأمور تتحسن لما نتوقف عن التذمر. شوربة الشعير؟ في بيتي القديم لم آكلها أبداً، وهنا أدفع من مالي وآكل شوربة الشعير أربع مرات بالأسبوع. هذا خيار طازج؟ ام ـ م ـ م. لا، ليست طازجة. انظري إلى الآنسة ميلر، معنوياتها جيدة هذا المساء، لها الحق أن تشعر هكذا، فازت بخمس وعشرين سنتاً في لعبة البريدج. لا أدري كيف لتلك المرأة أي حظ».

اختنقتُ، شهقتُ، وهربتُ من هناك.

وقد عدت إلى ملجأي الصغير مرة أخرى، بدأت بترتيب الأشياء. سحبت طاولة آلتي الكاتبة إلى أقل الزوايا عتمة وتحت أكثر المصابيح الغازية قوة، وأنقذت

عقلي المترنح عبر كتابة رسالة طويلة إلى نورا. عندما انتهيت من ذلك، تحسّنت روحي قليلاً. فتشت في قاع حقيبتي عن الأوراق المتناثرة للرواية الناقصة، قرأت بسرعة آخر أربع صفحات، واكتشفت أنها لم تكن بكل تلك السطحية التي تخيلتها، ومباشرة أدى بي هذا الاكتشاف لنسيان الكآبة التي تحيط بي بغمر نفسي في فتنة القصة.

في منتصف حمية الكتابة، سمعت طرقاً على الباب. وقفت خادمة في البهو وبدا لي وكأنها مصابة بفقر الدم، وقد تذكرت وجهها لأنني رأيتها في قاعة الطعام، وقد كان هذا الوجه بالكاد مرئياً من وراء صندوق أخضر كبير.

«أنت السيدة أورم، صح؟ هذا الصندوق لك».

وقفت الخادمة الصغيرة بخدودها البيض عند عتبة الباب بينما رفعت أنا غطاء الصندوق، كاشفة عن باقة كاملة مكملة من الورود الأميركية الجميلة، والتي صُفت في قلب الصندوق وكأنها وسادة، ندية وعطرة. فتحت الخادمة الصغيرة عيناها على وسعهما من الروعة وهي تنظر معي للمحتويات، ولأنني كنت أعرف جيداً الشوق للورود، فصلت وردتين متفتحتين من المجموعة المتوهجة وقدمتهما لها.

«لي أنا!» شهقت، وأنزلت شفتيها برقة إلى الوردتين. «هناك جرة خضراء في الأسفل يمكن أن تستعمليها لتضعي ورودك فيها. لا تملكين أي شيء كبير بما يكفي هنا، باستثناء إبريق الماء ذاك، ووضع هذه الورود العظيمة في إبريق ماء كذاك هو مثل ارتداء فستان من الحرير فوق ملابس داخلية صوفية، صح؟»

عندما عادت خادمة النزل الصغيرة شاحبة الوجه ذات الرواح المحبة للجمال ومعها الجرة الخضراء، وضعت سيقان الورود فيها بأصابع رقيقة. في قاع الصندوق الأخضر وجدت ورقة مكتوب عليها: «لأنه يستحيل أن تعيشي في غرفة مع ورود حمراء وتظلي حزينة».

كم كان على حق! وبالفعل كم من المستحيل البقاء حزينة عندما تتوهج الورود الحمراء وتنفث عطرها في الجو. ولكن هذه المقاطعة كانت قاتلة لعملية الكتابة. أفكاري كانت في فوضى من الورود الحمراء، وخادمات صغيرات مريضات بعيون لامعة، وأطباء شباب عطوفون وعندهم فهم مذهل للمزاج الأنثوي. لهذا، أطفأت كل الأضواء، شلحت ملابسي تحت نور القمر، وارتديت قميص نوم. حملت جرة الورود إلى النافذة وجلست بجانبها حتى تلامسني رائحة الورود الخلابة.

أطلق ضوء القمر تعويذة من السحر الأبيض على سطح البحيرة، والعالم الذي امتد تحت نافذتي كان مغموراً بالضوء. الصيف كان طرياً وشاباً، وقد تبع خطوات الربيع ليحل محله. أجسام مظللة وقاتمة لأشخاص بعيدين نقّطت المقاعد في الحديقة مقابلي، وورائهم، كانت البحيرة الفضية، وقد قصّ صدرها بشكل أفقي خيط مبهر من ضوء القمر. مرت السيارات بسرعة على الشارع بأزيز وهدير ثم اختفت، تاركة خلفها أثراً لضحكات. من النافذة المفتوحة للغرفة تحتي أتى صوت صفق ورق الشدّة على سطح طاولة مصقولة، ترافقها همهمة خفيفة لتبادل النقاش بين اللاعبين وهم يحسبون نتائج اللعبة. تحت ضوء الشارع كانت تقف عربة بائع الفوشار كاللطخة على الجمال الغامض للمشهد أمامي، ولكن عطر ورودي الحمراء طاف نحوي، وبتلاتهن المخملية مسّدت خدّي، وخلف كل الضجيج والأضواء في الشارع كانت البحيرة العظيمة، مع ذلك الخيط من نور القمر الذي يقص صدرها أفقياً. حدقت في المشهد وسامحت السيدة محمّضة الوجه على قاعة طعامها؛ سامحت جماعتيْ العجائز على شالاتهم وشوربة الشعير، وللحظة، حتى، نسيت أفكاري المرهقة عن بيتر أورم. نسيت كل شيء إلا أننا في يونيو، وأن هناك ضوء قمر ساطع، وأن العيش والحياة جيدة.

كل التغييرات والأحداث التي حصلت أثناء هذه السنة الغريبة والحافلة

عادت وتجمّعت في رأسي وأنا جالسة هناك عند النافذة. أربع أصدقاء جدد، مُجَرّبون وموثوقون! جمعتهم بفرح في قلبي، وأي جماعة متباينة كانوا! بلاكي، صاحب الأخلاق المطاطية والقلب الأكثر مطاطية؛ السيدة نيرلانجر بشفاهها المبتسمة وصوتها الغنائي وعينيها المأسويتين ـ هي التي انحنت من علو شاهق لتقطف وردة الحب تحتها لتجدها مجرد عشبة متربة بلا قيمة، تجرح يدها؛ آلما فلوجل، بذاك الضوء من الشكر والتقدير الأبدي في وجهها الصادق؛ فون جيرارد، المستعد أبداً ليلعب دور الوسيط بيني وبين العالم، رقيق كامرأة، كثير التفكير بالآخرين، جديّ في تعاطفه، ونور الإخلاص يتوهّج في عينيه الواثقتين.

«وكل هذا ثراءٌ». قلت في نفسي، متذكرة جملة الصبي السمين في رواية أوراق بيكويك[1]. شكرت اللّه على الطاقة الجديدة التي أرسلتني إلى هذه المدينة الجميلة بجانب البحيرة، شكرته لأنني لم أكن راضية بالبقاء عالةً على ماكس ونورا، عندهم في البيت أنمو حامضة ومعزولة ـ تلك السنين من العمل والسعي قد جعلت مني امرأة أقوى، أفضل وأصدق، وقد جعلتني أنسى مأساتي الصغيرة وأنا أتأمل الكوميديا البشرية في كليّتها. لهذا، عقدت صلاة صغيرة هناك في الغرفة المغشية بالضوء.

«أيها الرب العزيز»، صلّيت، ولم أقصد لها أن تكون إلا صلاة صادقة. «أيها الرب العزيز، لا تشغل نفسك بطموحاتي! فقط دعني أبقى قوية وبصحة جيدة لأتابع عملي وأقوم بواجباتي اليومية. دعني أبقى ملتزمة بمعاييري الأخلاقية، وبفهمي الشخصي للخير والسوء. دع هذا الحب الجديد والرائع الذي قد دخل حياتي أن يكون مصدراً للقوة والراحة، لا أن يكون حِملاً من التعب والتعاسة. لا تدعني أصير خرقاء وكسولة مع تقدم السنين. دعني أحافظ على حُسن

(1) رواية تشارلز ديكنز الأولى

شعري وبشرتي وأسناني، واحميني من ارتداء قمصان متسخة، ورفع شعري على شكل كعكة. أمين».

وقد شعرت بالسعادة بعد هذا ـ سعيدة لدرجة أن النتوءات الصغيرة في السرير الجديد لم تزعجني كما تفعل الأسرّة الغير مألوفة في العادة. الورود وضعتها لتنام في الجرة الخضراء، مبقية واحدة معي لأحضنها بجانب خدي وأنا أنسلّ في عالم الأحلام. فكرت، نعسة، قبل لحظات من سرقة النوم لي: «غداً، بعد العمل، سأزم تنورتي، وألفّ منشفة على رأسي، وأصبح نحلة لتنظيف الغرفة. سأنقل السرير إلى حيث حوض الاغتسال موجود الآن، وسأبدل مكان الخزانة بمكان الصوفة. الواحد يشعر بود أكثر مع الأثاث الذي يحركه وينقله بعض الشيء. ما أروع ضوء القمر، الغرفة غارقة فيه! وهذه الورود ـ حلوة!ـ حلوة!»

كان الصباح قد حلّ عندما استيقظت. خلال الأيام التي تبعت، تذكرت تلك الليلة بمحبة، بضوء القمر فيها، وبورودها، وبذاك السلام الجميل الذي غمرني فيها.

الفصل السابع عشر

قبل يومين فقط من استقرار موعد سفر فون جيرارد، كانت الرواية قد انتهت، طُبِعَت، دُققت، حُزمت، وأُرسلت إلى عدة دور نشر. بعد أن أرسلتها بنصف ساعة، بدت أكثر أخطائها جلاءً تتقافز أمام عيني وفي ذهني. فقرات بأكملها كانت قد بدت لي منطقية حين قرأتها آخر مرة، صارت الآن سخيفة عندما فكرت بها. تقت لأن أسرق المخطوطة وأعيدها، لأرتبها هنا وأقصقص منها هناك، لأصقل بعض الزوايا الحادة التي تجاهلتها في استعجالي. لما يقارب السنة قد عشت مع هذه الرواية، قريبة جداً منها لدرجة أن حسناتها ومساوئها صارت كلها شيئاً واحداً بالنسبة لي. نهاراً وليلاً، لشهور عديدة، ظلّت الرواية في رأسي. غريزة ما قد دفعتني لإنهائها مؤخراً. لقد عملت عليها وكتبت فيها في ساعات الليل المتأخرة، حتى بدأت أتعجب أن قاطني الغرف المجاورة لم يجتمعوا في مظاهرة اعتراضاً على الطقطقة المتواصلة لمفاتيح آلتي الكاتبة. والآن وقد أرسلتها، أخذت أتساءل ببرود إن صار بإمكاني أن أشعر بشدة أكبر بقرب رحيل فون جيرارد.

لم يعرف أحد بوجود الرواية إلا نورا، فون جيرارد، بلاكي، وأنا. بلاكي كانت له طريقة في السؤال عن سير الرواية، فيتحدث عنها بصوت مغمور وإعجاب مبالغ، وقد استمتع بالجثي على ركبتيه ويديه وتمرير عصا، بكل حرص، ليرسم حلقة متخيّلة حول مكتبي، ويناقش في مشروع بناء سياج حول المكتب، حيث سيعلّق عليه يافطة تخبر السائحين المعجبين أنه ها هنا كان مكتب الروائية المذهلة، وهنا اعتادت أن تجلس وتطحن الأفكار في ذهنها لتخرج مقالات لهذه الجريدة

المتواضعة. كان يستقي مرحاً شيطانياً من عذابات بطلتي وبطلي، واستفساراته عن صحتهما كانت على شكل يجعل أي كاتب صادق في مهنته ينهض بغية ذبحه. لم أرَ بلاكي كثيراً في الآونة الأخيرة، فكل ساعات الفراغ عندي كانت مكرّسة لكتابة الرواية. بعد يوم واحد من إرسال الرواية أصبحت واعية لإحساسي بصدمة صغيرة وأنا أسير داخلةً إلى مكتب بلاكي، لأجلس على مقعدي المعتاد بجانب مكتبه الكبير. كان هناك تشنّج غريب في وجه بلاكي، بالأخص عند أنفه وشفتيه. العينان السوداوان الغائرتان كانتا أكثر سواداً وأكثر عمقاً في وجهه النحيل الصغير من أي مرة أخرى رأيته فيها.

لقد اجتاح المدينة مناخ لا يُعرف له فصل. يونيو كان يخرج منسحباً بموجات حرّ خانقة عادة ما تنتمي إلى أغسطس. بدت الأيام سرمدية وملتصقة ببعضها في نفس الوقت، وكنت أقضي وقتي وأنا أشعر بالارتخاء والكسل. لربما، فكرت، الحر هو الذي جعل روح بلاكي الكئيبة تذبل.

«لقد مضى وقت طويل مذ دردشنا أنا وأنت يا بلاكي. اشتقت لك. بالإضافة لذلك، أنت تبدو شاحب الوجه قليلاً، أعتقد أنك بحاجة فعلية لعطلة».

سبابة بلاكي الرشيقة السمراء مسّدت حواف غليونه المفضل. عيناه اللتان كانتا تحدقان في أسطح البنايات خلف نافذته تركتها لتنظرا إليّ، وكانت فيهما نظرة فضول وتساؤل كشخص يستعيد ذكرى موقف مسلٍّ في رأسه.

«كنت أفكر بعطلة. وليس واحدة من تلك العطل الهزيلة أمّ الأسبوعين، أسبوع مدفوع الأجر وأسبوع لا. لن آخذ عطلتي هذه في أي يوم قريب ـ ليس حتى الخريف، ربما، أو حتى الشتاء، ولكن عندما آخذها أقول لك يا فتاة، ستكون عطلة حقيقية».

«لكن لماذا الانتظار كل هذه الفترة؟» سألته. «أنت تحتاجها الآن. أسمِعت في حياتك أحداً ينتظر العطلة حتى الشتاء!»

همهم بلاكي. «لا أعرف، ولكني قمت بكل الترتيبات لذلك الوقت, وأكره أن أخرّب ترتيباتي. أقول لك، عندما يحين موعد العطلة ستعرفين أن خططي منطقية».

صدرت رنة حادة من الهاتف بجانب ذراع بلاكي. رفع السماعة مجيباً، ثم دفع بالسماعة إلى يدي. «لكِ»، قال، وكان صوت فون جيرارد هو ما سمعت من الجهة الأخرى.

«لدي شيء أخبركِ به». قال فون جيرارد. «شيء بغاية الأهمية. إن اتصلت بك عند السادسة تقدرين على الذهاب معي في السيارة وتناول العشاء عند البحيرة؟ يجب أن أتحدث معك».

«لقد أنقذت حياتي». أجبته. «هذا اليوم يمضي كالوحوش. تستطيع أن تتكلم بكثرة وبجدية كما تريد، ولكن فقط إن أبقيتني في مكان بارد».

«كان هذا فون جيرارد». قلت لبلاكي بعد أن أغلقت السماعة، وحاولت ألا أبدو غير مرتاحة.

شخر بلاكي في حلقه، رافعاً غليونه إلى فمه. «يفكر كثيراً بك هو، لا؟»

استدرت عند الباب. «هو ـ هو سيرحل بعد غد يا بلاكي». شرحت له، رغم أنه لم يطالبني بأي شرح. «إلى فيينا. يُتَوقع أن يبقى هناك سنة ـ اثنتين ـ أو ثلاثة»...

رفع بلاكي رأسه بسرعة. «سيرحل، ها؟ ربما هذا أفضل بشكل عام يا فتاة. مؤخراً أرى اسمه مذكوراً في كل تلك المجلات الطبية والصحف الكبرى وكل ذلك. سيصير شيئاً فخماً هذا الفون جيرارد، ولكن من المؤسف أنه سيذهب. كنت أود استشارته قبل أن أذهب في ـ عطلتي، ولكن طبيب آخر سيفي بالغرض. فون جيرارد ذاك لا يستحسنني أبداً».

لسبب ما لا أستطيع حتى شرحه، عدت إلى داخل المكتب ومددت كلتا يدي

إلى بلاكي، فتجاوب معي بتطويق أصابعه السمراء المتوترة حول يدي. «هذا لا يصنع أي فرق بالنسبة لنا، صحيح يا بلاكي؟» قلت بجدية. «أنا وأنت ـ كلانا لا يهتم طيلة ما نحن الاثنان نستحسن بعضنا، أليس كذلك؟»

«ولا أي فرق يا فتاة». ابتسم بلاكي. «ولا أي فرق».

عندما توقفت السيارة الخضراء أمام دار العجزة الذي كنت أسكنه، كنت في مزاج ملائكي. لقد تحممّت، وارتديت ملابس قطنية نظيفة، وفستان بقبة هولندية التصميم، والنتيجة كانت شديدة الإرضاء للروح، وارتفعت معنوياتي بدون حساب، وحتى رؤية فون جيرارد وملامح القلق والهم على وجهه لم تثبطهم. سقنا بعيداً عن النزل، على طول ضفة البحيرة. قطعنا (بوابة الدفع) وأكملنا الطريق نحو الكورنيش الممتد بكل كمال على طول جهة الماء. كان المكان يغص بالحياة، ممتلأ بصوت السيارات المسرعة مثل حجاج القرن العشرين نحو مكة النسيم البارد والراحة. كان هناك سيارات ليموزين فاخرة، وسيارات مريحة للعائلات، وسيارات صغيرة ورشيقة وأخرى صاخبة. لا يسمع صوت لحوافر خيل في أي مكان. بدا لي وكأن زمن التخلي عن الخيول بالفعل قد حلّ على العالم. لم يكن هناك سوى صوت زئير وخرخرة وقرقعة للسيارات.

عششت بيوت التصييف بين الأشجار بجانب البحيرة. كان يمكن للشخص من بين الأغصان أن يلتقط بعينيه لألأة ماء البحيرة الفضي. تدفق الهواء البارد خفف من حرارة جبيني، تسللت النسمات المنعشة بين قبة قميصي ومؤخرة عنقي، وكنت أشعر برضى عظيم في كل هذا.

«رغم أنك سترحل بالبحر بعيداً عن هنا، ورغم أنك مزعوج وترفض أن تتكلم وتعبس كالتنانين، هذا العالم الذي نعيش فيه شديد الجمال، ومهما فعلت فلن تستطيع إفساده».

«الحمد لله!» قال فون جيرارد وفي نبرة صوته كآبة.

«هل ستكون مهتماً ولو قليلاً إن علمتَ أني انتهيت من كتابة الرواية؟»

«يعني؟ هذا أمر جيد. لقد سببتِ المرض لنفسك وأنت تكتبينها، والآن صارت كاملة مكمّلة».

«كاملة مكملة؟» شخرت بسماعي كلامه. «يقشعر بدني عندما أفكر بها. الفصول الأخيرة ضاعت مني نهائياً، فلم يكن فيها أي لكمة».

فكر فون جيرارد بما قلت للحظة، تماماً كما خططت له أن يفعل. «لكمة؟ ما هذه بالضبط؟ هذه اللكمة؟»

أخذت أشرح له بكل أمانة: «الرواية قد تكتب بأسلوب كمالي، مع حبكة، وذروة، ومفاجآت صغيرة على جانبيها، ولكن إن كانت فاقدة لتلك الميزة الخاصة والمقنعة التي تسمّى شاعرياً باللكمة، تستطيع أن تعتبر هذه الرواية الافتراضية وكأنها لم تكتب أبداً. لن تصبح أبداً الأكثر مبيعاً، ولن تعيش طويلاً وتعتبر من الأعمال الخالدة، لن ترى إعلانات أو نقد لها في أقسام مراجعات الكتب في جرائد يوم الأحد، ولن يكون الرجل عند الكشك مقابلك في سيارته غارقاً في الرواية لدرجة أنه سينسى أن يصفّ سيارته حيث يجب».

بدا فون جيرارد مضطرباً. «ولكن ماذا بشأن القيمة الأدبية؟ ألا يدخل هذا في ـ»

«أنا لا أطمح لأقدم شيئاً لمسيرة التطور الأدبي». أكدت له. «على مدى حياتي كان لدي طموحان عزيزان عليّ لا أكثر. واحد منهما هو كتابة رواية ناجحة، والآخر هو تعلم التصفير من بين أسناني ـ يعني بهذا الشكل، كما يفعلها صبيان المعارض. لقد يأستُ الآن من تعلم التصفير، ولكن ما زال هناك أمل فيما يخص الكتاب».

وبسماعه هذا، وبعد لحظة من الدهشة الجامدة، أطلق فون جيرارد واحدة من قهقهاته المحببة لي.

«شكراً»، قلت له. «والآن قل لي الأخبار المهمة».

عاد ذلك التعبير الجدي إلى وجهه. «ليس الآن يا دون، لاحقاً. دعيني أسمع المزيد عن الرواية، ولكن ليس بطريقتك المعتادة في الكلام الساخر، لقد مضى الزمن الذي كنت أنخدع فيه بأسلوبك هذا».

«بالتأكيد أنت لا تتوقع مني أن آخذ نفسي بجدية! هذا شيء آخر أَدين به إلى أجدادي الإيرلنديين. كانوا يستطيعون الضحك ـ باركهم اللّه ـ وهم يجلسون خائبين أمام محصول بطاطا عفن. دعني أقول لك، مواضيع كهذه تتطلّب حس فكاهة، فالرواية هي البطاطا التي زرعتها أنا، وإذا فشلت فهذا يعني أن عليّ متابعة السعي، وحزامي حول خصري مزموم أكثر، ولكني سأعصر ابتسامة من زاوية فمي، بطريقة ما، وإن نجحت! آه يا إرنيست، إن نجحت!»

«ماذا ستفعلين حينها يا بنت؟»

«حينها، سيعني أن بإمكاني وضع طبقة خفيفة من المربى فوق الخبز والزبدة. لن تعني الرواية المال، على الأقل، لا أعتقد ذلك. كل الروايات الأولى لا تجلب المال، ولكنها ستعني مستقبلاً، ستعني أنه سيكون لدي قاعدة صلبة لأقف فوقها. ستكون بداية حقيقية، روحٌ جديدة، ووقتَ لأنفّذ مشروعاً يكون مهماً بحق. ستعني الاستقلالية، والتحرر من هذه العجلة التي تظل تدور ـ»

«توقفي!» صاح فون جيرارد بحدة، ثم أكمل الكلام وأنا أحدق فيه متفاجئة. «أنا أعتذر منك، لقد كان هذا وقاحة مني، صحيح؟ ولكن يوجد بداخلي شريان ألماني عجيب يرفض ولا يؤمن بقصور الهواء. نسميها في الألمانية {سيخ إنبيلدِن}. »

تلألأت أمامنا أضواء القاعة على ضفة البحيرة. حشرت السيارة الخضراء الصغيرة أنفها في الطريق بين طوابير السيارات الفارغة، وأخيراً توقفنا والسيارة تزهق، وصففناها في مساحة فارغة بين سيارة سياحية حمراء ضخمة وأخرى بيضاء صغيرة. تركناها هناك وسرنا في الطريق المغمور بالضوء.

داخل الهيكل الضخم بتصميم كالحظائر والذي أدى دوره كقاعة، قرقعت الكؤوس والكراسي زقزقت على الأرضية الخشبية. انفجار موسيقي تبعه وابلٌ من التصفيق الحاد. من خلال المدخل المفتوح استطعنا رؤية مجموعة من المغنيات التيروليّات[1] في أزياء مسرحية باللون القرمزي والأخضر والأسود. كان المشهد كثير الصخب وقوي الإضاءة وشديد الألمانية.

«ليس هنا، ها؟» قال فون جيرارد وكأنه قد استشرف رغبتي. «الأضواء هنا حادة جداً والمكان صاخب. دعينا نجد طاولة في الخارج تحت الأشجار، فوقع الموسيقى يكون أخف عن بُعد، وعيوننا لا تُهان من منظر المغنيات البشعات، لا عذر لقباحة تلك النساء التيروليات».

وجدنا طاولة محضونة بوهج الأنوار الخفيفة للقاعة، ولكن قريبة بما يكفي من البحيرة حيث استطعنا سماع الماء يتقاذف على الضفة. جلب لنا نادل رمليُّ الشعر أشبه بجيفة شيئاً لنأكله، وبذلنا جهوداً شجاعة لنبدو جائعين ومتحمسين، ولكن معنوياتي المرتفعة كانت قد أخذت بالانجراف بسرعة، وفون جيرارد لم يحاول حتى إخفاء قلقه. واحدة من المغنيات ظهرت فجأة عند مدخل القاعة، ثم أسرعت نازلة على الدرج، واختفت في ظل الأشجار بعيداً عن طاولتنا. أصوات المغنيين توقفت فجأة، وكان هناك لحظة من الصمت المتعمّد. ثم، من ظل الأشجار، أتى صوت امرأة، واضحاً، قوياً، مرناً، مغرقاً الليل بزغردة كطائر جبليّ

(1) نسبة إلى تيرول، وهي بلدة في النمسا

الصوت، ارتفع وانخفض، تضخم وحلّق. صمت. ثم، بانفجار موسيقي عظيم، كورسٌ من الأصوات من داخل القاعة أجاب ندائها. مرة أخرى، صمت، ومرة أخرى، صوت المرأة المبهر أغرق السكون، وانتهى على نوتة أعلى، أوضح، وأحلى من أي واحدة سبقتها. بعدها، أسرعت المرأة التيرولية الصغيرة باتجاه أضواء القاعة الصاخبة مجدداً، وقد انتهت لحظة العظمة تلك.

عندما التفتُ إلى فون جيرارد كانت عيناي مبللتان بالدموع. «سيكون عندي هذا المشهد لأتذكره، عندما ترحل».

أشار فون جيرارد إلى النادل الذي كان يقف قريباً منا. «خذ هذه الأشياء من هنا، ولا حاجة لك بأن تعود». ووضع شيئاً في كف الرجل، شيئاً أدى إلى إزالة الصحون الفارغة عن الطاولة بسرعة مفاجئة وانتهى بالكثير من الانحناءات الذليلة.

كان فون جيرارد مشيحاً بوجهه عني، عيناه تتمعنان في جمال البحيرة والسماء، والآن وقد اختفى آخر جزء من إزار النادل وراء الزاوية، أدار فون جيرارد رأسه ببطء، ورأيت في عينيه ما جعل نفسي يتوقف وقلبي يقفز من الترقب.

«ما الأمر؟» سألته بخوف. «نورا؟ ماكس؟ الأولاد؟»

هز رأسه. «هم بخير، هذا ما أعرفه على الأقل. أنا ـ لربما يجب في البداية أن أخبرك ـ رغم أنه ليس الشيء الأساسي الذي أريد أن أقوله لك».

«و...؟» حثثته على المتابعة وقد نفد صبري. لم أره يوماً متردداً هكذا.

«لن أسافر هذا الأسبوع. لن أكون مع اغْلَك في فيينا هذه السنة. سوف أبقى هنا».

«هنا! لماذا؟ بالتأكيد ـ»

«لأنه من الضروري وجودي هنا يا دون، لأنني لا أقدر على تركك الآن. سوف تحتاجين ـ أحداً ـ صديقاً ـ»

«أحتاج ـ أحداً ـ لأي سبب؟» تأتأت. «لماذا عليك أن ـ»

تحت ظل الأشجار الرقيق أخذ فون جيرارد يديّ المتجمدتين وأمسكهما بقبضة محكمة من التشنج.

«نورا ستأتي لتكون معك ـ»

«نورا؟ لماذا! قل لي الآن! الآن!»

«لأن بيتر أورم أُعيد إلى البيت ـ وقد شفي». قال.

أضواء القاعة سقطت بعيداً، وتماوجتْ وتداخلتْ في دائرة كبيرة أشعرتني بالمرض. أغلقت عيني، ولكن الأضواء ظلت تترنح من خلف جفني. انحنى فون جيرارد نحوي وهو يتمتم ليهدئني وأنا تعلّقت بيده بكل قوتي.

«لا!» قلت، وذاك الصوت الوحشي الذي خرج مني لم يكن صوتي. «لا! لا! لا! ليس صحيحاً! يستحيل ـ آه هي مجرد مزحة أليس كذلك؟ قل لي ـ هي ـ هي شيء مضحك صحيح؟ بعد قليل سنضحك عليها ـ سنضحك عليها... سنضحك! طبعاً ـ أترى؟ أنا أبتسم من الآن ـ»

«يا دون، يا عزيزتي، إنها الحقيقة. يعلم اللّه كم أتمنى لو كنت سعيداً لمعرفتها. اللجنة في المستشفى أعلنت أنه قد شفي، لقد أمضى الأسابيع الماضية بكامل قواه العقلية».

«كيف تعرف ـ منذ متى؟»

«أنت تعرفين أن ماكس جعل من نفسه المسؤول عن كل الاتصالات مع الأطباء هناك. منذ بضع أسابيع كتبوا له أن أورم كان يُظهر علامات الشفاء. لقد تكلّم عنكِ، وعن الناس الذين عرفهم في نيويورك، وعن عمله في الجريدة، وبكل هدوء ومنطقية. ولكن في البداية كان عليهم أن يتأكدوا. ذهب ماكس

إلى نيويورك الأسبوع الماضي، ولكن بيتر كان قد رحل. مسؤولو المشفى كانوا مرعوبين واعتذروا منه. في واحد من الأيام، مشى بيتر خارج المشفى بكل لباقة. لقد ذهب إلى المدينة واستدان مالاً من بعض معارفه في الجريدة، ومن ثم اختفى. قد يكون ما زال هناك. قد يكون ـ»

«خلص! إرنيست! خذني إلى البيت! يا ربي لا أستطيع تحمّل هذا لا أستطيع! يجدُر بي أن أكون سعيدة، ولكني لست كذلك. يجدر بي أن أكون شاكرة ولكن لا، لست كذلك! الرعب من وجوده هناك كان كافياً، ولكنه لا شيء مقارنة برعب وجوده هنا. كنت أحلم أنه استعاد صحته من جديد، وأنه كان يبحث عني، وقتامة الحقيقة في هذا الحلم كانت توقظني، وكنت أجد نفسي أرجف من الرعب. مرة حلمت أني رفعت رأسي عن مكتبي لأجده واقفاً في مدخل باب المكتب، وعلى وجهه واحدة من تلك الابتسامات الخالية من أي فرح، وسمعته يقول، بطريقته الاحتقارية: دون يا حبي، تبدين رائعة. حياة الأرامل تليق بك، ها؟»

«يا دون، لا يجب أن تضحكي لأشياء كهذه. تعالي، سنذهب. أنت ترتجفين! لا تفعلي يا عزيزتي. انظري، لديك نورا وماكس وأنا لنساعدك. سنساعده هو أيضاً، ليقف على قدميه. جسدياً هو ليس بصحة كاملة كما يجب. أنا أستطيع أن أساعده كثيراً».

«أنت!» صحت، والفكاهة في هذا الموقف الافتراضي كانت لها خاصية منعتني من الضحك.

«لهذا السبب تخليت عن فيينا». قال فون جيرارد ببساطة. «أنت أيضاً يجب أن تقومي بواجبك».

«واجبي؟ لقد قمت بواجبي منذ زمن. هو كان في القاع، وكان يجرّني معه. عندما أخذ الجنون عقله، شكرت الله، ونازعت لأنهض مجدداً. حتى نورا نفسها لم

تعرف أي عذاب كان ذلك. أي حال عليها أنا الآن، هي حال أنا عليها بالرغم منه. أقول لك إن لا مشكلة عندي في الترمّل. منذ عشر سنوات قد جعلني هذا الرجل أرى كيف تصنع من الحياة الجميلة شيئاً وسخاً وبشعاً. كنت فتاة عشرينية يائسة وجبانة والآن أنا امرأة سعيدة في عملها، ومع أصدقائها، وعقلي وأفكاري ينموان ويتسعان، وصرت أسرع في تقدير الأشياء الجيدة في الحياة. والآن ـ الآن ماذا؟»

كانوا يرقصون على أنغام أغنية شعبية في الداخل. عندما انتهت تبعها صوت انفجار ضحكات وصوت تصفيق حاد وصرخات إعجاب واستحسان. بدت الأصوات كأنها تكوي عقلي، فنهضت من الكرسي وركضت نازلة الطريق باتجاه مكان صف السيارة. هناك في الظلمة دفنت وجهي المَخزي بين يدي، وصليت لأبكي دموعاً رفضت أن تنزل من عيني.

بدا كأن ساعات بأكملها قد مضت قبل أن أسمع صوت خطوات فون جيرارد الثابتة السريعة على الطريق الحجري. تفقد السيارة هنا وهناك، محركاً شيئاً ما، ثم أخذ مكانه مقابل المقود بدون أن ينبس بكلمة، وبدأ يسوق بنا على الطريق الأبيض الممتد. كل جمال الليلة بدا وكأنه قد اختفى، تاركاً خلفه ظلالاً مشوهة وبشعة. رعب اللايقين قبض عليّ، ولم أستطع أن أحتمل وجه فون جيرارد الصارم والجامد. أمسكت ذراعه فجأة ما أدى لانحراف السيارة عن مسارها الرئيسي، ولكن بحركة قوية أعادها فون جيرارد إلى مسارها الصحيح، ومن ثم أوقفها على جانب الطريق.

«احذري يا صغيرة». قال بجدية.

«إرنيست»... قلت، وكانت أنفاسي تخرج مسرعة، مخنوقة، كأنني كنت في سباق جري. «إرنيست، لا أستطيع أن أفعلها. لست كبيرة بما يكفي. لا أستطيع. أنا أكرهه، أقول لك إنني أكرهه! حياتي ملك لي، وأنا من جعلها كما هي، في

وجه آلاف الإغراءات، وبالرغم من مئات العقبات. لا أستطيع أن أعيد تقديمها لبيتر أورم ليعيث فيها فساداً مرة أخرى. إرنيست، إن كنت تحبني، خذني بعيداً عن هنا الآن. إلى فيينا ـ إلى أي مكان ـ لكن لا تسألني أن أرجع لحياتي معه مرة أخرى، فأنا لا أستطيع»...

«أحبك؟» كرر إرنيست ببطء. «نعم، بشدة ـ»

«بشدة ـ»

«نعم، بشدة لا تسمح لي بفعل ما تطلبينه مني، والحمد للّه يا صغيرة أن حبي لا يسمح لي بفعل ذلك».

الفصل الثامن عشر

برز شكل رجلٌ ما من بين الظلال عند مقدمة المبنى, وبدأ يسير إلى الأمام ليلتقي بنا. عندما صففنا السيارة، حبست صرخة في حلقي، وانكمشت على نفسي في المقعد وأنا أسمع صوت انقباض أنفاس فون جيرارد وقد مد جسده للأمام ليتفحص العتمة. ترقّبٌ كالمرض أطبق عليّ.

«أقول لكِ يا فتاة»، أتى صوت الرجل مع ضحكة صغيرة مألوفة ترقص بين كلماته. «يا فتاة أقول لك، الشرطي هناك يراني كشخصية مشبوهة. شكلي هنا كالفرس تروح وتجيء على الرصيف، أو كأم مشدوهة تنتظر عودة ابنتها الصغيرة إلى البيت من مشوار السيارة».

«بلاكي! هذا أنت لا غير!»

«شكراً، دائماً تخجلينني». ابتسم بلاكي ساخراً، وأخذ يمشي نحو حافة الرصيف بينما نزلت أنا من السيارة. «من كنت تتوقعين، مالكة الشقة؟»

«لا أعرف من كنت أتوقع. أنا ـ أنا متوترة، أظن، وأنت فاجأتني». جفل الدكتور فون جيرارد للحظة. «أليس كذلك يا دكتور؟»

ضحك فون جيرارد ضحكة رثة. «نعم الحقيقة. الوقت متأخر، والزوار في هذه الساعة ـ»

«ما الذي حصل يا بلاكي؟» عدت إلى الموضوع الرئيسي. «لا تقل لي إن نوربيرغ قد أُخِذ في هذه الساعة بواحدة من لحظات وحييه الغبية».

أشعل بلاكي عود ثقاب وأبقاه مشتعلاً للحظة، ما جعل الشعلة الصغيرة تضيء وجهه بينما أشعل سيجارته. لم يكن هناك أي علامات ضحكة في العينين السوداوين الغائرتين.

«ما الأمر يا بلاكي؟» سألت مجدداً، فالرعب الذي ملأني من خبر فون جيرارد جعل من وجود خبر أقل سوءاً إمكانية مرحبٌ بها.

«أحتاج للكلام معكِ قليلاً. لعل من الأفضل أن يسمع فون جيرارد الكلام أيضاً. اتصلت بك منذ ساعة، حاولت أن أخرجك إلى الكورنيش، وانتظرت هنا من وقتها. أيوجد محل أو مكان ما أستطيع أن أتكلم فيه؟»

قدت الطريق إلى داخل المبنى. الطابق الأول بدا مهجوراً. غرفة الاستقبال الموحشة كانت غير مشغولة، ومصباح غاز واحد كان يقوم بواجب الإضاءة.

«اجلبوا الكفن والنعش». تمتم بلاكي وهو يشعل مصباحين آخرين. «قاعة الاستقبال هذه صُممت للجنازات».

كان فون جيرارد عابساً. «السيدة أورم ليست على ما يرام». بدأ الكلام. «لقد تعرضتْ لصدمة ـ أخبار مفاجئة تتعلق ب ـ»

«زوجها؟» تساءل بلاكي ببرود، أما أنا فشهقت بصوت عال.

«كيف عرفت بذلك؟»

تعبير من الراحة غسل الكرب من عن وجه بلاكي. «معرفتك بالأمر ستساعدني قليلاً. والآن انصتي لي يا بنت، وعندما أنتهي من الكلام، تذكري أنني هنا قادر على تقديم المساعدة. تريد سيجارة يا دكتور؟»

«لا»، أجابه فون جيرارد باقتضاب.

عينا بلاكي السوداوان الغريبتان كانتا تتمعنان في وجهي، ورأيت تعبيراً من الشفقة في أعماقهما عندما بدأ يتكلم.

«كنت في نادي الصحافة هذه الليلة. ذهبت إلى هناك لدقيقة أو اثنتين، كما أفعل بالعادة عندما أتجول بالسيارة. عندما صعدت الدرج، لم أسمع أي صوت في المكان كله، وتساءلت أين هم جميع الرجال. بحثت في غرفة البلياردو ولا أحد هناك. حشرت رأسي في غرفة الكتابة ونفس الشيء، مشيت في قاعة القراءة، وجدتها خالية. في النهاية، رحت إلى غرفة الطعام وهناك وجدت الجماعة، وعندما دخلت سمعتهم يضحكون بجنون، فأخذت أحقق. هناك متكأً على رف الموقدة، يدٌ في جيبه ويد متدلية من عن الرف بكل برود، وقف رجل غريب. كان يتكلم بصوت منخفض، وبسرعة، ويأكل الحروف كما يفعل الإنجليز، والرجال كلهم كانوا يحدقون به بعيونهم وأفواههم مفتوحة، ناسين أن يدخنوا، تاركين غلايينهم وسجائرهم تحترق في أيديهم، وكل هذا وهو يتكلم، وأي كلام! أقول لك يا فتاة، ذاك الرجل يستطيع أن يليّن الحديد بكلامه. لم أسمع أحداً يقول اسمه. طويل ونحيل، رجل غريب المظهر بأسنان بيض، أبيض أسنان رأيتها في حياتي، وعيناه ـ يعني، عيناه كانتا أشبه بغليون مشتعل مع ذرات رماد دقيقة منثورة على التبغ الأحمر تنتظر أحداً أن يأخذ سحبة لتشتعل».

«بيتر!» تأوهت بألم ودفنت وجهي بين يدي. فون جيرارد أسرع بوضع يد على ذراعي ولكنني أزحتها. «لن يغمى عليّ». قلت له وأنا أصرّ أسناني. «لن أفعل أي شيء سخيف. أريد أن أفكر. أريد أن... أكمل يا بلاكي».

«ولكن لحظة»، قاطعه فون جيرارد. «هل يعرف هو أين تعيش السيدة أورم؟»

«سأصل إلى هذه النقطة أثناء الكلام»، أجابه بلاكي بهدوء. «ولكن لأجل دون سأقول من الآن إنه لا يعرف. قلت له لاحقاً إنها في عطلة مع أهلها في ميتشغان».

تنفسّتُ بارتياح. «الحمد لله».

«ذلك الرجل كان يرتدي بطاقة نادي صحافيي نيويورك. سألت واحداً من الصبيان الواقفين على حواف الحلقة الملتفة حوله عن اسم الرجل، ولكنه يقول

لي: «اصمت يا بلاكي! وانصتْ. هذا الرجل رأى كل شيء في العالم!» وهكذا، قعدت أنصتُ له. لم يكن يتبجح، لم يكن يبالغ، كان فقط يتكلم. بدا كأنه كان مراسلاً حربياً في حرب البوير، وفي الحرب الإسبانية الأميركية، والله فقط يعلم في أي مكان ثان. تكلم بصوت خافت، وبدون استخدام أي كلمات فخمة، وفكرت كيف أن عينيه كانتا كشيء يشبه عيني القطة السوداء على رف الموقدة فوق رأسه ـ تعرفين أيّها أقصد، عندما تضاء الأنوار الكهربائية داخل تمثال رأس القطة البشع. على كل حال، كان يبدو في كل مرة أنه سيتوقف عن الكلام، واحد من الرجال يطرح عليه سؤالاً، فتأخذه حمية الكلام مجدداً. هو يعرف كل الناس، وكل الأمكنة وكل شيء. فجأة هكذا أحد الرجال يشير إلى توقيع روزفلت على الحائط ـ التوقيع الذي تركه هناك بجانب تواقيع المشاهير الآخرين عندما دعي لأول مرة لقضاء سهرة مع رجال نادي الصحافيين. هذا الرجل، نظر إلى الاسم لدقيقة: «روزفلت؟» قال ببطء. «آه صحيح، يبدو لي أني سمعت به». والرجال سمعوا هذا وفقعوا ضحكاً. الحقيقة أنها كانت نهفة جيدة، لأن وجه روزفلت كان على الصفحات الأولى لمعظم الجرائد وعلى مدى سنوات. ولكن يا فتاة، أي نظرة رأيت في عيني ذلك الرجل عندما قالها، ويا فتاة لم يكن يمزح. هكذا صفقني الإدراك فجأة، الأشياء التي كان يتكلم عنها؟ كلها حصلت منذ عشر سنوات تقريباً. بعد أن قال ذلك عن روزفلت، خرس وأخذ يتبختر نحو البيانو وبدأ يعزف. تعرفين ذلك البيانو الأحفوري، الذي فيه عشرة مفاتيح لا تعمل وله صوت قبيح؟»

نظرت إلى بلاكي للحظة. «عنده القدرة على جعلك تصدق أنك في حفلة فخمة، صحيح؟ لم ينس حتى ذلك؟»

«ينسى؟ يا فتاة أنا لا أعرف أياً كانت إنجازاته عندما تعرفتي إليه، ولكن إن كان فاتناً كما هو الآن أو أكثر، فأنا سعيد بأنني لم أعرفه. له القدرة على إقناع صحافي مسكين بأن يعطيه راتب آخر الأسبوع. شيء ما بدا كأنه يدفعني للذهاب إليه لأقول: ما رأيك بلعبة بلياردو؟

«لا أمانع على الإطلاق». قال هو، وقام عن كرسي البيانو بساقيه الطويلتين ومشينا معاً إلى قاعة البلياردو، وكل الشباب يسيرون خلفنا. أقول لك يا فتاة، أنا زهرة متواضعة، ولكن لا مشكلة عندي في ذِكر أن الرأي المتناقل عني في النادي هو أني ساحر في تحريك عصا البلياردو. ولكن عندما انتهى هذا الرجل من اللعب معي كان شكلي كأخت صغيرة عندما يعلمها أخوها كيف تمسك العصا بين أصابعها. لقد كان يرسل الكرات أينما رغبت نفسه. أراهن أنه لو رفع يده وصنع حلقة بين إبهامه وسبابته وقال: اقفزي إلى هنا!لكانت قفزت الكرات كلها».

أخذ فون جيرارد عدة خطوات واسعة نحو بلاكي، عيناه كانتا كالحديد الأزرق.

«وهل كل هذا ضروري؟» سأله. «إلى ماذا تؤدي هذه التفاصيل التي تتكلم عنها؟ ألم تعاني السيدة أورم ما يكفي، ورغم ذلك تريد أن تسمعها كل هذا؟ يكفي ما عرفَته إلى الآن ـ هذا الرجل موجود هنا، وهذا وقت الأفعال لا الكلام».

«الأفعال ستأتي لاحقاً يا دكتور». رد بلاكي وقد ارتسمت على وجهه ملامح مشاكسة. «الخطَابة ليست خاصيّتي، ففي العادة أترك الكلام للآخرين. لا يمكن أن تتعلم أو تعرف شيئاً من الكلام وحده، ولكن عندي شيء لأقوله لدون هنا. وعلى كل حال، لو كنتَ تشعر بالملل ولو قليلاً فلا تتردد ولا دقيقة في الذهاب ـ»

«لا، أنت على حق، لقد تسرّعت». قال فون جيرارد وقد رأيت ذلك البريق العطوف في عينيه وهما تبتسمان للرجل الصغير. «كل ما في الأمر أن كلانا قلقان جداً ومُستفزّان في رغبتنا بأن نساعد هذه الآنسة المكروبة. حسناً، سنرى ما الذي سيحصل. أنتَ تكلمت مع هذا الرجل في نادي الصحافة؟»

«هو تكلّم، أما أنا فأنصت».

«هذه طريقة بيتر في التعاطي مع الآخرين». قلت بمرارة، متذكرة كيف كان يحب أن يجرّ في الكلام، وكيف صرت أنا أتوق للحظة من الصمت ـ لكلمات أقل، والمزيد من ذلك التحفظ الذي يعني القوة!

«كل ذلك الوقت، لم أعرف اسمه»، أكمل بلاكي. «عندما انتهينا من لعبة البلياردو علّق عصاه ومن ثم استدار كالبرق ووقف مواجهاً كل الرجال الذين كانوا متجمعين حولنا وأياديهم في جيوبهم. كان على وجهه ابتسامة غريبة ـ ابتسامة لا فرح فيها، تعرفين ما أقصد. أعتقد أنك قد تعرفين، ربما، إن رأيتها. أخذ يتكلم وما زالت تلك الابتسامة على وجهه: يا شباب، يا شباب أنا أبحث عن شغل. أنا لا أجيد الكلام، وأنا مجرد هاو في الموسيقى، ومهارتي في البلياردو صدئة، ولكن هناك شيء واحد أستطيع فعله، من الألف إلى الياء، وهو الكتابة. أستطيع أن أكتب يا شباب بطريقة أجعل فيها مقالاتكم التحليلية في السياسة تبدو كمواضيع إنشاء مدرسية. أنا لا أعِد أن ألتزم، فحين أجمع ما يكفي من المال سأعود قافلاً إلى نيويورك، ولكن لم يحن الوقت بعد. والآن، سأقدّم نفسي لمن يقدم مالاً أكثر.

«وأنت تعرفين، منذ تركَنا ميركل لم يعد يمر يوم من دون أن تسبقنا صحيفة أخرى في الأخبار السياسية».

«أعتقد أننا قد نستفيد منك». قلت له وأنا أحاول ألا أبدو مستميتاً على خدمته. «إن كانت معاييرك مستعدة للانزلاق من رواتب نيويورك إلى رواتب ميلواكي. رواتبنا هنا أشبه بما يسمى تبرعات خيرية. ما اسمك يا ولد؟»

«اسمي؟» قال هو وعادت الابتسامة لوجهه. «لعله سيكون مألوفاً بالنسبة لك، هذا طبعاً إن كانت زوجتي تستخدمه. أورم هو اسمي، بيتر أورم. تعرف سيدة بهذا الاسم؟ جيد».

لم أقل إنني أعرف، ولكن عيناه لاحظتا مباشرة التعبير على وجهي. قال هو: أصدقاء في نيويورك أخبروني أنها هنا. أين هي الآن؟ لديك عنوانها؟» سألني.

«هي تنتظر مجيئك؟» سألته.

«لا ـ ليس بالضبط». قال وتلك الابتسامة المعوّجة ما زالت على وجهه.

«هذا ما توقعته». أجبته أنا قبل أن أعرف ما كنت أقول. «هي في عطلة مع أهلها في الشمال».

«طبعاً هي في عطلة!» قال هو. «على كل حال، أتستطيع انتظار ردي على عرض العمل حتى الاثنين؟»

أتى بلاكي إليّ بينما كنت جالسة على كرسيي، منكمشة وخائفة. ربّت على كتفي بيده السمراء الرشيقة. «يا فتاة، أفهمتِ الآن؟ أريحي نفسك. اذهبي إلى البيت لأسبوع. أنا سأناقش الأمر مع نوربيرغ. لا نعرف ما قد يفعل رجل كهذا. أرسلي صهرك إلى هنا إن كنت تريدين جعل الأمر مسألة عائلية، ومع بعضنا سنجد حلاً ونضبط الأمور».

نظرت إلى فون جيرارد، وقد كان يهزّ رأسه موافقاً. بدا الأمر شديد السهولة، مغرياً في سهولته. أن أهرب! أن لا أواجهه حتى أصير آمنة في ملجأي بين ذراعي نورا! نهضت من الكرسي، وقد مدّني التصميم بقوة وشجاعة جديدتين.

«سوف أذهب. أعرف أن لا شجاعة في الهرب، ولكني لا أستطيع أن أبقى شجاعة. أنا متعبة كثيراً ـ كبرت كثيراً»...

أمسكت بيد كل من الرجلين اللذين وقفا طويلاً بجانبي، اللذين أخلصا لي طوال السنة الفائتة. كل كلمات الشكر التي كانت على شفتي خرجت نواحاً جافاً ويائساً، ولأن بلاكي وفون جيرارد بديا مثيرين للشفقة في قلقهما وحزنهما بسبب حزني، تغيّر البكاء إلى ضحكة هيستيرية، وبعد لحظة من التحديق المتعجّب، شاركني الرجلان في الضحك.

وبين تلك الضحكات لم يصل إلى مسامعنا صوت الباب الرئيسي وهو يصفق بعنف، أو صوت وقع خطوات في الممر. أعصابنا المرهقة وجدت راحة في الضحك، لهذا عندما وجَدَنا بيتر أورم، بجسده الهزيل المشؤوم واقفاً عند المدخل، وقعت عيناه على مشهد فرح بين ثلاثتنا.

كنت أول من رآه، وبرؤية ذلك الشخص، هزيلاً، بخدين أجوفين وعينين غائرتين، كل الرعب والكره تركا جسدي، ولم أشعر إلا بشفقة كبيرة إثر رؤية هذه الخربة البشرية. ببطء سرت نحوه هناك عند المدخل.

«مرحباً، بيتر». قلت.

«مرحباً يا دون». قال. «تبدين رائعة يا بنت. يبدو أن حياة الأرامل تليق بك، ها؟»

وعرفت حينها أن حلمي البشع قد صار واقعاً.

دخل بيتر إلى الغرفة بتلك الرشاقة المعتادة في حركاته، وبرقت عيناه عندما رأى بلاكي. من ثم أطلق ضحكة، كاشفاً عن أسنانه البيض المتساوية. «أما كاذب حقير أنت!» قال بلكنته الواضحة القارصة. «عندي رغبة بصفعك. ما قصدت بقولك لي إن زوجتي ليست هنا. لا تقل لي إنك واقع في حبها، ها؟»

ابتلع فون جيرارد كلمة كان سيقولها، والتفت أورم بسرعة في اتجاهه. «ومن أنت؟» سأله. «معجب آخر؟ كان يبدو لي أنكم تقضون وقتاً لطيفاً عندما وصلت وقاطعتكم». أخذ يتمعّن في فون جيرارد بكل برود وتأنّ، وعبسة حانقة امتدت على وجهه. «أنت طبيب، ألست كذلك؟ عرفت من اللحظة التي رأيتك فيها. أنا أمّيزكم من اليدين، والعينين، والبشرة والرائحة. عشت مع الأطباء لعشر سنوات. اللعنة عليهم! يا دون، قولي لهذين الاثنين إنهما معفيان من البقاء. وعلى فكرة، لا تبدين سعيدة كثيراً برؤيتي؟»

رحت إليه حينها ووضعت يدي على ذراعه. «يا بيتر، أنت لا تفهم. هذان السيدان هنا هما كل ما كان رحيماً وعطوفاً معي. أنا سعيدة بمعرفتي أنك شفيت، ولكن من المؤكد أنك لا تتوقع مني أن أكون سعيدة لرؤيتك. كل هذه الادعاءات قد تركناها خلفنا حتى قبل... مرضك. لا تظن يا بيتر أن الوضع كان مزهراً بالنسبة لي منذ ذلك الوقت. اشتغلت حتى أردت أن أموت من الإرهاق

والتعاسة. أنت تعرف كيف هو عمل الصحافة هذا بالنسبة لامرأة. لا يسهل كلما كبرت هي وازداد تعبها».

«آه، خلصينا من كل هذه الميلودراما يا دون». قال بيتر هازئاً. «أمع واحد منكم سيجارة يا شباب؟ شكراً، أتضور شوقاً لأدخن».

كلمات التعبير عن القلق منذ عشر سنوات خرجت أوتوماتيكيا من فمي. «ألست تكثر من التدخين يا بيتر؟» وخرج صوتي كصوت زوجة مغلوب على أمرها.

حدّق فيّ بيتر للحظة، ثم ضحك ضحكته تلك الخالية من أي فرح. «يا الله! يا دون، يبدو لي أنك ما زلت زوجتي حتى الآن كما كنت من عشر سنوات. أنا دائماً كنت أقول، كما تعرفين، إنك كنت ستصيرين زوجة نقاقة من الدرجة الأولى لولا حس الفكاهة الحاد الذي عندك. هذا ما أنقذك». ومن ثم أدار عينيه الساخرتين إلى فون جيرارد. «ألا يحيّر الشياطين كيف تتعلق هاتي النساء الحلوات برجل عندما يتزوجنه! في الحالة كلها شيء مؤثر يشبه تفان الكلاب».

امتد حولنا صمت رهيب، ولأول مرة منذ معرفتي به، رأيت لوناً أحمر حاراً يدبغ وجه بلاكي الشاحب، وفي عينيه رأيت حنقاً وغيظاً. من ثم، بكل هدوء، خطى فون جيرارد إلى الأمام وتوقف قبالتي مباشرة.

«يا دون»، قال، بطريقة شديدة الحنو والرقة. «أنا أسحب الكلام الذي قلته لك منذ ساعة. إن اعطيتني فرصة ثانية لأفعل ما طلبتِ مني فعله، سوف أشكر اللّه عليها طيلة حياتي، فلا ذُلّ في ذلك، أما العيش مع هذا الرجل، فذاك هو الذل، وأنا لن أسمح بأن تعانيه».

نظرت إلى وجهه، ولم أشعر من قبل بكم كان هذا الوجه عزيزاً عليّ. «لقد مضت الفرصة لفعل هذا». قلت، نبرة صوتي هادئة ومتوازنة كصوته. «رجل مثلك يجب ألا يحمل همّ خربة مثلي ـ مهملة، مكسورة، مرمية على الشط،

أطوف وحدي. خمس سنوات من الآن ستشكرني على ما أقوله لك في هذه اللحظة. مكاني أنا مع هذا الخربة الآخر. ستتقاذفنا العواصف والرياح حتى نُدمَّر ونغرق معاً».

بعد هذا، سمعنا صوت رنين جرس الباب، متتالياً وقوياً، ولم يصلنا من الغرفة الأخرى صوت لأحد يفتحه. عاد الجرس للرنين، أعلى من ذي قبل.

«سأفتح أنا الباب»، قال بلاكي واختفى في الممر.

بعد لحظة وصل إلى آذاننا ذاك الصوت، عالياً وواضحاً. «أي نعم، سمعتُ بك». صوت عزيز على قلبي جعلني أطير نحو الباب بقلب كله أمل.

«نورا!» صرخت. «نورا! نورا! نورا!» وعندما التفّت ذراعاها المباركتان حولي، الدموع التي منعتُها من النزول عادت إلي في سيل من السعادة.

«روقي، روقي!» مرمرتْ وهي تربت على كتفي بحنان الأمهات ذاك. «ما الذي يحصل هنا؟ ولماذا لم يلتق بي أحد عند المحطة؟ بعثت لكِ رسالة. ألم تصلك؟ لا بأس، أسامحك. كيف حالك يا أستاذ بيتر؟ أظن بالفعل أنك بيتر. أتمنى ألا تكون تتشيطن من جديد، فهذه تبدو خاصيّتك. لا تعطيني تلك الابتسامة الإبليسية فهي لا تخيفني. فون جيرارد، خذه إلى أوتيله. أنا هنا لا أريد أكثر من ارتداء قميص النوم والتمدد على السرير، وهذه البنت هنا ترتجف كخيل سباق. والآن اذهبوا، كلكم. ما يبدو سيئاً في الليل دائماً يتحسّن في الصباح. يا لطيف! هناك صوت ينادي من الطابق الثاني، لعلها المؤجرة. اركضي يا دون وأخبريها أن أختك المحترمة قد أتت إلى هنا. بيتر! فون جيرارد! بلاكي! اخرجوا!»

الفصل التاسع عشر

«أنت يا من كنت دائماً حاضراً لتصادق رجلاً، أنت يا من كنت دائماً موجوداً لتدافع عن رجل، أنت يا من دائماً معك المال لتسعف رجلاً مقضوم الحظ ومحتاجاً للعون. لا شك سيكون مكانك في الجنة والغبطة (وسيكون منظرك غريباً في تلك السترة). يوماً ما، عندما يصبح الشكر ابتذالاً، ستجد لنفسك اعتدالاً».

من مكتبي كنت أستطيع رؤية بيتر واقفاً عند مدخل غرفة محرر الأخبار. أغمضت عيني للحظة، من ثم فتحتهما مجدداً، بسرعة. لا، لم يكن حلماً. لقد كان هناك، شخصية نحيلة، رشيق وناقم، مع تلك السيجارة دائمة الوجود بين أصابعه المرتجفة، نفس السيجارة ثمينة المظهر ذهبية الفلتر من الأيام الخالية. بيتر كان بيتر. عشر سنوات بالكاد صنعت فرقاً. كان هناك تجاويف صغيرة غريبة في خديه، وتحت عظمة الفك، وفي مؤخرة رأسه، ومظهر جلدٍ رخو ومهترئ كورق البردي. كانت هذه الأشياء وحدها ما جعلته مختلفاً عن بيتر من الأيام الخوالي.

لقد رتبتْ الأزمة نفسها، كما توقعت نورا أن يحدث. تحول الموقف الذي ملأني بالحقد والرعب ليلة عودة بيتر إلى قضية عادية الآن التعامل معها ممكن، وكل هذا يعود لإدارة نورا الممتازة للأزمات. والآن قد رجعت إلى العمل، وبيتر كان ينتج مقالات سياسية مذهلة، لكن بشكل متقطع. لم يكن قادراً على بذل أي جهد منظّم ومستمر، ولن يكون قادراً على هذا أبداً، وقد كان هذا الواقع الجديد واضحاً. يوم عن يوم كان يزيد تذمره واستياؤه. كان يتحدث عن نيويورك كأنها

فالهالا[1]. قال إنه لم ير فتاة جميلة واحدة منذ ترك حيّنا في المدينة. ضحك وسخر من جو ميلواكي الألماني البسيط. هزأ من أساليبنا الصحافية، وأطلق اسم «أوراق ريفية» على الجريدة، ولم يتوقف للحظة عن الكلام عن صحيفة الوورد، والهيرالد، والصَن، حتى صار أعضاء نادي الصحافة يخجلون من النقاش معه. نورا وجدت لبيتر غرفة مريحة وهادئة في نزل بجانب البحيرة، ولا يبعد عن المبنى الذي أنا فيه إلا حيّين، ولقد كره هذه الغرفة بطريقته المؤدبة الاحتقارية، كرهها كما يكره محبو الثراء والبذخ غرف الإيجار، وهدد بالرحيل يومياً.

«دون يا امرأة، دعينا نعود إلى المدينة». كان يقول لي. «سنُدفن أحياءً في هذه القرية الهولندية المتضخمة. لقد أتيت إلى هذا المكان أصلاً لأجلك، والآن حان دورك لتخرجيني منه. فكري بماذا تعنيه نيويورك! فكري بما كنتُ عليه! وكما ترين ما زلت أستطيع أن أكتب كالسابق».

ولكنني دائماً كنت أهز رأسي. «يا بيتر، لن نقدر على العيش ولو لشهر في نيويورك. نيويورك أسرعت وتركتنا خلفها. أنا وأنت مجرد خردوات، وعلينا أن نرضى بحيث نحن الآن».

«نرضى؟ في هذا الدرك المقرف؟ لابد أنك جننتِ!» ثم، في واحدة من تحولاته المفاجئة للنبرة والموضوع، كان يعاود الكلام. «يا دون، دعيني أحصل على بعض المال. أنا مقشوف. إن كان عندي الوقت قد أكتب شيئاً لمجلة ما، أي شيء لأحصل على المزيد من النقود. كيف لذلك الرجل الذي يدعى بلاكي أن يكون عنده دائماً مال جاهز؟ أنا حتى الآن لم أسأله مرة ليدينني إلا ونفّذ مباشرة. أعتقد أنه يحبّكِ، وهو يظن أنه يقدم لك خدمة غير مباشرة بمساعدتي».

---

(1) في الأساطير النوردية، قاعة عظيمة في العالم الآخر يرأسها أودين ويستقبل فيها نصف من قتلوا في المعارك

في لحظات كهذه، كل تلك الأشباح التي ظننتها قد ماتت داخلي كانت تنهض في غضب وتمرّد على هذا المخلوق الذي كان يأخذ مني كبريائي، يأخذ إحساسي بالكرامة، يأخذ مني أصدقائي. لم أعد الآن أرى فون جيرارد. بيتر كان قد رفض رفضاً قاطعاً أن يذهب إليه للعلاج، قائلاً إنه لن يُسمم من قبل أي طبيب لعين، وبالأخص من قبل طبيب أراد أن يهرب مع زوجته أمام عينيه مباشرة.

أحياناً فكرت، لكم من الوقت بعد سيستمر هذا الوضع. فكرت بالأيام الخالية مع آل نيرلانجر. فكرت بكوخ آلما فلوجل المسيّج بالورد. فكرت ببِني، وبآل نابف، وبالمحليين الأهواج لطيفي الروح، وبقصة طيبتهم. نادراً ما كنت أرى هؤلاء الناس الآن. انسحاب السيدة نيرلانجر إلى حزنها وعزلها لنفسها جعلاني أتمرد أكثر على الحزن الذي في داخلي. كنت أقول لنفسي بمرارة: فقط لو يعود بيتر إلى قوته وصحته السابقة، لو لم تكن تلك الظلال الزرق تحت عينيه، وتلك العضلات الغائرة، والبشرة الذابلة، كنت أستطيع تركه ليعيش حياته كما يريد، ولكنه كان اتكالياً كطفل، وبنفس درجة تقلّب المزاج. ما هي النهاية لكل هذا؟ سألت نفسي. إلى أين كانت هذه الأحوال تأخذني؟

من ثم، بشكل رائع ورهيب، وصلني الجواب على سؤالي.

في يوم من أيام العمل، وصل إلى مكتبي مغلف مختوم بشعار دار النشر التي بعثت لها روايتي. وازنت المغلف للحظة في أصابعي، بكل حرص، كلي أمل وتساؤلات وظنون.

«بالطبع رفضوا نشرها». قلت لنفسي وأنا أتجهّز لأي خيبة أمل تنتظرني في المغلف. «سوف يعيدون المخطوطة لي. هذه الرسالة هي التي ستخبرني بذلك».

من ثم، فتحت الرسالة، وقفزتْ الكلمات إلى عيني من الورقة المطبوعة. سحقت الورقة بين يدي وركضت مسرعة إلى مكتب بلاكي الصغير كما اعتدت

أن أفعل في الأيام الخوالي. كان جالساً وراء مكتبه، غليونه في فمه. أخذت أهز كتفه ونفضت الورقة في وجهه، وقمت برقصة صغيرة مجنونة حول كرسيه.

«يريدونها! لقد أعجبتهم! ليس هذا فقط، بل يريدون أخرى أيضاً وفي أقرب وقت ممكن. فكر بها!»

سحب بلاكي الغليون من بين أسنانه، ومسح شفتيه بقفى يده. «ها أنا أفكر». قال. «أي شيء لإرضائك. عندما تفرغين من تمريغ الورقة في وجهي أتمانعين أن تشرحي لي من يريد ماذا؟»

«أوه، ما أغباك! ما أبطأك! ألا تستطيع أن ترى أنني كتبت رواية عن حق وحقيق، وأنهم قبلوا نشرها، وأنني سأكتب واحدة أخرى ولو اضطررت لأن أهرب من فوج كامل من الأزواج لأفعلها؟ يا بلاكي، ألا ترى ما يعنيه هذا! آه يا بلاكي أنا أعرف أنني درامية في فرحي، ولكن سامحني، فقد مضى وقت طويل منذ تذوقت طعم السعادة».

«طيب، والآن وقد صار لديك الفرصة لتذوقها، اعلكي جيداً، ولا تعتمدي كثيراً على مرابح الكتاب الأول. كنت أعرف رجلاً كتب رواية مرة، وقد خطط ليقوم برحلة إلى أوربا من أرباحها، وأن يبني بيتاً حين يعود، ولربما يشتري يختاً أو ما شابه، إن لم يستعجل. أقول لك يا فتاة، عندما وصله كل المال من مبيعات ذلك الكتاب، كان عنده بالكاد ما يكفي ليغير ورق الجدران في غرفة السفرة، ويشتري فرن غاز جديد لزوجته، ولم يبق مال يكفي حتى لرحلة تمشاية إلى أوشكوش[1]. يعني من الآخر، لا تعوّلي على مال الكتاب كثيراً».

«أنا لست أعوّل على شيء نهائياً يا بلاكي، ولن تستطيع أن تحبط من معنوياتي».

---

(1) مدينة صناعية في ولاية وسكنسن

«لا أريد ذلك، ولكن سأكره أن أراك ترتطمين بضربة قاسية على الأرض».

فجأة نهض من مقعده وابتسامة عريضة امتدت على وجهه النحيل. «سأقول لك ما سنفعله يا بنت. سنحتفل. ولعلها ستكون المرة الأخيرة. دعينا ندّعي أن اليوم هو واحد من أيام الست شهور الماضية، وأن كل شيء على ما يرام. ارتدي قبعتك. أنا سأجلب السيارة. أصلاً الجو حار ولا يمكن العمل، سنسوق السيارة إلى مكان ما أبرد، وسنشتري أشياء باردة لنأكلها، وأشياء باردة لنشربها، وستقدرين على الكلام عن نفسك حتى تملّي. أنت محتاجة لتفضفضي لأحد، فلا مانع أن يكون هذا الشخص هو أنا».

خمس دقائق بعد ذلك، ومع قبعتي في يدي، استدرت لأجد بيتر واقفاً في نفس الغرفة.

«أريد أن أتحدث معك». قال لي عابساً.

«أنا آسفة يا بيتر ولكني مشغولة، أيمكن تأجيلها؟»

«لا. لديك عمل؟ سأذهب معك».

«لا، ليس عملاً يا بيتر. الحقيقة أن بلاكي أشفق علي وقد وعد أن يأخذني في دورة في سيارته لنبرّد قليلاً. الجو حار ولا يحتمل».

استدار بيتر. «احسبيني معكما». قال من وراء كتفه.

«ولكنني لا أستطيع يا بيتر». رفعت صوتي عليه. «الدعوة ليست دعوتي، وأصلاً ـ»

استدار بيتر ليواجهني، وكان هناك توهج بشع في عينيه وتعبير بشع على وجهه، وتجعيدة حمراء صغيرة لم ألاحظها من قبل بدت كأنها تحرق نفسها على جبينه. «وأصلاً، أنت لا تريدينني، ها؟ طيب، أنا سأذهب. لا أقبل أن تتسكع

زوجتي حول البلد مع رجال أجنبيين. تذكري، أنت لم تعودي أرملة سعيدة كما كنت. إما أن تأخذيني معكما أو تبقي في البيت، فهمتي؟»

كان صوته حاداً وعالياً ومرتجفاً. شيء ما في تصرفه صعق قلبي بالخوف. «حسناً يا بيتر، إن كان الأمر يهمك لهذه الدرجة، فأنا سعيدة بقدومك معنا، وكذلك سيكون بلاكي، أنا متأكدة. تعال الآن لننزل، فهو ينتظرنا في الأسفل».

استطاع بلاكي بفطنته وسرعة بديهته أن يلتقط الحال من اللحظة التي رآنا فيها. كان وجهه الأسمر مضاءً بواحدة من ابتساماته النادرة. «قادم معنا يا أورم؟ ستفيدك. اصعدا السيارة كلاكما، وتمسكا جيداً، سأحطم القوانين بالسرعة».

تمشّى بيتر نحو عجلة القيادة وقال لبلاكي: «دعني أسوق. لست سيئاً في القيادة».

«لا حظّ مع الهواة». أجابه بلاكي. «هذه ليست سيارة تعلّم أو مفاخرة. أنا من يسوق سيارتي الصغيرة هذه، وأريد أن أفعل ذلك حتى آخر مشوار لي فيها».

تمتم بيتر بكلام فظ وجلس في المقعد الأمامي بجانب بلاكي، تاركاً لي المقعد الخلفي لأجلس فيه وحيدة.

بدأ بيتر بطرح أسئلة، الكثير منها، وأجاب بلاكي على كل واحد منها، واضحاً وصبوراً. لم أكن أستطيع سماع كل ما يقولانه، ولكنني رأيت بيتر يحث بلاكي على زيادة سرعة السيارة، وأن بلاكي كان يشرح له أنه قبل زيادة السرعة عليه تخطي الشوارع العامة المزدحمة. فجأة، أخذ بيتر يشير بيده إلى عجلة القيادة، وقال شيئاً ما بصوت حاد مرتفع. إجابة بلاكي كانت مباشرة وقاطعة في رفضها. في اللحظة التالية لم أرَ سوى أن بيتر قد نهض من مكانه وانحنى إلى الأمام، قابضاً على عجلة القيادة التي كانت بين يدي بلاكي. انحرفت السيارة. بشكل هادئ غريب، لاحظت أن بلاكي لم يشحب كما يصف الروائيون شخصياتهم في

حالات الرعب. فورة لون أحمر امتدت حتى بداية عنقه، وبالتواء من جسده الضعيف حاول أن ينزع يدا بيتر عن المقود. تذكرت أنني انحنيت فوق المقعد محاولة شد بيتر للوراء، وقد أدركت أننا نتعامل مع مجنون خالص. لا شيء بدا حقيقياً. كان الأمر يشبه لدرجة سخيفة تلك المشاهد التي يراها الواحد منا في قاعات السينما. لم أشعر بالخوف.

«اجلس يا أورم!» صرخ بلاكي. «ستقتلنا! دون! الله!»

قُذفنا فوق تلة صغيرة، عجلتا السيارة قد ارتفعتا عن الأرض. كانت السيارة معلقة في الهواء لمدة ثانية قبل أن تسقط في الخندق وتنقلب بكاملها، رامية بي إلى الخارج، ولكنها دفنت بلاكي وبيتر تحت ثقلها من الحديد والخشب وطنين العجلات.

أتذكر أنني نهضت عن الأرض، وسقطت مرة أخرى، ونهضت مجدداً لأسير إلى المكان حيث انقلبت السيارة في الخندق، وصرت أشد وأدفع وأحاول تحريك هيكل السيارة الحديدي بأصابع مجنونة عابثة. من ثم ركضت إلى الشارع وأنا أصرخ، واتجهت نحو رجل كان يعمل بسلام في مزرعته بالقرب منا.

الفصل العشرون

المعطف الأزرق الطويل المهترئ معلق على عقافة في غرفة الأخبار الرياضية حيث وضعه بلاكي. لا يحلم أحد حتى بتحريكه. هناك يتدلى، بالياً من الأكواع، سيء الصيت، وجيوبه محترقة من كثرة حشي الغليون الساخن فيها، أطراف أكمامه منسّلة، حوافه تحمل آثار الحبر واللاصق والسجائر.

قطعة الملابس تلك، أكثر من أي شيء آخر، هي ما تجعلنا نفشل في إدراك أن صاحبها لن يعود أبداً لينسلّ بين ثناياها المريعة. لا نصدق أن قطعة قماش ميتة كهذه قد تنتصر على الإنسان بلحمه ودمه وأعصابه وعواطفه. بأي احتقار ننظر إلى هذه الملابس طيلة حياتنا! وكيف تعيش هذه الأقمشة من بعدنا، منازعة الزمن، باقية لفترة طويلة بعد أن نكون كلنا قد تجمعنا في مثوانا الأخير.

من خلال معجزة ما، بقي بلاكي حياً ليومين بعد ذلك الحادث المروّع. أما بيتر فقد قُتِل مباشرة، كما قال الأطباء، ولكنهم لم يقدموا أي آمال فيما يخص وضع بلاكي. أما كيف استطعت أنا فقط النجاة مع بعض الجروح والكدمات، فيعزى رئيسياً، كما قال لي الأطباء، إلى أنني كنت جالسة في المقعد الخلفي. أنصتُّ لهم كلهم، في حالة انشداه من الرعب والأسى، وتساءلت أي خطة أخفاها لي القدر، تاركاً مني الناجية الوحيدة. جاء كلّ من نورا وماكس، واستلما كل المهام، ورأيت فون جيرارد، ولكن ثلاثتهم بدوا معتمين كالظلال، كأجسام مشوشة في الضباب. عندما أغمضت عيني، كنت أستطيع رؤية جسد بيتر المتشنج منحنياً

فوق بلاكي على المقود، وسمعت أنفاسه الثقيلة وهو ينازع في غيظه المجنون، وشعرت مرة أخرى بذلك الرعب الشلليّ الذي ملأني عندما انحرفنا عن الطريق الرئيسي وإلى خندق في الأسفل، وبلاكي، متجمداً ويائساً، ظلت يداه متمسكتان بالمقود. عشت اللحظات تلك مرة بعد مرة في رأسي. في وسط العتمة سمعت جملة بددت الظلام من ذهني، وجعلتني أرفع جسدي عن الوسائد.

شخص ما ـ نورا أعتقد ـ قال إنّ بلاكي قد أفاق من غيبوبته، وإنه كان يطلب مجيء بعض العاملين في الجريدة، ويطلب مجيئي أنا. أنا! نهضت وارتديت ملابسي رغم اعتراضات نورا. كنت بخير، قلت لهم، عليّ رؤيته. أبعدتهم عني بأصابع مرتجفة، وعندما رأوا أنني كنت عنيدة في تصميمي، استسلموا وتركوني. اتصل فون جيرارد بالمستشفى ليعلم في أي ساعة أستطيع الذهاب إلى هناك لألتقي ببلاكي مع الآخرين.

التقيت بهم في قاعة الانتظار الكئيبة في المستشفى؛ نوربيرغ، ديمينغ، شميدت وهولت ـ رجال عرفوا بلاكي منذ كانوا ينادونه «يا ولد!» عندما أرادوا أن تُبرَ أقلامهمَ. تبعنا جميعنا محرجين الممرضة ذات الخطوات الخفيفة وهي تتنقل بنا في أرجاء ممرات المستشفى الواسعة، ومن أمام الأبواب حيث استرقنا نظرات إلى أسرّة بيضاء تشابه لونها مع لون وجوه قاطنيها المستلقين على الوسائد. أخيراً وصلنا إلى غرفة هادئة ومضاءة حيث كان بلاكي.

كم من السنوات مضت عليه منذ رأيته آخر مرة؟ الوجه الذي حاول الابتسام لنا من عن الوسائد كان غريباً في كِبَره وحكمته، وبدا لي وكأن داءً من الذبول قد لمسه. فقط العينان لم تتغيرا. كانتا تتوهجان في الوجه الغائر، تحت عُرف الشعر الأسود، يعوم فيهما بريق ولمعان مذهلَيْن.

أنا لم أعرف أي ألم قد عانى. لم أعرف أي دواء سحري أعطاه القوة ليبتسم

لنا، وهو هناك على سرير موته. «ما بالكم يا أولاد؟» قال بصوت مرتفع ولكن ضعيف. صدمة سماع صوته كانت كبيرة، فأخذتنا ضحكة هيستيرية، ثم توقفنا فجأة وبدأنا نتبادل النظرات كأطفال مشاكسين وخائفين.

«أقول لكم يا صبيان ويا بنات، خلّصوني من ثقل أفكاركم. لا تجعلوني أقوم بكل الحيل والزيف الاجتماعي وحدي. ما الأخبار؟ أي أخبار رياضية عفنة ينتجها ذاك المعتوه كالاهان؟ من فاز اليوم، فريق الكَبْس أو البايرتس؟ نوربيرغ يا عنزة، من لصق عليك ربطة العنق البنفسجية هذه؟»

لقد كان تماماً كالبلاكي الذي نعرفه، مما خفف من توترنا وأراحنا مباشرة. دخل شعاع الشمس من النافذة، وشخص ما ضحك ضحكة صغيرة من مكان في آخر الممر، وديمينغ، الذي كان إيرلندياً، أخذ يتحدث عن صبي المكتب الجديد ويصفه بتعابير هزلية.

«بربك يا بلاكي، هذا الولد يرتدي النظارات وبدلة نيويوركية وحذاءً بشرائط. أحلف لك أنه يفعل. يبدو شكله كواحد من أولاد بوسطن الذين تراهم في الكاريكاتور. لا أصدق أنه حقيقي. سنحتفظ به حتى وقت عودتك، هذا إن لم يأكله أولاد الحي قبل ذلك اليوم».

شبح بالكاد تستطيع ملاحظته مر فوق وجه بلاكي. أغمض عينيه للحظة، وبدون نور عينيه، كان وجهه رمادياً وكئيباً.

ظهرت ممرضة بزي مخطط وقبعة عند الباب. أمعنت النظر في الجسد الصغير على السرير، ثم التفتت نحونا وقالت: «عليكم الذهاب الآن. تعرفون أنكم هنا لتروه فقط لدقيقة أو اثنتين».

استحضر بلاكي ابتسامة فاترة إلى شفتيه. «يبدو أنكم يا رفاق لا تملكون التأثير المماثل لبعض المغذيات. أقول لك يا نوربيرغ، قل لذلك السمين كالاهان

إنه وإن لم يبقي الدرج الثالث على اليسار في مكتبي مقفلاً، فسيخرّب صبيان المكتب عليه حياته، وهذا شرٌّ مؤكد».

«سوف... سوف أخبره يا بلاكي». تأتأ نوربيرغ وأشاح بوجهه بعيداً.

وبمناخ من الحرج، ودّع الجميع بعضهم. ولا واحد منهم لم يكن مديناً بالشكر لبلاكي، عليهم كلهم دينٌ له لا يمكن ردّه. كل واحد منهم في قلبه ذكرى محفوظة عن عطف وكرم بلاكي. كان بلاكي هو من قدّم المال الذي أرسل زوجة ديمينغ المريضة إلى مستشفى في الغرب. كان بلاكي هو من أنقذ شميدت مرة بعد أخرى عندما قبضت على الأخير عادة الشرب، فبلاكي كان دائماً يقول: «تطرد شميدت! ما حزرت! لماذا وشميدت يكتب وهو سكران أفضل مما يكتب الجميع هنا وهم صاحون». وهكذا كان شميدت يُعطى فرصة أخرى من الرؤساء.

فجأة، أشار بلاكي للممرضة الواقفة عند الباب. أتت إليه مسرعة وانحنت فوقه.

«كوني ممرضة كيّسة واعطيني دقيقتين بعد. هناك شيء أريد أن أقوله للآنسة هنا. من الفضيلة السماح لي بتمرير رسائلي الأخيرة، صحيح؟»

نظرت إليّ الممرضة بوجه يعتمره الشك. «حسناً، ولكن لا ترهق نفسك عاطفياً».

«أقول لك يا فتاة، لن يصير هذا مشهداً من رواية فكتورية. كوني بنتاً شاطرة. الآخرون يستطيعون الذهاب».

وهكذا، عندما رحل الآخرون، وجدت نفسي جالسة بجانب سريره، محاولةً أن ابتسم له. عرفت أنه يجب ألا يرهقه شيء، ولكنني لم أستطع إيقاف الكلمات عند شفتي.

«بلاكي»، قلت، ونازعت لأبقي صوتي هادئاً وخالياً من المشاعر. «بلاكي، سامحني. كل هذا بسببي، بسببي أنا»

«اخلصي من هذا». قاطعني بلاكي. «اعتقدت أنك متماسكة الأعصاب في مثل هكذا مواقف، لهذا أردت أن أتحدث معك. الآن اسمعيني. تتذكرين قولي لك من بضع أسابيع مضت عن تلك العطلة التي كنت أخطط لها؟ هذه هي. كل ما حصل أنها أتت أبكر مما توقعت. رأيت عدة أطباء للاستشارة، صديقك فون جيرارد كان واحداً منهم، ولم ينصحوني بالذهاب في رحلة بحرية هذه المرة. لقد قرروا بين بعضهم، أن عطلتي هذه ستأتي في نوفمبر، ربما. ما حصل أنني سبقت توقعاتهم. أقول لك يا فتاة، أنا لن أعيش. لا يقدر الواحد أن يعيش على أعصابه ويتوقع أن يطول عمره. عاجلاً أو آجلاً سترفعين دعوة على هذه الأعصاب لعدم دفعها نفقات الطلاق. ولكن يا بنت، أليس مخزياً أني سأموت بسبب حادث سيارة ونحن صرنا نعيش في زمن حتى إقلاع الطائرة فيه لا يهم أحداً ولا يعتبر خبراً مهماً!»

كانت اليد السمراء المتوترة تتحرك مضطربة فوق الأغطية. والتقت أخيراً بيدي، وأمسكت بها بقبضة خفيفة متشنجة.

«أنا وأنتِ كنا صديقين جيدين، أليس صحيحاً يا بنت؟»

«صحيح يا بلاكي».

«ألا تندمين ولو قليلاً؟»

«أندم؟ أنا صرت امرأة أفضل وأحسن وأصدق لنفسي بمعرفتك يا بلاكي».

بسماعه هذا تنهّد تنهيدة تنم عن الرضى، وأغمض عينيه. عندما فتحهما، الابتسامة القديمة المشاكسة ملأت وجهه بالتجاعيد.

«هنا ينتهي طريقي. لم تكن رحلة طويلة، ولكن أقول لك يا فتاة، لقد استمتعت بكل خطوة من الطريق. مررت بكل أنواع المشاهد، كل أنواع المناظر الطبيعية ـ عادية، راقية ـ في الأعلى أو في الدرك»

انحنيت إلى الأسفل، خائفة.

«لا، ليس بعد». همس بلاكي. «قولي لي يا دون ـ في القصص والروايات ـ ألا يؤكدون دائماً على قبلة الوداع؟»

وبينما ظهرت الممرضة عند الباب مرة أخرى، الاستياء بادٍ على وجهها، أحنيت رأسي للأسفل، وضغطت بشفتي على الخد المجروح.

الفصل الواحد والعشرون

تركنا جسد بيتر ليدفن في تلك المدينة المزدحمة، الغير آبهة، والصاخبة، وهي المدينة التي كان يحب، وأعتقد أن شفتيه الساخرتين كانتا لتتقوسا بمرارة في ابتسام راضية، وعيناه الكئيبتان كانتا لتشتعلا غيظاً لو رأى كم قد نسيت نيويورك بيتر أورم، تماماً ونهائياً. لقد دفنوه حياً منذ عشر سنوات هناك ـ وعمل الصحافة لا يؤمن بالبعث. بيتر أورم لم يكن حتى ذكرى، فعشر سنوات تعتبر حقبةً كاملة في مدينة تُحسب فيها العصور بالساعات.

والآن، وبعد أسبوعين من اهتمام نورا وعطفها، كنت قد عدت إلى المدينة الجميلة الصغيرة بجانب البحيرة. لقد عدت لأودّع كل أولئك الذين ملأوا حياتي طيلة السنة الماضية. أيام عملي في الصحيفة قد انتهت. الخريف والشتاء سأقضيهما عند نورا، وسأملئهما بساعات ممتعة ومرضية من العمل، فأنا سأبدأ بكتابة روايتي الثانية، محاطة بالسلام والسكون في بيت ميتشغان الصغير. فون جيرارد سيذهب في رحلته المؤجلة إلى فيينا في الربيع، وأعرف أنني سأذهب معه. مجرد التفكير بالأمر ملأ قلبي بطوفان من السعادة.

مع بعضنا، زرنا فون جيرارد وأنا كوخ آلما فلوجل، وعندما فتحنا البوابة الصغيرة، كانت الحديقة تزهر بكل تلك الألوان والروائح العجائبية. مشينا أنا وهو في الدرب الضيقة القديمة، ووجدناهم تحت الظل البارد للتعريشة، المرأتان تحيكان وبِني يتسلى بآخر لعبة جميلة قد ابتاعها له بلاكي. لقد شكّل

الثلاثة معاً صورة جميلة وصافية، وخلفهم ستار أخضر من الأوراق. تحدثنا عن السيدة نيرلانجر، وعن بلاكي، وعن سلسلة الأحداث التي لا شك جعلت منا حلقة محكمة من الأصدقاء. عندما قبّلتهم، وسرت لآخر مرة، منذ شهور عديدة، من خلال الدرب المسيّج بالورود، بالزنابق والقرنفلات، ألوان تلك الحديقة الرائعة، الأخضر والذهبي، كلها أخذت تسبح في دمع عيني.

السيدة نيرلانجر كانت هي التالية. عندما تحدثنا عن فيينا، انقطع نفسها بحدة.

«فيينا!» كررت خلفي، والشوق في صوتها كان مؤلماً بحق. «يا ربي! فيينا! هل سأراها مرة أخرى؟ يا ربي، ابني هناك، لربما ـ»

«لربما»، قلت لها برقة. «أشياء أغرب من هذه قد حصلت. لربما إن استطعت أن أراهم، وأتكلم معهم ـ لو استطعت أن أقول لهم ـ لعلهم قد يتفهمون. لم أشتغل صحافية كل هذه السنوات بدون اكتساب موهبة ذهبية في الإقناع. لربما ـ من يدري؟ـ قد نلتقي مجدداً في فيينا. أقول لك، أشياء أغرب قد حصلت».

هزت السيدة نيرلانجر رأسها مع تنهيدة يأس صغيرة. «أنت لا تعرفين فيينا. لا تعرفين القوة والسلطة الحديدية للطبقات والتقسيمات الاجتماعية والتقاليد والكبرياء الجاف. أنا ميتة في فيينا، والأموات يجب أن يُتركوا بسلام».

كان المساء قد حلّ عندما استدرنا أنا وفون جيرارد بالسيارة متخذين الطريق المؤدي إلى مبنى الجريدة، وكنت قد قررت أن تكون هذه آخر زيارة أقوم بها.

«أتمنى ألا تكون الجنة مكاناً بشوارع مذهّبة، وقيثارات تطنطن، وملائكة تغني». قلت بصوت خافت. «بلاكي الصغير، المتوتر، النحيل كثير الحركة سيملّ ويمرض في جنة كهذه! كم وحيداً سيكون، بدون غليونه الأسود الموثوق، وقمصانه الملونة، وألماساته، وتقاريره الرياضية. آه، أتمنى أن يكون عندهم في السماوات كل الأشياء العادية اليومية والأرضية التي يحبها بلاكي».

«لقد صرت تعرفينه جيداً في هذه السنة القصيرة». علّق فون جيرارد. «أحياناً كنت حانقاً على الرابط الذي جمعكما ببعض، أنت وهذا البلاكي الصغير الذي لم يتوقف لسانك عن ذكره».

«آه، أعتقد أن سبب هذا هو عدم فهمك للأمر. فبالنسبة للنساء، من النادر جداً أن نعرف صداقة رجل حقيقية. هذا كان الرابط بيني وبين بلاكي. بالنسبة لي، لقد كان رفيقاً، وبالنسبة له، كنتِ فتاة صديقة، واحدة يستطيع الكلام معها بدون أن يطفئ سيجارته أو غليونه. الحب وعلاقات الحب كانت تجلب الضحكة المرحة لبلاكي، ليس أكثر».

كان فون جيرارد صامتاً، وشيء ما في صمته جعلني أشعر بانزعاج بسيط. أخذت فلساً من محفظتي، ووضعته في يده.

«كنت أفكر»، قال لي. «لا أحد أعمى كما هؤلاء الذين لا يروون».

«لم أفهم». قلت متسائلة.

«لا بأس بهذا». أجاب فون جيرارد ونحن ندخل المبنى. «ذاك ما يجب أن تكون عليه الأمور». ورفض أن يقول أي شيء آخر.

لقد أُرسلت آخر مقالات اليوم إلى المطبعة، وقد تقصدت انتظار الوقت الملائم حتى يكون صدى وقع خطوات آخر صحافي قد اختفى من الممر الطويل. غرفة تحرير الشؤون المحلية كانت مهجورة إلا من شخص واحد منحني فوق كومة من الأوراق والصور. نوربيرغ، محرر الشؤون المحلية كان، كالمعتاد، آخر من يرحل. مصباح مكتبه توهج في ظلمة الغرفة الكبيرة، وآلته الكاتبة وحدها كانت كفيلة بتذكيري بصدى خطوات كل من عملوا هنا.

عندما وقفت في الباب، رفع عينيه لينظر لي من تحت قبعته الخضراء، وبدّد بيده سحابة من الدخان متجمعة حول رأسه.

«هذه أنت يا سيدة أورم؟» نادى عليّ. «والله اشتقنا لك! المرأة الجديدة هنا لا تستطيع كتابة تأبين، وقصصها المُدْمِعة تُقرأ وكأنها نحتت بإزميل متجمد. متى ستعودين إلينا؟»

«أنا لن أعود». أجبته. «أتيت لأودّعك وأودّع بلاكي».

رفع نوربيرغ رأسه بسرعة. «تشعرين بهذا أيضاً؟ شيء مضحك، فالجميع هنا يشعرون بنفس الإحساس. أفكر بأننا جميعاً متأكدون قليلاً، نحمل يقيناً ما، بأن هذه واحدة من خدعه الشيطانية، وأنه في صباح ما سيدخل صافقاً باب غرفة التحرير هنا وينادي علينا: مرحباً يا عبيد! أتبقون ذِكْري أخضرَ في قلوبكم؟»

مددت له يدي شاكرة. أخذها في كفّه الضخم وارتسمت ابتسامة على وجهه أظهرت الغمازتين على خديه السمينتين. «ستزهرين على شكل كاتبة شابة، ها؟ أتعرفين، يقولون إنه عمل مثري عندما تمسكين بمفاتيحه، وأنا أظن أنك تملكينها كلها. ولكن إن شعرت يوماً بأنك تريدين تشويقاً حقيقياً ـ لمسة من الرضى الخاص بعمل الصحافة ـ أو شمّة من الحبر ـ أو موسيقى الشتائم وقت التدقيق ـ تعالي إلى هنا، وسأعطيك أفضل مهمة على لائحتي ولو كان عليّ أن أسحبها من جدول عمل ديمينغ نفسه».

بعدما شكرته، قطعت البهو وجرّبت فتح باب غرفة الشؤون الرياضية. فون جيرارد كان ينتظرني بعيداً جداً في الجهة الأخرى من الممر. فُتِح الباب، وخطوت بخفة إلى داخل الغرفة وأغلقت الباب ورائي. الغرفة الصغيرة كانت معتمة، ولكن في الضوء الخافت كنت أستطيع تمييز التغييرات التي قام بها كالاهان ـ أزاح المكتب ليقربه إلى النافذة، وأدار الآلة الكاتبة إلى الجهة الأخرى. اغتظت من هذه التغييرات.

ألقيت نظرة على الزاوية حيث اعتدت أن أرى المعطف القديم المهترئ

معلقاً، وهناك كان يتدلّى، غير ملموس، كما تركه بلاكي تماماً. لم يجرؤ كالاهان على أن يغير مكانه. مشيت على أمشاط رجلي إلى الزاوية ولمسته بأصابعي برقة. طبقة خفيفة من الغبار كانت قد استقرت فوق القماش البالِ، ولكنني كنت أعرف كل زاوية لُبست من المعطف، كل نقطة حبر، كل حرق أو فتق من السجائر أو الغليون. مررت يدي فوقها بلطف وشوق، ومن ثم، وفي عتمة تلك الغرفة الصغيرة الهادئة، أرحت خدي على القماش الخشن، لتعود لي رائحة الغليون الأسود مرة أخرى، وبقعة جديدة ظهرت على كمّ المعطف ـ بقعة بلل مالحة. بلاكي كان سيكره قيامي بهذا، ولكنه لم يكن هنا ليرى، وبقعة إضافية لن تصنع فرقاً. كم كان هذا المعطف متسخاً وقديماً وسيء الصيت.

«يا دون!» نادى فون جيرارد بصوت خافت من وراء الباب. «أأنت قادمة يا بنت؟»

ربَّتُّ على المعطف الصغير وفارقته. «وداعاً». همست له، استدرت نحو الباب، وأجبت فون جيرارد بصوت مرتفع:

«نعم قادمة!»

السيرة الذاتية للمؤلفة

إدنا فيربر

ولدت في 15 أغسطس من العام 1885 وتوفيت في 16 أبريل 1968، وهي روائية أمريكية وكاتبة قصة قصيرة وكاتبة مسرحية. تمتعت رواياتها بشعبية كبيرة، كما أنها حاصلة على جائزة البوليتزر للأدب.

السيرة الذاتية للمترجمة

نور شرف

مترجمة سورية، من مواليد 1996، تعمل حالياً في الترجمة والكتابة القصصية، إلى جانب دراستها في الأدب الفارسي في جامعة دمشق

دون أوهارا

الفتاة التي ضحكت

كيف أضرَم النار في مخيلتي القروية، لقد كان أروع الكتّاب في الجريدة وأكثرهم تهتكاً. كيف قفز قلبي في ذلك اليوم الموحش، عندما رفع ذلك الأعجوبة رأسه عن مكتبه. رآني ومشى باتجاهي حيث كنت أجلس أمام آلتي الكاتبة، ابتسم لي بود وكنت متأكدة أن فمي كان مفتوحاً على وسعه من المفاجأة. لقد كان يدخن سيجارة باهظة الثمن ذات فلتر ذهبي اللون. سحبها من بين شفتيه بتلك اليد التي دائماً ما كانت ترتجف، وتركها تقع على الأرض ليسحقها بطرف حذاءه، ألقى برأسه الوسيم إلى الخلف، ونفخ ما تبقى من دخان في فمه على شكل لولب هزيل. تذكرت ما مر في ذهني وقتها، كم كانت خسارة له أن يسحق تلك السيجارة الثمينة فقط لأجلي.

«اسمي أورم». قال بجدية «بيتر أورم، وإن لم يكن اسمك على الأقل شونسي أو بورك، فلا فكرة لدي ما يعنيه الشعر الأسود والعيون الرمادية».

« لا فكرة لديك بالفعل». أجبته وضحكت. «فاسمي هو أوهارا... دون أوهارا».

ISBN 978-1-7732239-9-5